الحضارة الإسلامية

نصوص من القرآن والحديث

ولمحات من التاريخ

د. إبراهيم عوض



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : الحضارة الإسلامية

المـــــؤلف : د. إبراهيم عوض

رقـم الإيداع :

الطبعة الأولى 2011



Tokoboko_5@ya

إهداء

إلى ربيعة بنت عمر بن خليفة مثال الرقة وتوقد الذكاء وكرم النفس وشجاعة الروح، مع أطيب الدعوات بدوام النجاح والتميز وامتلاك القلوب.

مقدمة

شـغلنى موضـوع هذا الكتاب منذ وقتٍ جِدٍّ طويلٍ، إذ أذكر أننى كثيرًا ما كنت أدخل فى مناقشـات مع زملائى وأصـدقائى المصريين وغير المصريين أيام الجامعة حول مدى صلاحية الإسلام لهداية

البشر فى العصر الحديث بحضـارته شـديدة التطور. وكنت أقول إن الحضـارة إنما تتكون من عدة عناصر هى العقيدة والأخلاق والعلم والعمل والفنون والآداب. ثم أروح أستشهد ببعض ما يحضرنى وقتذاك من نصوص القرآن والحديث للدلالة على أن الإسـلام يفى تمام الوفاء بمتطلبات الحضـارة العصرية. ومنذ ذلك التاريخ وأنا لا أكاد أنسى هذا الأمر، إلى أن أُسْنِد إلىّ منذ أقلّ من شـهر إعداد شىء فى هذا الموضـوع، فشـعرت أنها فرصـة لوضـع ما فى ذهنى على الورق، فكان هذا الكتاب، الذى أرجو أن يجد فيه القراء شيئًا من نفع.

والكتاب يتكون من ثمانية فصـول جعلتُ الفصـل الأول منها لتحليل مصـطلح «الحضـارة الإسـلامية» بشِـقَّيْه الاثنين: «حضـارة» و«إسـلامية»، ثم خَصَّـصْـتُ كل فصل من الفصول الباقية لعنصر من عناصر الحضارة: ففصلٌ عن العقيدة، وفصلٌ عن الأخلاق، وفصلٌ عن العلم، وفصلٌ عن العمل، وفصلٌ عن الذوق،

بالإضـافة إلى فصـل عن أهم منجزات الحضـارة الإسـلامية يشـبه أن يكون لمحة طائر حسـبما جاء فى عنوانه، ثم فصـل آخر حاولت فيه أن أحلل أسـباب انهيار هذه الحضـــارة التى كانت تملأ العين لقرون طوال ثم ضـــعفت وشـــاخت وانهار بنيانها، وحيرت ألباب المصلحين فى محاولة منهم لبعثها إلى الحياة كرة أخرى. وفى كل فصل من الفصول المخصصة لعناصر الحضارة كنت أقوم بشرح معنى العنصر الحضارى الذى خصّـصـتُ الفصـل له، معزِزًا كلامى بإيراد الشـواهد الكثيرة عليه من القرآن الكريم والحديث الشريف، مع إيراد بعض اللمحات التاريخية التى تساعد على فهم الأوضـاع فى إطارها الواقعى، بالإضـافة إلى ما قاله بعض كبار العلماء والمفكرين من مسلمين وغير مسلمين فى الموضوع.

واللهَ أســأل أن يتقبل عملى ويتجاوز عما فيه من زلات وتقصــير وأن يعاملنى بفضــله لا بما صــنعتُ، فربما لم يكن لما أنجزته فى هذا الكتاب قيمةٌ تُذْكَر. والحمد لله رب العالمين حمدًا طيبًا مباركًا يليق ببره ولطفه بعبده الضعيف.





الحضارة الإسلامية – تحرير المصطلح



«الحَضَارة»، فى المعاجم والا ستعمالات القديمة: هى الإقامة فى الـــحَضَر، فهى عكس البداوة. وتُنْطَق كلمة «الحضارة» عادة بفتح الحاء، وإن كان هناك من يكسرها فيقول: «الحِضـــارة». وفى كل من «باب الفَعَالة والفِعَالة بمعنى واحد» من كتاب «إصـــلاح المنطق» لابن السِّـــكِّيت، و«باب ما جاء على «فَعَالة» مما فيه لغتان: فَعَالة وفِعَالة، بفتح الفاء وبكسرــها» من كتاب «أدب الكاتب» لابن قُتَيْبَة الدِّينَوَرِىّ نقرأ أن كلمة «حضارة» هى من الكلمات التى جاءت بالضبطين كــ«الرَّطَانة والرِّطَانة»، و«الوَقَاية والوِقَاية»، و«الوَكَالة والوِكالة»، و«الدَّلالة والدِّلالة»، و«المَهَارة والمِهَارة»، و«الوَصَـــاية والوِصَـــاية»، و«الجَنَازة والجِنَازة»، و«الجَرَاية والجِرَاية»، و«البَدَاوة والبِدَاوة»، و«الحَضَـــارة والحِضَـــارة»، و«الوَلاَية والوِلاية»، و«الوَزَارة والوِزَارة»، و«الرَّضَاعة والرِّضَاعة». ويقال: فلان حَضَرِىٌّ بيّن الحضارة، مثلما يقال: هو بدوىٌّ بيّن البداوة. فمن الواضـــح أن الحضـــارة فى التراث العربى تقابل البداوة. وكانت الحضـــارة مرتبطة فى الأذهان بوجه عام بالرقة والســـجاحة، بخلاف البداوة، التى كانت عنوانا على الخشـــونة، أو فى أحســـن الأحوال: على التلقائية والفطرة التى لم تُصْقَل بعد بتزيينٍ أو تحسينٍ مما يُؤْثِره بعض البشر، وإن كانت الفطرية التامة لا توجد تقريبا فى دنيا الناس، إذ لا بد من تدخل يد الإنســـان ولو فى أضـــيق الحدود كوضـــع المرأة الكحل فى عينيها مثلا لتجميل نفســـها. يقول القُطَامِىّ والمتنبى والمعرى فى المقابلة بين هذين المفهومين على الترتيب:

وَمَن تكُنِ الحضــارةُ أَعجَبَتْهُ فأيَّ أُنَــاسِ باديــةٍ تَــرَانا؟

***

حُسْــنُ الحَضــارَةِ مَجْلوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفي البَــداوَةِ حُسْــنٌ غَيْرُ مَجلوبِ

***

عُلِّقَ الحَيْنُ في الحَضَــارَةِ بِالخِدْ رِ، وَفي البَدْوِ شُــدَّ بِالأَطْنابِ

وعلى العموم فإن هذه الكلمة قليلة التكرار فى الشــعر العربى القديم على عكس الحال فى شعرنا ونثرنا الحديث، اللذين اتخذت فيهما معانى جديدة إلى جانب ما كان لها من معانٍ قديمة.

ومن هذه المعانى الجديدة، حســبما جاء فى «المعجم الوســيط»، مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر، وإن كان قد أضــاف أنها «مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى». ويعرفها معجم «الرائد» لجبران مسعود بأنها حياة أهل المدن والقرى، أو هى أهل المدن والقرى أنفســهم، أو المدن والقرى والمنازل المســكونة، أو مظاهر الرقي العلمي والأدبي والاجتماعي في الحضر. وهذا المعنى الأخير هو الذى يهمنا فى سياقنا الحالى.

والكلمة بهذا المعنى هى ترجمة لكلمة «civilization» فى الإنجليزية والفرنسية، فمثلا فى قاموس «Encarta» الفرنسى نجدها تعنى:

« ensemble des aspects culturels et sociaux d'une société ou d'un groupe de sociétés» و«ensemble des caractéristiques des sociétés considérées comme les plus évoluées .

ويعرفها قاموس «Encarta» الإنجليزى بأنها : «highly developed society: a society that has a high level of culture and social organization» أو «an advanced development of society: an advanced level of development in society that is marked by complex social and political organization, and material, scientific, and artistic progress» أو «advanced society in general: all the societies at an advanced level of development considered collectively.» بالإضافة إلى المناطق التى يسكنها بشر، فى مقابل الخالية من السكان. ويبدو لى، والله أعلم، أن «القرية» فى القرآن الكريم تستعمل بهذا المعنى الأخير. وحين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾[يوسف: 109] فإنما يقصد أن الرسل لا تُبْعَث إلا فى مجتمعات بشرية لا فى عزلة ليس فيها إلا النبى، أو النبى وأسرته على أوسع تقدير. ذلك أن الرسالات السماوية قد أتت لإصلاح المجتمعات والجماعات، وليس لشخص فرد فحسب، إذ «القرية» مشتقة من مادة «ق ر و»، وهذه المادة تعنى الجمع والتجمع. ويضيف قاموس مارى وبستر إلى معانى «الحضارة» معنى الرقى الفكرى والذوقى والسلوكى «refinement of thought, manners, or taste».

ويمكن أن نستعمل مصطلح «الحضارة» استعمالا محايدا بمعنى الوضع الذى يكون عليه أى مجتمع بشرى فى زمن معين من ناحية الفكر والذوق والسلوك والأخلاق والعقيدة والإبداع والإنتاج وما إلى ذلك، سواء كان وضعا متقدما أو متأخرا. فتكون «الحضارة» بهذا المعنى هى المستوى الذى بلغه المجتمع من الرقى والتقدم فى طور معين من تاريخه، أيا كان هذا المستوى تخلفا أو تقدما. وبناء على هذا يرى موريس كروزيه مثلا أن الأقوام المتوحشة ذاتها لها حضارتها الخاصة بها (انظر «تاريخ الحضارات العام»/ تحرير موريس كروزيه/ ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان/ منشورات عويدات/ بيروت/ ١٩٦٤/ ١/ ١). وعلى نفس الشاكلة ينفى د. فؤاد زكريا فى كتابه: «الإنسان والحضارة» (مكتبة مصر/ 10) أن «تكون الحضارة صفة لفئة معينة من البشر لا للبشر أجمعين»، إذ إن «لكل شعب من البشر قدرًا معينًا من التنظيم الداخلى لحياته، ومن الفهم لهذه الحياة على نحو يرتفع به عن مصاف الحيوان»، وإن كان هذا لا ينفى أن «الشعوب تتفاوت فى نصيبها من الحضارة»، أى «فى مدى ما اكتسبته من علم وخبرة وقدرة على تسخير الطبيعة من أجل خدمتها، غير أنها كلها ذوات حضارة، ولها منها نصيبٌ قَلَّ أم كَثُر، وكل ما فى الأمر أن ظروفا معينة: اجتماعية أم مادية طبيعية قدعزلت هذه الشعوب عن الاتصال بغيرها،

وبالتالى عن الاستفادة بخبرات الغير، فظلت مكتفية بخبرتها الخاصة المحدودة».

ومن ذات المنطلق يؤكد د. حسين مؤنس فى كتابه عن «الحضارة» أنه «من الخطأ القول بأن هناك جماعات بشرية متحضرة، وأخرى وحشية أو همجية. فليست هناك جماعات كاملة التحضر، وكذلك لا توجد جماعات إنسانية على الفطرة تماما. فلكل جماعة حضارتها، والفرق في المستوى» (د. حسين مؤنس/ الحضارة- دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها/ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب/ الكويت/ سلسلة «عالم المعرفة»/ العدد 1/ 1978م/ 16) وهذا هو المعنى الذى نقلتُه أول شىء عن قاموس «Encarta» الفرنسى، وفيه أن الحضارة ه هى : ensemble des aspects culturels et sociaux d'une société ou d'un groupe de sociétés. وقريب جدا منه ما نطالعه فى قاموس « Le Petit Larousse» (ط2009م) من أن الحضارة هى :

Ensemble cohérent de sociétés ou de cultures ; ensemble des caractères sociaux, culturels, etc., qu'elles partagent .

وكذلك فى قاموس أوكسفورد للمتعلم المتقدم، إذ يقول، ضمن تعاريف الحضارة، إنها : A society, its culture and its way of life during a particular period of time or in a particular part of the world.

ولعل النص التالى الذى أنقله من كتاب «الحضـارة- دراسـة فى أصـول وعوامل قيامها وتطورها» للدكتور حسين مؤنس (ص13) أن يكون هو أيضـا قريبا من هذا المعنى. قال رحمه الله: «الحضـــارة، في مفهومنا العام، هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسـان لتحسـين ظروف حياته: سـواء أكان المجهود المبذول للوصـول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية.

وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ لأن التاريخ كما سنرى هو الزمن، والثمرات الحضـارية التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تَطْلُع. أي أنها جزء من التاريخ أو نتاج جانبي للتاريخ. وكما أن ثمر الزروع والأشـجار لا يطلع إلا بفعل الزمن، إذ لا يمكن أن تزرع وتحصـد ثمرة ما في نفس الوقت، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان».

وإذا كان محرر مادة «الحضـارة» فى «الموسـوعة العربية العالمية»، بعد أن عرف الحضـارة بأنها «طريقة حياة نشـأت بعد أن بدأ الناس يعيشـون في مدن أو مجتمعات نُظِّمَتْ في شكل دول»، وأنها «تشمل الفن والعادات والتقنية و شكل السلطة وكل شيء آخر يدخل في طريقة حياة المجتمع»، قد أضـاف أن «الحضـارة مماثلة للثقافة»، إلا أن «الثقافة تشير إلى وسيلة ما من وسائل الحياة، وتشمل أسلوب الحياة البسيطة والمعقدة، أما كلمة «الحضـارة» فتشـير فقط إلى أسـاليب الحياة التي تتصـف بنظم اقتصادية وحكومية واجتماعية معقدة»،

وهو ما يفيد أن الحضـارة أكثر تعقيدا وتقدما من «الثقافة»، فكأنهما شـيء واحد، وإن كانت الحضارة تسبق الثقافة فى مضمار التقدم، فإنى أحب أن أرى الأمر بشكل آخر، إذ «الحضـارة» عندى أوسع وأشـمل من «الثقافة»، وليسـت مرادفة لها ولو إلى حد ما، بل تسـتوعبها ومعها «المدنية». فالحضـارة، كما أرى، تتكون من عنصريـن: عنصر مادى هو «المدنية» كالمبانى ووسـائل المواصـلات والمصـانع وآلات الزراعة والأجهزة المادية... وهلم جرا، وعنصر معنوى هو الثقافة بالمعنى الواسـع بحيث تغطى الدين والعادات والتقاليد والعلوم والآداب والفنون وما إلى هذا (انظر فى هذا الاختلاف مثلا كتاب «الإنسـان والحضـارة» للدكتور فؤاد زكريا/ 12 فما بعدها، وإن كانت «الحضارة» عنده تقابل الــ«culture» أما الــ«civilisation» فتعنى «المدنية»).

وفى سياق مشابه لما نحن فيه يقترح أحمد القص، فى كتاب له على المشباك عنوانه: «نشوء الحضارة الإسلامية»، تخصيص كلمة «المدنية» للدلالة على مجموعة الأشكال والوسائل المادية المستخدمة في شؤون الحياة، أو للدلالة على المستوى الذي وصلت إليه البشـرية في المجال التقني والصـناعي. ومن ثم كان من الحريّ عنده أن يتم الفصـل بين الدراسـات التي تتناول التاريخ الحضـاري للأمم والشـعوب والمجتمعات وبين الدراسـات التي تتناول تاريخ التطور العلمي والصـناعي لدى الجماعات البشرية، والتي من الأحرى بها عنده أن تندرج ضمن ما يُعْرَف بـ«تاريخ العلوم»،

إذ لكل منهما فى رأيه مسارها الخاص بها: فللحضارة وحداتها البشرية المستقّلة، بينما للمدنية مســارها العام في العالم. ومع هذا فمن المفكرين من يرى أن الحضــارة تقابل الثقافة. أى أن الحضــارة عندهم تعنى ما أقصــده أنا وأمثالى بـــ«المدنية». ولا مُشَاحَّة فى الاصطلاح كما يقال.

وبناءً على الاستعمال المحايد لمصطلح «الحضــارة»، بمعنى الوضــع الذى يكون عليه أى مجتمع بشرـى فى زمن معين من ناحية الفكر والذوق والســلوك والأخلاق والعقيدة والإبداع والإنتاج وما إلى ذلك، سواء كان وضعا متقدما أو متأخرا، يرى كاتب هذه السطور أن الحضارة قد ظهرت منذ فتح الإنسان الأول عينيه وبدأ يفكر ويتحرك ويباشر نشاطه الحياتى. وتمثل هذه النقطة نقطة الصفر الحضارى على طريق التقدم الذى لا ينتهى إلا بقيام الســاعة. وقد أثبت العصرـ الحديث بما تحقق فيه من إنجازات حضــارية متلاحقة وهائلة أن ما تتضــمنته مخازن الحياة من احتياطيات الحضارة هو شيء لا نهاية له، وأننا كلما بلغنا شأوا حضاريا استبانت لنا عند الأفق آشاءٌ أخرى لا يُوقَف لها على حد.

وفى «الموسوعة الفلسفية» لجميل صليبا أن أول من أطلق مصطلح «الحضارة» على معنى قريب من معناه الحاضر هو ابن خلدون، الذى «فرق فى «مقدمته» بين العمران البدوى والعمران الحضرــى، وجعل أجيال البدو والحضرــ طبيعية فى الوجود. فالبداوة أصل الحضارة، والبدو أقدم من الحضر

لأنهم يقتصرون على انتحال الزراعة والقيام على الحيوان لتحصيل ما هو ضرورى لمعاشهم. أما الحضر فإن انتحالهم للصنائع والتجارة يجعل مكاسبهم أكثر من مكاسب أهل البدو، وأحوالهم فى معاشهم زائدة على الضرورى منه. وإذا كانت البداوة أصل الحضارة فإن الحضارة غاية البداوة ونهاية العمران».

ثم يمضى- صليبا قائلا إن للحضارة معنى موضوعيا هو «مظاهر التقدم الأدبى والفنى والعلمى والتقنى التى تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة»، ومن هنا نقول: «الحضارة الصينية، والحضارة العربية، والحضارة الأوربية»، ومن ثم فإن «لكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها: فنطاقها هو حدودها الجغرافية، وطبقاتها هى آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض فى مجتمع واحد أو فى عدة مجتمعات. ولغاتها هى الأداة الصالحة للتعبير عن الأفكار السياسية والتاريخية والعلمية والفلسفية».

وأما الحضارة بالمعنى الذاتى المجرد فتطلق على «مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش، أو تطلق على الصورة الغائيّة التى نستند إليها فى الحكم على صفات كل فرد أو جماعة. فإذا كان الفرد متصفا بالخلال الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائية قلنا إنه متحضر.

وكذلك الجماعات، فإنّ تحضُّرها متفاوت بحسب قربها من هذه الصورة الغائية أو بعدها عنها. ومع أن الصورة الغائية للحضارات مختلفة باختلاف الزمان والمكان فإن اختلافها لا يمنع من اشتراكها فى عناصر واحدة».

ثم يمضى- فيقول إن هذه العناصر فى زماننا تتألف «من التقدم العلمى والتقنى وانتشار أسباب الرفاه المادى وعقلانية التنظيم الاجتماعى والميل إلى القيم الروحية والفضائل الأخلاقية. فالكلام على الحضارة بهذا المعنى لا يخلو من التقويم والتقدير، أى من الحكم على الحضارات بنسبتها إلى المثل العليا المتصوَّرة فى الأذهان. ويدل تطور هذه المثل العليا على اتجاهها إلى الاشتراك فى عناصر متشابهة لسرعة انتقال الأفكار والأشياء من إقليم حضارى إلى آخر».

وإلى ما مر يضيف صليبا أن «الحضارة، بمعنى ما، مرادفة للثقافة. إلا أن هذين اللفظين لا يدلان عند العلماء على معنى واحد: فبعضهم يطلق لفظ «الثقافة» على تنمية العقل والذوق، وبعضهم يطلقه على نتيجة هذه التنمية، أى على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات. وكذلك لفظ «الحضارة»، فإن بعضهم يطلقه على اكتساب الخلال الحميدة، وبعضهم يطلقه على نتيجة هذا الاكتساب، أى على حالة من الرقى والتقدم فى حياة المجتمع بكاملها.

وإذا كان بعض العلماء يطلق لفظ «الثقافة» على المظاهر العقلية والأدبية فإن بعضهم الآخر يذهب إلى عكس ذلك. دَعْ أن لفظ «الثقافة» يدل عند علماء الأنثروبولوجيا على مظاهر الحياة فى كل مجتمع، متقدما كان أو متخلفا، على حين أن لفظ «الحضارة» عندهم يدل على مظاهر هذه الحياة فى المجتمعات المتقدمة وحدها.

وخير وسيلة لتحديد معنى كل من هذين اللفظين إطلاق لفظ «الثقافة» على مظاهر التقدم العقلى وحده، وهى ذات طابع فردى، وإطلاق لفظ «الحضارة» على مظاهر التقدم العقلى والمادى معا، وهى ذات طابع اجتماعى». وهو ما يرينا أن العلماء مختلفون فى استعمال مثل تلك المصطلحات. والمهم هو ثبات كل منهم على المعنى الذى يختاره لكل منها بحيث يكون كلامه متسقا بعضه مع بعض.

وتقدم «الموسوعة البريطانية» (ط2010م) «الحضارة» هكذا:

A civilization is a large group of people who share certain advanced ways of living and working. Civilizations came about as humans started living in cities. City people developed advanced forms of culture and government. Eventually, this advanced lifestyle spread to people in large regions around cities.

أما «الموسوعة اليونيفرسالية» (ط2010م) فتطالعنا بتعريف ذلك المصطلح على النحو التالى:

Le mot « civilisation » est employé en des sens très variés et souvent fort imprécis. D'une manière générale, on peut classer sous trois rubriques les significations qui lui sont attribuées explicitement ou implicitement. Premièrement, dans le langage le plus courant, le terme de civilisation est associé à un jugement de valeur et qualifie favorablement les sociétés à propos desquelles on l'emploie. Il suppose alors qu'il y ait, inversement, des peuples non civilisés ou sauvages. Le verbe « civiliser » en est la preuve, et, de ce verbe, dérive aussi un sens particulier du substantif qui désigne alors l'action de civiliser. La civilisation est, en deuxième lieu, un certain aspect de la vie sociale. Il y a des manifestations de l'existence collective qui peuvent être appelées phénomènes de civilisation ou qui, si elles se concrétisent dans des institutions et des productions, sont nommées œuvres de civilisation, alors que certaines autres ne méritent évidemment pas d'entrer dans cette catégorie. Enfin, le mot « civilisation » s'applique à un ensemble de peuples ou de sociétés. Ainsi, à côté de la civilisation qui est un degré élevé d'évolution ou un ensemble de traits caractéristiques, il y a les diverses civilisations qui possèdent ces caractères et en tirent une personnalité propre qui leur donne une place déterminée dans l'histoire ou dans l'ensemble des populations à un moment donné. Cette troisième signification du mot est donc liée à l'une ou l'autre des deux premières et en est l'objectivation, ou, si l'on préfère, c'est elle qui rend le concept opératoire dans l'analyse de la réalité sociale.□

وفى النسخة الفرنسية من «موسوعة الإنكارتا» (ط2009م) نجد السطور التالية تتصدر المادة الخاصة بمصطلح «الحضارة»، إذ تعرّفه المادة المذكورة بأنه:

croyances, des conventions sociales et l'état d'avancement matériel qui caractérisent une société. Souvent opposé à la notion de culture, le terme apparut au XVIIIe siècle sous la plume de Mirabeau, qui l'employa au double sens de processus du « progrès » matériel, social, culturel, et de résultat de ce processus. Plus ancien, le terme de culture (du latin *cultura*, « champ cultivé ») ne prit son sens moderne qu'au XXe siècle: « Ensemble des formes acquises de comportements dans les sociétés humaines », telle fut la définition qu'en donna Marcel Mauss dans les années 1920.□

هذا من حيث الكلام فى تحرير مصطلح «الحضارة»، أما بالنسبة إلى وصف حضارتنا، وهل هى حضارة إسلامية أو عربية، فهذا ما سوف نتناوله الآن: فهناك من يقول: «الحضارة العربية» كجوزيف هِلْ المستشرق الألمانى الذى ألف كتابا بهذا العنوان نفسه وترجمه د. إبراهيم أحمد العدوى، وكجوستاف لوبون المستشرق الفرنسى المشهور صاحب كتاب «حضارة العرب»، الذى ترجمه عادل زعيتر، وكالدكتور شكرى عياد، الذى أصدر كتيبا بعنوان «الحضارة العربية» فى سلسلة «المكتبة الثقافية» فى ستينات القرن المنصرم. وإلى جانب هؤلاء نرى من يسميها بـ«الحضارة الإسلامية»: فلجرجى زيدان كتاب بعنوان «تاريخ التمدن الإسلامى» (5 أجزاء). وللدكتور أحمد شلبى «موسوعة الحضارة الإسلامية» (5 أجزاء أيضا).

وهناك «معالم الحضارة الإسلامية» للدكتور مصطفى الشكعة، وكتاب «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة» للدكتور شوقى ضيف. كذلك لا بد أن نشير إلى سلسلة الكتب التى أرخ فيها د. أحمد أمين لتلك الحضارة وحللها تحليلا مستفيضا، مضيفا كل شىء فيها إلى «الإسلام» فقال: «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام» و«يوم الإسلام». ولكن د. طه حسين فى المقدمة التى كتبها لـ«فجر الإسلام» لا يتحدث إلا عن «الأمة العربية» رغم أنه إنما يتكلم عن تلك الأمة بعد سطوع شمس الإسلام. وانطلاقا من هذه النقطة نراه يقول : «إن أحمد أمين قد أخذ على عاتقه تحليل الحياة العقلية (العربية)»، مع أن أحمد أمين قد أضاف كل شىء فى كتبه إلى «الإسلام» كما رأينا حتى لقد جاءت عناوين تلك الكتب تحمل اسم «الإسلام» واضحا صريحا لا يحتمل شيئا من اللبس. لكن لا بد أن أضيف أن د. طه حسين فى مقدمته للجزء الأول من «ضحى الإسلام» قد عدل إلى الكلام عن الإسلام والمسلمين لا العرب.

وفى «الويكيبيديا» الإنجليزية مقال خاص بهذا الموضوع تحت عنوان «Islamic Civilization». وثم مقال مشابه فى «الويكيبيديا» الفرنسية بعنوان «Civilisation Islamique» نقرأ فى مفتتحه أن هذه الحضارة تشير إلى :

la zone géographique couverte par la conquête musulmane, et s'identifie par conséquent à la civilisation arabe de la période dite arabe classique, jusque la chute du Califat de Bagdad en termes de datation .

وكان جوستاف فون جرونباوم المستشرق النمساوى قد أصدر كتابا يحمل اسم «Medieval Islam»، ومعناه: «الإسـلام فى العصـور الوسـطى»، إلا أن مترجم الكتاب عبد العزيز توفيق جاويد أبى إلا أن يترجمه بـ«حضارة الإسلام». وقد أخذ د. مصـطفى الشـكعة هذه الترجمة على أنها هى اسـم الكتاب فعلا (انظر كتابه: «من معالم الحضـارة الإسـلامية»/ ط3/ دار العلم للملايين/ 1978م/ 13). وعلى كل حال فترجمة هذا العنوان تذكّرنا بالكتاب الذى وضــعه جميل نخلة المدوّر باســم «حضارة الإسلام فى دار السلام»، أى فى بغداد. وبالمثل يطلق د. أحمد فؤاد الأهوانى على تلك الحضــارة اســم «الحضــارة الإســلامية» (ص5 من كتابه: «الفلســفة الإسلامية»/ سلسلة «المكتبة الثقافية»/ العدد 69/ 15 سبتمبر 1962م).

بل لقد عقد د. الأهوانى أول جزء من الفصــل الأول فى كتيّبه هذا، وهو بعنوان «موضوع الفلسفة الإسلامية»، لمناقشة تسمية هذه الفلسفة: «إسلامية أم عربية؟» (ص10 فما بعدها). وعلى نفس الشـاكلة نجد د. مصـطفى الشـكعة يفتتح الفصـل الأول من كتابه: «معالم الحضارة الإسلامية» متسائلا: «حضارة إسلامية أم عربية؟». وقد انتهى كلا المؤلفين إلى الانحياز للســمة الإســلامية لا العربية، مع فارق هام هو أن د. الشكعة عَدَّ تسمية تلك الحضارة بـ«الإسلامية» أمرا بديهيا، والأمور البديهية (كما يقول) لا تحتاج إلى برهنة، بخلاف د. الأهوانى، الذى بَسَــط القول إلى حد ما وقلّب كلا المصــطلحين على وجهه، لينتهى فى آخر المطاف إلى اختيار وصــف «الإسلامية».

ولسوف أقوم أنا أيضا هنا بتناول هذه النقطة تحريرا للمصطلح وبحثا عن أدق الألفاظ فى التعبير عن الموضوع الذى أتناوله بالدراسة رغم ما يقال من أنه «لا مُشَاحَّة فى الا صطلاح». ذلك أن المؤلفين، إذا أمكنهم البرهنة على صحة اختيارهم لمصطلح دون مصطلح وتوصلوا إلى إقناع القراء بها آثروه على غيره، فبها ونعمت، و«زيادة الخير خيران» كما يقول المثل، وإلا عدنا إلى المربَّع الأول الذى تُرْفَع فيه لافتة «لا مُشَاحَّة فى الاصطلاح». أما أن نمضى فى طريقنا دون أن نعبأ بتوضيح الأمور وكأن القارئ لا يعنينا فى شىء، أو كأن عليه قبول ما نقول دون أن يكون له الحق فى معرفة الحيثيات التى حملتنا على ذلك، فبخلاف الأَوْلَى.

وأنا، حين أختار مصطلح «الحضارة الإسلامية» مُؤْثِرًا إياه على وصفها بالعروبة، فمردّ ذلك إلى أن الحضارة التى أقصدها إنما هى الحضارة التى أنشأها الإسلام لا الحضارة التى كانت للعرب قبل سطوع شمس ذلك الدين الكريم، أيًا كان مستوى تلك الحضارة. كما أن الحضارة التى أ سميها بـــ«الإ سلامية» ليست مقصورة على العرب وحدهم رغم أنهم هم الذين حملوا الإسلام إلى خارج بلادهم ونشروا ضياءه فى ربوع العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا،

ورغم أن كثيرين جدا من المشاركين فى صنع تلك الحضارة كانوا يستخدمون العربية خلال زمن طويل. ثم إن الحضارة، كما وضحنا قبلا، تتكون من الإبداعات المادية والفكرية والروحية والعادات والتقاليد والأنظمة الإدارية والسياسية

وما إلى ذلك مما يتمايز فيه كل شعب عن غيره من الشعوب. فكيف نصف مثلا تصاميم العمارة فى آسيا الوسطى أو فى تركيا بـ«العربية»، وليس العرب هم الذين صمموها؟ كما أننا، حين نصف تلك الحضارة بصفة العروبة، قد نُذْكِى، ولو عن غير قصد، الحساسيات القومية التى أتى الإسلام ليقضى عليها، أو على أقل تقدير: ليُطَامِن منها ويحصرها فى أضيق نطاق. ثم لا ننس أن رقعة العالم الإسلامى أوسع كثيرا جدا من رقعة بلاد العرب. فكيف ننسى أو نتناسى تلك الحقيقة التى لا يصح تجاهلها ولا تناسيها؟ وأخيرا وليس آخرا ألم يقل الرسول الكريم صلوات الله وسلاماته عليه « إنه لا فضل لعربى على عجمى، مثلما لا فضل لعجمى على عربى، إلا بالتقوى والعمل الصالح؟» ثم إن دين الله يسمى: «الإسلام»، ولا يسمى: «العروبة»، فلماذا نصادر تسمية «الحضارة الإسلامية» لصالح «الحضارة العربية»؟

على أننى، وإن كنت أُوثِرُ وصف «الإسلامية» على «العربية»، لا أنظر إلى العرب بعين التقليل، بل بالعكس أُقِرّ بفضلهم كاملا فى اضطلاعهم بحمل رسالة الإسلام إلى كل أنحاء العالم بإمكاناتٍ تقترب من الصفر،

ونتائجَ تشــبه الإعجاز، ذلك الدين الذى ليس كمثله دين، وكذلك فى إهدائهم لنا لغتهم العبقرية الجميلة التى أجد لها على لســانى وفى قلبى وفى عقلى حلاوة ونداوة. وهل يمكننى أن أنســى، ولو للحظة، أن الرســول محمدا عليه الصــلاة والســلام عربى، أو أننى أنا أعد نفســى عربيا ولا أقتصر على انتمائى المصرى بأى حال، وإن كنت لا أقف عند الانتماء العربى باعتباره نهاية المطاف، بل أمضى موسعا هذا الانتماء إلى حدوده الإسلامية؟ كل ما هنالك أننى أتصور التسمية التى اخترتها أقوم سبيلا وأوفى فى الدلالة على ما أريد.

صحيح أن الحضـارة الإسـلامية كانت ولا تزال تضـم نصـارى ويهودا وصـابئة وغير ذلك، إلا أن نسبتهم رغم ذلك إلى بحر المسلمين المتلاطم هى نسبة جد ضئيلة. كما أن وصف «الإسلامية» لا يعنى بطبيعة الحال أن كل من يستظل برايتها هو مسلم بالضرورة، وبخاصـة أن الإسـلام، الذى انبعثت منه تلك الحضـارة، هو دين يحترم أصحاب الأديان الأخرى ويعطيهم الفرصة كاملة للتنفس والازدهار فى ظلاله دون عســف أو إكراه أو تحقير أو تضــييق. وفى تاريخ الأدب العربى على ســبيل المثال، والشــعرُ والأدبُ هما أهم ما يعتز به العرب، نجدنا طوال القرون ندرس شــعر الأخطل النصرانى،

ورسـائل أبى إسـحاق الصـابئ، ومؤلفات ابن النغريلة اليهودى كما ندرس ما تركه لنا أى مسلم من شعر أو رسائل أو كتب.

وحتى لو كانت الملاحظة الأخيرة تمثل عقبة على نحو أو على آخر فلا ريب أنها أخف كثيرا وأسهل من عقبة تسمية تلك الحضارة بـ«العربية»، على الأقل: لأن غير العرب فى الأمة الإسـلامية أكبر عددا من أعداد العرب إلى حد لا يُتَصَـوَّر. ثم إن هناك توجيها جميلا لتلك التسـمية، وهو أننا لا نسـميها: حضـارة «مسـلمة»، بل حضـارة «إسـلامية». وشـتان الأمران، إذ «المسـلمة» (Muslim/Musulmane) تعنى أن كل من يعيش فى إطارها يدين بالإسـلام، أما «الإسـلامية» (Islamic/Islamique) فتعنى الانتساب إلى الحضـارة التى أنشـأها الإسـلام، ويدين غالبية صناعها بالإسلام، لكن ليس شرطا أن يكونوا كلهم مسلمين.





العقيدة



للإسـلام، ككل دين أو مذهب أو فلسـفة، عقيدة خاصـة به تميزه عن غيره من الأديان والمذاهب والفلسـفات. وفي هذا الفصـل نحاول أن نتعرف إلى تلك العقيدة لنرى مدى اتسـاقها مع مفهوم الحضـارة، وهل يا تُرَى تدفع إلى صـنع المنجزات الحضـارية أو تعوق عنها وتشـد أصـحابها إلى الوراء؟ وأول شيء في عقيدة الإسـلام الإيمان بالله الخالق الرازق العليم السميع البصير الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا، والذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، والحى الذى لا يموت، والقيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، والأول والآخر والظاهر والباطن، والبَرّ الرحيم، والقدير الفعال لما يريد، الغنى عن العالمين، غافر الذنب وقابل التوب، شـديد العقاب، إليه المصـير. والوحدانية في الإسـلام وحدانية مطلقة صـافية نقية تمام النقاء لا تشـوبها شـائبة تحت أى مسـمى أو مسـوغ: فلا ثنوية ولا تثليث ولا تعدد آلهة فى أية صورة من الصور، ولا وساطة بين العبد والرب على أى وضـع من الأوضـاع، إذ الله أقرب إلى عباده من حبل الوريد، وهو السـميع البصـير، فما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسـة إلا هو سـادسـهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا.

وهو سبحانه مطلق المشيئة فلا مُعَقِّب لإرادته ولا رادَّ لمشيئته، لكنه فى ذات الوقت قد وهب الإنسان قوة وإرادة وعلما وقدرة على الإنجاز والبناء فوق ما بنى السابقون بحيث يزداد البناء فى كل مجال ارتفاعا مع الزمن، وأعلمه أنه محاسبه يوم القيامة على ما أعطاه من مواهب وإمكانات ووفر له من عوامل تساعده على ذلك الإنجاز، فسائله عن عمره فيم صرفه، وعن شبابه فيم أفناه، وعن ماله فيم أنفقه، وعن صحته كيف استغلها، وعن عقله كيف استعمله... إلخ. وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعا للمذنب فلا يؤاخذه عليها بشىء إذا أقلع عما كان يجترح من موبقات وتاب وأناب. بل إنه ليسره سرورا عظيما توبةُ عبده كى يغفر له ويعفو عنه. كما أنه يجزى على الحسنة بعشر أمثالها، أما السيئة فبمثلها إن حاسب عليها. وهو لا يحاسب عليها من لم يفعلها، بخلاف الحسنة، فإنه يكرم صاحبها حتى لو لم ينفذها ما دام قد فكر فيها ونوى عملها ثم قام عائق منعه من ذلك. وفوق هذا فإذا لم ينفّذ العبد السيئة التى كان يعتزم اقترافها فإن الله يكتب له بها حسنة. أما المحسن فإنه متى نوى عمل حسنة فإنها تُكْتَب له حسنة، فإذا عملها فعلا كُتِبَتْ له عَشْرًا... وهكذا. ومن شأن هذا كله أن يدفع المسلم دفعا إلى الإكثار من الحسنات والانتهاء عن السيئات أو محاصرتها فى أضيق نطاق بحيث لا يعملها إلا مضطرا بسائق من ضعفٍ مُلْجِئٍ أو إكراهٍ لا يمكن تجنبه. فإذا كان غير المسلم يندفع إلى عمل ما يصلح حياته بدافع الحاجة فإن المسلم يندفع إلى ذلك بدافعين: الحاجة من جهة، والرغبة فى إحراز الجنة والنجاة من النار من جهة أخرى. كذلك فإن الحساب فردى، إذ لا يؤاخَذ إنسان بجريرة غيره، كما أنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.

وثم نقطة جديرة بالتوقف إزاءها هنا، إذ لا بد من التنبيه إلى أن الحسنات لا تنحصر، كما يظن بعض الناس، فى العبادات، والصلاة والصيام بوجه خاص، مثلما لا تنحصر السيئات فى الزنا وشرب الخمر والربا والغِيبة والنميمة مثلا، بل تمتد الحسنات فتشمل كل شىء، بدءًا من إماطة الأذى عن الطريق والابتسام فى وجه الجار والزميل، مرورًا بالسعى فى طلب العلم والإنتاج والإبداع وإتقان العمل والسهر لحراسة الممتلكات العامة والخاصة، وانتهاءً بتقديم النفس والمال جهادا فى سبيل الله ضد أعداء الأمة والملة. وفى المقابل فإن إهمال شىء من ذلك هو سيئة سوف يحاسَب عليها مرتكبها حسابا شديدا. وبهذه الطريقة يكسب المجتمع، وتفوز الأمة فوزا عظيما.

وفوق ذلك ففى الإسلام أن الناس جميعا ينتسبون إلى آدم، وأن أصلهم كلهم هو التراب: منه جاؤوا، وإليه يعودون بعد الممات، وأنه لا فضل لأمة من الأمم على غيرها ولا لفرد من الأفراد على سواه إلا بالتقوى والعمل الصالح. يستوى فى ذلك العرب وغير العرب رغم أن العرب هم الذين حملوا الرسالة ونشروها فى العالم، وبُعِث فيهم النبى ونزل القرآن بلغتهم. ومن ثم فالإسلام لا يتسامح مع أى لون من ألوان العصبية: لا العصبية القبلية ولا العصبية القومية ولا العصبية الفردية، بل الكل سواسية كأسنان المشط.

وفضلا عن هذا فأمر التقوى ليس لأحد من البشر، بل لله سبحانه وتعالى، إذ هو الذى يفصل بين العباد يوم القيامة. فإذا أخذ العُجْب إنسانا وظن أنه ناجٍ يوم القيامة وأنه أفضل من غيره فقد يكون ذلك محبطا لعلمه ومُرْدِيًا له فى النار، وهو ما يعلمنا التواضع واحترام الآخرين والتماس العذر لهم. كذلك فالمسلمون يشكلون فيما بينهم أمة واحدة على تنائى الديار واختلاف الأعراق وتباين اللغات وتمايز الأنظمة السياسية. وكانت هذه العقيدة عاملا لا يُضَاهَى فى تقوية الأواصر بين المسلمين، وما زالت حتى الآن كذلك رغم تراخيهم بوجه عام فى الاستمساك بتلك العروة الوثقى التى ينبغى ألا يكون لها انفصام مهما تكن الأحوال. ذلك أنها من أعظم العوامل فى إحراز النصر والوقوف سدا منيعا فى وجه أعداء الأمة. ومن هنا نرى أعداءنا يعملون دون كلل أو ملال على تجزئة المسلمين والإيقاع بين بعضهم وبعض بسبب الحدود واللغات والأجناس والأنظمة السياسية والاقتصادية.

والآن إلى نصوص من الكتاب الكريم والسنة المطهرة توضح ما سبق أن قلناه عن عقيدة الإسلام. ففى القرآن المجيد نقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [سورة الذاريات].

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [سورة الحديد].

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [سورة الطُّور].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة غافر].

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة البروج].

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة ق].

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة المجادلة].

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٤﴾ [سورة المائدة].

«﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٤﴾[سورة الأنبياء].

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٦٠﴾[سورة الأنعام].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾[سورة هود].

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[سورة الزُّمر].

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝١٦٤﴾[سورة الأنعام].

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النساء].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الروم].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجرات].

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحجرات].

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء].

وفى سنة المصطفى ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسما: مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة. وهو وِتْرٌ يحب الوتر. هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الو هاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسـط، ا لخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير

، الحكم، العـدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشـكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسـيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسـع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشـهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصيـ، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصـمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعـالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مـالـك الملـك، ذو الجلال والإكرام، المقسـط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضـار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

عن عائشـة: «مَنْ حَدّثَكَ أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: لا تُدْرِكه الأبصـار. ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: لا يعلم الغيب إلا الله».

«للهُّ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل بأرض فلاة دوية مهلكة معه راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه وما يصـلحه فأَضَـلَّها، فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى مكاني الذي أضـللتُها فيه فأموت فيه، فرجع إلى مكانه، فغلبته عينه، فاستيقظ، فإذا راحلته عند رأسه، عليها طعامه وشرابه وما يُصْلِحه».

«يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا. ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا. ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولة. ومن لقيني بقُرَاب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة».

«إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة».

«من سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فعُمِل بها بعده كُتِب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإ سلام سنة سيئة فعُمِل بها بعده كُتِب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء».

«ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشَاكُها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه».

«كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذ أنا مِتُّ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذَرُوني في الريح، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبنِّي عذابا ما عُذِّبَه أحد. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: «اجمعي ما فيك منه»، ففعلتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: «يا رب، خشيتك»، فغفر له».

«لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم».

وعن عامر أخي الخضر بن محارب قال: « إني لببلادنا إذ رُفِعَتْ لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله ﷺ. فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسِط له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله ﷺ الأسقام فقال: إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِيَ كان كالبعير عَقَله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضتُ قط. فقال رسول الله ﷺ: قم عنا، فلستَ منا. فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيتك أقبلتُ إليك فمررت بغَيْضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي،

فجاءت أمهن فا ستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي، فهن أولاء معي. قال: ضعهن عنك. فوضعهن وأَبَتْ أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله ﷺ. قال: فوالذي بعثني بالحق، للهُّ أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها. ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتَهن، وأمّهن معهن. فرجع بهن».

«قُدِم على رسول الله ﷺ بسَبْيٍ، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: أتَرَوْن هذه طارحةً ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها».

«جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

«إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

«إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقّ الفجر».

«أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أَيْ ربِّ، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك».

«والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم».

«إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أَيْ رَبِّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته بيمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين».

«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْني؟ قال: يقولون: لو رأوْك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألونني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حرصا، وأشدّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمِمَّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوْها؟ قال: يقولون: لو رأوْها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأُشْهِدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهم».

«قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك. يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة... ويُضْرَب جسر جهنم. قال رسول الله ﷺ: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. وبه كلاليبُ مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قَدْر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم: منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يُخْرِج من النار من أراد أن يُخْرِج ممن كان يشهد ألا إله إلا الله، أَمَر الملائكةَ أن يخرجوهم، فيَعْرِفونهم بعلامة آثار السجود، وحَرَّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتُحِشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب، قد قشبني ريحها، وأحرقني ذُكَاؤها، فاصرف وجهي عن النار. فلا يزال يدعو الله،

فيقول: لعلك إن أعطيتُك أن تسألني غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب، قَرِّبْني إلى باب الجنة. فيقول: أليس قد زعمتَ ألاّ تسألني غيره؟ ويلك ابن آدم! ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيعطي اللهَ من عهودٍ ومواثيقَ ألا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب، أدخلني الجنة. ثم يقول: أوليس قد زعمتَ ألا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: يا رب، لا تجعلني أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها. فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى، ثم يقال له: تمنَّ مِنْ كذا. فيتمنى حتى تنقطع به الأماني، فيقول له: هذا لك، ومثله معه. قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا. قال: وأبو سعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لا يغيّر عليه شيئا من حديثه، حتى انتهى إلى قوله: هذا لك ومثله معه. قال أبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هذا لك وعشرة أمثاله».

«لما نزلتْ على رسول الله ﷺ: «لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تُبْدُوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبْكم به اللهُ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. والله على كل شيء قدير» قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأَتَوْا رسول الله ﷺ. ثم بركوا على الرُّكَب فقالوا: أَيْ رسول الله، كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة.

وقد أُنْزِلَتْ عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: «آمَن الرسولُ بما أُنْزِل إليه من ربه والمؤمنون: كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحد من رسله. وقالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير». فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. وأنزل الله عز وجل: لا يكلّف الله نفسا إلا وُسْعَها. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا، لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا (قال: نعم). ربنا، ولا تحمل علينا إِصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا (قال: نعم). ربنا، ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به (قال: نعم). واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (قال: نعم)».

«إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيّةَ الجاهلية وفَخْرَها بالآباء: مؤمن تقي، وفاجر شقي. أنتم بنو آدم، وآدم من تراب. لَيَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجُعْلان التي تدفع بأنفها النتن».

«لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى. الناس من آدم، وآدم من تراب».

«(عن جابر بن عبد الله:) كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجريّ: يا للمهاجرين! فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: دعُوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أُبيّ فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فبلغ النبيَ ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه».

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (ثم شبك بين أصابعه)».

«المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يَدٌ على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم».

«لا تَبَاغَضُوا ولا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَحَاسَدُوا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله. ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

ليس ذلك فقط، بل إن موقف الإسلام من الآخرين هو موقف عبقرى نبيل فى عبقريته، إذ ترك لهم الحرية التامة فى اعتناق عقائدهم وممارسة عباداتهم وتطبيق تشريعاتهم كما يحلو لهم، ولم يحاول قَطُّ فرض نفسه عليهم، بل جرّم الإكراه فى الدين رغم تأكيده فى ذات الوقت أن الدين عند الله الإسلام،

وجعل لكل إنسان حقا مطلقا فى أن يؤمن أو يكفر، وحذر المسلمين من التعرض له أو الاعتداء عليه أو ظلمه. وفضلا عن ذلك فالمسلم مأمور من دينه أن يؤمن بكل الأنبياء والرسل السابقين على نبيه أيًا كانت الأمة التى ينتمون إليها، وإلا عُدَّ من الكافرين. ولا ريب أن هذه سماحة نادرة. بل لقد وصلت السماحة فى الإسلام إلى الحد الذى أعلن فيه نبيه أنه يوم القيامة سوف يكون خصما لأى مسلم يظلم أحد الذميين، وهم الذين انضووا تحت رعاية الدولة الإسلامية دون أن يعتنقوا دينها. كذلك فالإسلام يدعو إلى السِّلْم ويعلى من شأنه، وينصح أتباعه بألا يتمنَّوْا لقاء العدو، بل يوجب عليهم أنه متى جنح عدوهم إلى السلم فليجنحوا لها دون خوف أو تردد، وليتوكلوا على الله ويطمئنوا إلى أنه لن يخذلهم فى جنوحهم هذا إلى السلام. ثم إن الحرب فى الإسلام إنما جُعِلَت لرد العدوان من الآخرين لا للعدوان على الآخرين. صحيح أن علينا الاستعداد للمباغتات، وأن ندرأ عن أنفسنا العدوان والهوان دون أى تلجلج فى هذا أو تردد، لكنْ فى ذات الوقت متى عُرِض منا الدخول فى السِّلم على أساس عادل، لا على أساس أكل حقوقنا، فلا بد من الاستجابة لهذا الطلب. كما حذرنا ديننا من تنكب العدل مع من نكرههم، إذ لا ينبغى أن يكون لمسائل البغض أو الحب أى مدخل فى هذا.

وفوق ذلك فقد أوجب الإسلام على المسلمين، متى استجار بهم أحد من المشركين، أن يجيروه وأن يؤمّنوه على حياته حتى يصل إلى دياره سالما مطمئنا وألا يتعرضوا له بأذى أيا كان هذا الأذى رغم سوء رأى الإسلام فى هذا المشرك وفى عقيدته. لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل نرى الإسلام يأمر أتباعه بإحسان صحبة الوالدين حتى لو كانا مشركين وحتى لو جاهدا الابن المسلم على الكفر. لقد أوجب الإسلام على الابن فى تلك الحالة أن يجمع بين الحسنيين: إحسان صحبة والديه، والتمسك فى ذات الوقت بإيمانه. ثم إن الإسلام لا يشرّع مقاطعة غير المسلمين، اللهم إلا من يؤذونهم ويخرجونهم من ديارهم ويتعاونون مع أعدائهم عليهم. أما من لا يتعاونون مع أعدائهم ضدهم ولا يخرجونهم من ديارهم ولا يؤذونهم بشىء فعلى المسلم أن يبرهم ويقسط إليهم. أى أن الأمر لا يقف عند حد تجويز التعامل معهم، بل يمتد فيوجب البر بهم والقسط معهم.

قال جل جلاله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ (19) [سورة آل عمران]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة النساء].

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء].

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الكهف].

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الأنفال].

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [سورة المائدة].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المائدة].

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة التوبة)].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة لقمان].

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة العنكبوت].

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الممتحنة].

أما أحاديث رسول الله فنجد فيها الدرر العجيبة التالية: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمَثَل رجلٍ ابتنى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لَبِنَةٍ في زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وَضَعْتَ ههنا لبنة فيتمّ بنيانك؟ فقال محمد ﷺ: فكنت أنا اللبنة».

«عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده. فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَعُ أبناءنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾. (المِقْلات: التي لا يعيش لها ولد).

«ألا مَنْ ظلم معاهَدا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ له شيئا بغير حقه فأنا حجيجه يوم القيامة (وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى صدره). ألا ومَنْ قَتَل رجلا له ذمة الله ورسوله حرّم الله عليه الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا».

«أيها الناس، لا تَمَنَّوْا لقاء العدو، وسَلُوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا».

«خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش، و سار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته. فقال الناس: «حل حل»، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكنْ حَبَسها حابسُ الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرَّضه الناس تبرُّضا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فوالله مازال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نُصْح رسول الله ﷺ من أهل تهامة،

فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذ المطافيل، وهم مقاتلوك و صادُّوك عن البيت. فقال ر سول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين. وإن قريشــا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم. فإن شاؤوا ماددتُهم مدة، ويخلّوا بيني وبين الناس. فإن أَظْهَر: فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا. وإنْ هم أَبَوْا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد ســالفتي، وليُنْفِذَنّ اللهُ أمره. فقال بديل: ســأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشــا قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وســمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحَدَّثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مســعود فقال: أيْ قوم، ألســتم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولســتُ بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني ا ستنفرت أهل عكاظ، فلما بلّحوا عليَّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإنّ هذا قد عرض لكم خطة رشـد. اقبلوها ودعوني آتيه. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أيْ محمد، أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوها، وإني لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفرّوا ويَدَعوك.

فقال له أبو بكر: امصــص ببظر اللات. أنحن نفرّ عنه ونَدَعُه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي ــ بيده لولا يَدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجبتُك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شــعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المِغْفَر. فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أَخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: «أَيْ غُدَر، ألستُ أسعى في غدرتك؟». وكان المغيرة صَحِبَ قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأَقْبَل، وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصــحاب النبي ﷺ بعينه. قال: فوالله ما تنخَّم رســول الله ﷺ نُخَامَةً إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أَيْ قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت مَلِكًا قَطّ يعظمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد ﷺ محمدا. والله إنْ تنخَّم نخامةً إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضــأ كادوا يقتتلون على وضــوئه، وإذا تكلم خفضــوا أصــواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البُدْن، فابعثوها له». فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يلبّون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ. فما أرى أن يُصَدّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر». فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم». قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضَى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله». فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله، وإنْ كذَّبتموني. اكتب: «محمد بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به».

فقال سـهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضـغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سـهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددتَه إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدّ إلى المشركين، وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إليَّ. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نَقْضِ الكِتَاب بَعْد». قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدا. قال النبي ﷺ: «فأَجِزْه لي». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين، وقد جئت مسلما؟ ألا تَرَوْنَ ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابا شديدا في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألستَ نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعَدُوّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أوليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى. فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقا؟

قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعَدُوّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسِكْ بغرزه، فوالله إنه على الحق؟ قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى. أفأَخْبَرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوِّفٌ به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل غما. ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا، إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن... (حتى بلغ:) بعِصَم الكوافر». فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم،

فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلتَ لنا؟ فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحُلَيْفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا. فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعْرًا». فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أَوْفَى اللهُ ذِمّتَك. قد رددتَني إليهم، ثم نجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: «ويل أمه مِسْعَر حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرَّحِم لَـمّا أرسل: «فمن آتاه فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: «وهو الذي كَفَّ أيديَهم عنكم وأيديَكم عنهم ببطن مكةَ من بعد أن أظفركم عليهم... (حتى بلغ:) الحميّةَ حميّةَ الجاهلية». وكانت حميّتهم أنهم لم يُقِرّوا أنه نبي الله، ولم يُقِرّوا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت».

«مرت جنازة على رســول الله فقام لها واقفا، فقيل له: يا رســول الله، إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفسا؟».

« قَدِمَتْ قُتَيْلة ابنة عبد العُزَّى بن سـعد على ابنتها أسـماء (بنت أبى بكر) بهدايا: ضِـبَاب وأَقِط وسـمن، وهي مشر ـكة، فأبت أسـماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشةُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾.. إلى آخر الآية»، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها».

وبالنســبة إلى النقطة الأخيرة أود أن أقتبس ما قاله الشــيخ محمد عبده فى ذات الموضوع، إذ كتب تحت عنوان «مودّة المخالفين فى العقيدة» هذه السطور التى تنبض بالنبل والإنسـانية والسـمو الحضـارى الذى لا يجارَى والذى تَشَرَّ ـبه، رحمه الله، من كتاب الله وسنة الرسول تشرُّبًا: «أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية: نصرانية كانت أو يهودية، وجعل حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسـلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى الكنيســة أو بِيعَتها، وهى منه بمنزلة البعض من الكل، وألزمُ له من الظل، وصــاحبُه فى العز والذل، والترحال والحِلّ، بهجة قلبه، وريحانة نفســه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصر ـف فيهم كما تتصرف فيه.

لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حُكْم قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. فلها حظها من المودة، ونصيبها من الرحمة، وهى كما هى، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له. أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عُهِد فى طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القرابة لوالدتهم! أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يُعْهَد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعوّد القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب. فهو الذى يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده إليها. وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبِّه الغافل، ويعلِّم الجاهل، ويُرْشِد الضالّ. لا يَكْفُر فى ذلك نعمة العشير، ولا يسلك به مسالك التعسير، ولا يخالف سنة الوفاء، ولا يحيد عن شريعة الصدق فى الولاء.

ماذا ترى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها؟ أفينقص ذلك من مودته لها؟ أَوَيُضْعِف من شعور المحبة التى أفاضها الله بينه وبينها؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه فى عقيدته ودينه وملته ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يُعْمِل نظره فى نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل فى علم أو قاعدة لصناعة إن كان قد يخالف ظاهرا ما يعتقد، أو يميل إلى رأى غير الذى يجد؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف؟». (الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده/ تحقيق د. محمد عمارة/ دار الشروق/ 1414هـ- 1993م/ 3/ 312- 313).

وبالنسبة إلى الجنس البشرى نرى القرآن الكريم يقرر أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان إلا بعد أن أتم خلق السماوات والأرض وأعدهما لاستقباله، حتى إذا برز إلى الوجود كانت أمور حياته ميسرة لا عوائق فيها، اللهم إلا ما ينبغى له بَذْلُه من الجهد كى يقطف الثمار التى بثها الله له فى أرجاء الكون. كذلك عَلَّم الله الإنسان كيف يفكر ويعبر عن فكره ومشاعره ويصف ما يراه ويسمعه ويشمه ويلمسه من حوله،

كل ذلك بوسـاطة اللغة، التى لم يعلمها عز وجل للملائكة ولا علمهم التفكير ولا منحهم اسـتقلال الإرادة بكل ما له من إيجابيات وسـلبيات، إذ كثيرا ما تصـنع هذه الإرادة العجائب والبدائع، مثلما تصنع المتاعب والمصاعب. ليس هذا فحسب، بل أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا،

أما إبليس فطرده ولعنه جراء غطرسته وشموخه بأنفه على الإنسان، فضلا عن أنه، عز شأنه، لم يترك الإنسان يضيع فى التيه والخذلان حين أخطأ وعصاه وأكل من الشـجرة التى كان قد نهاه عن الأكل منها وحذره من مغبة العصـيان، بل سرعان ما قبل توبته ورَضِىَ عنه بمجرد أن تاب، وإن كان قد أخرجه من الجنة، التى لم يحافظ على شرط البقاء فيها، وهو الطاعة، أى الانضـباط والنظام والتفكر فى العواقب وعدم الاندفاع إلى المهالك اسـتجابةً لإغراء أى صـوتٍ خداع. وكل ذلك يدل على أن للإنسان فى الإسلام مكانة سامقة.

ويكفى أنه سبحانه وتعالى قد جعله فى الأرض خليفة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة البقرة]. ليس هذا فحسب، بل نفخ فيه من روحه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة: 9]. فأى تكريم للإنسان بعد تزويده بهذا القبس الإلهى؟

أما الغاية من هذه الخلافة فهى إعمار الكون: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. وقد زَوَّدَه جل شأنه بكل ما من شأنه تسهيل مهمته فى الخلافة وإعمار الكون: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. وبغير هذه المواهب والعطايا ما كان الإنســان بقادر على إعمار الحياة والقيام بمهمة الخلا فة. إذ الحواس والعقل هى وسيلته إلى فهم الكون واستكشافه والقبض على زمامه وتطويعه لما يريده منه والفوز بخيراته. وإلا فكيف يمكن أن يعمل الإنسان شيئا دون سمع وبصر وفؤاد؟ الحق أنه ما كان ليزيد عندئذ عن خرقة لا قيمة لها. ذلك أن كلاً منا نحن البشر ننزل من بطون أمهاتنا، وأذهاننا صفحة بيضاء خالية من أى نقش، إلا أن حواسنا ترفدنا بالمدركات المختلفة شيئا فشيئا حتى ننتقل مع الأيام من الحالة الفطرية التى لا نعلم فيها شيئا إلى حالة المعرفة. ولو لم يزودنا الله بالحواس، أو زودنا بها ثم أغلقها أو عطلها، ما كان للدنيا والنعم التى مَنَّ الله بها علينا أى مَعْنًى أو جَدْوَى. وفوق ذلك فقد كرم الله الإنسان وفضله على كثير ممن خلقهم أيما تفضيل، وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات. أى أنه، عز جلاله، قد هيأه للعيش الكريم الميسر فى هذه الحياة، ووهبه النعم الطيبة التى لا تُعَدّ ولا تُحْصَى، ووفر له الرزق العميم الرغد أينما اتجه وحيثما حلّ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

وكان الله بالإنسان رحيما غاية الرحمة، فأرسل إليه الرسل والنبيين يَهْدُونه ويأخذون بيده وينيرون عقله وضميره، ولم يَدَعْه يشق طريقه وحده، بل عضده بهدايتهم منذ اللحظة الأولى موضحا أنه سبحانه فعل هذا كيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وهذا كلام عجيب، إذ من يستطيع أن يدعى الحجة على الله؟ إلا أن تلك هى عظمة الإسلام، الذى يصور موقف الحساب يوم القيامة تصويرًا شُورِيًّا يُسْمَح للإنسان فيه بالكلام والرد والحِجَاج. كذلك لم يكلفه عز شأنه إلا ما فى وسعه، فلا حساب من ثم على ما يخرج عن طوقه. بل لقد بين له أن عفوه يسبق عقابه، ورحمته تتقدم غضبه، وأنه محاسبُه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعلى السيئة بمثلها، مع غفرانها لمن تاب واستغفر: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 286]، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 163–165]،

أنه سبحانه وتعالى إنما يريد بعباده اليسر لا العسر: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: 6]، ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الحج: 78]، وأن أبواب الأمل دائما مفتحة، فلو تعسرت الدنيا وتعقدت المشاكل فليوقن المسلم أن مع العسر يسرا كما تؤكد الآيتان الخامسة والسادسة من سورة «الشرح». والمهم أن يعمل ويكدّ ويكدح ويبذل ما فى وسعه، والله موفّقه لا محالة: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30]. وإذا كانت الآيات[56- 58] من سورة «الذاريات» تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ فلا بد أن نعرف أن العبادة أوسع كثيرا مما يظن معظم الناس، إذ يقصرون العبادة على الصلاة والصوم والزكاة والحج، على حين أنها فى الإسلام تشمل كل شىء يفعله الإنسان أو يقوله أو يفكر فيه ما دام نافعا له أو لأبناء وطنه أو للإنسانية كلها، وما دام الإخلاص رائده فيه. والعبادة تدريب للإنسان على تعلم قيمة الشكر، وهى قيمة حضارية نبيلة،

فضلاً عن أن العبادة تصله بربه بدلاً من أن ينطلق طوال الليل والنهار منفلتا من كل رباط لا يدرك لحياته معنى. ولا ننس أن العبادة تعطى صاحبها الشعور بأنه فى معية الله وتبث فيه الأمل والشجاعة والتحمل والصبر، إذ إن إحساسه بوجود الله معه من شأنه أن يبث فيه الثقة ويكسب الحياة طعما ودفئا.

ومثل تلك العقيدة، ببساطتها واستقامتها ورحابتها ومنطقيتها وإنسانيتها السامقة وجمعها بين المثال والواقع فى جديلةٍ محكمةٍ، جديرةٌ بأن تكفل للفرد والجماعة اللذين يعتنقانها السعادة والفلاح بكل يقينٍ، فالله سبحانه ودود لطيف كريم عفو غفور، يحب عباده ويقوم على أمرهم لا يغفل عنهم طرفة عين، ويهديهم سبل السلام والسكينة والفلاح، ويريد لهم الخير ويقبل منهم العذر، ويودهم ويستر عليهم ويأخذهم فى كنفه ويحنو على ضعفهم ويتوب عليهم متى رجعوا عن خطئهم حتى لو تكرر الخطأ من جانبهم مرارا ومرارا. وهو يستمدون منه العون والثقة والأمل، ويرجون رحمته دائما ويطمئنون إليه ويتكلون عليه ويستمدون منه العون والقوة ويدعونه فيستجيب لهم بالخير دائما، ولا يجدون من دينهم ما يخالف العقل السليم، ولا يَرَوْن فيه إلا كل ما يتسق مع الحضارة الراقية، فينصرفون إلى العمل والجد والاجتهاد والإبداع يحدوهم الأمل والثقة فى ربهم والاطمئنان إلى بره ولطفه بهم ورحمته إياهم، لا يؤودهم توتر ولا حيرة ولا خوف أو تشاؤم،

منتظرين على كل ما يفعلون أجرين لا أجرا واحدا: أجر الدنيا فلاحًا وسيادة فى الأرض وعزةً وقوةً واطمئنانًا واستمتاعًا بنعم الله الجزيلة، وأجر الآخرة جنةً وحريرًا وظلالاً وأشجارا تجرى من تحتها الأنهار وحُورًا عِينًا وإخوانا محبين له ومحبوبين منه ومِنَنًا غير مقطوعة ولا ممنوعة ورضوانًا من الله أكبر. وكل ما فى الكون قد خلقه الله لهم ليتنعموا به دون أن ينتظر منهم شيئا إزاءه لأنه غنى عن العباد. وهم ممنوعون بأمر دينهم أن يشمخوا بأنوفهم على عباد الله، إذ الناس جميعا سواسية كأسنان المشط، بل هم إخوة من ذات الأم وذات الأب يجرى فى عروقهم نفس الدماء، وكلهم من صنع الله. وهو سبحانه سائلهم يوم القيامة عما قدمت أيديهم من خير أو شر، فهم لا يعيشون سبهللا دون مسؤولية وثواب وعقاب، بل كل شىء محسوب ومسجل إلى يوم معلوم. لكن الخطأ مسموح به رغم ذلك ومتوقَّع منهم على أساس أنهم بشر غير كاملين وأنهم خُلِقوا ضعفاء، وكل ما يراد منهم هو أن يبذلوا جهدهم فلا يتوانَوْا عن هذا البذل مع الاستعانة بالله والاطمئنان إلى عنايته بهم واستجابته لدعائهم ورحمته إياهم وتجاوزه عن أخطائهم ما داموا لا يصرون عليها ولا يرتكبونها عنادا وعصيانا. والحق أن عقيدة مثل هذه هى نعم العقيدة! إنها عقيدة كاملة متكاملة، وليست هناك عقيدة تساويها، فضلا عن أن تتفوق عليها.

والآن لو قارنّا هذه المبادئ وتلك السيا سة التى يجرى عليها الإ سلام فى التعامل مع الآخرين بما جاء فى العهد القديم مثلا لوجدنا فى ذلك الكتاب النصوص التالية: «31وَقَالَ الرَّبُّ لِي: أُنْظُرْ. قَدِ ابْتَدَأْتُ أَدْفَعُ أَمَامَكَ سِيحُونَ وَأَرْضَهُ. ابْتَدِئْ تَمَلَّكْ حَتَّى تَمْتَلِكَ أَرْضَهُ. 32فَخَرَجَ سِيحُونُ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ إِلَى يَاهَصَ، 33فَدَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا، فَضَرَبْنَاهُ وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ. 34وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا. 35لكِنَّ الْبَهَائِمَ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا، وَغَنِيمَةَ الْمُدُنِ الَّتِي أَخَذْنَا، 36مِنْ عَرُوعِيرَ الَّتِي عَلَى حَافَةِ وَادِي أَرْنُونَ وَالْمَدِينَةِ الَّتِي فِي الْوَادِي، إِلَى جِلْعَادَ، لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ قَدِ امْتَنَعَتْ عَلَيْنَا. الْجَمِيعُ دَفَعَهُ الرَّبُّ إِلهُنَا أَمَامَنَا» (تثنية/ 2)، «1ثُمَّ تَحَوَّلْنَا وَصَعِدْنَا فِي طَرِيقِ بَاشَانَ، فَخَرَجَ عُوجُ مَلِكُ بَاشَانَ لِلِقَائِنَا هُوَ وَجَمِيعُ قَوْمِهِ لِلْحَرْبِ فِي إِذْرَعِي. 2فَقَالَ لِي الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ مِنْهُ، لأَنِّي قَدْ دَفَعْتُهُ إِلَى يَدِكَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ وَأَرْضِهِ، فَتَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلْتَ بِسِيحُونَ مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ الَّذِي كَانَ سَاكِنًا فِي حَشْبُونَ. 3فَدَفَعَ الرَّبُّ إِلهُنَا إِلَى أَيْدِينَا عُوجَ أَيْضًا مَلِكَ بَاشَانَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ، فَضَرَبْنَاهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَارِدٌ. 4وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ. لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ لَمْ نَأْخُذْهَا مِنْهُمْ. سِتُّونَ مَدِينَةً، كُلُّ كُورَةِ أَرْجُوبَ مَمْلَكَةُ عُوجٍ فِي بَاشَانَ. 5كُلُّ هذِهِ كَانَتْ مُدُنًا مُحَصَّنَةً بِأَسْوَارٍ شَامِخَةٍ، وَأَبْوَابٍ وَمَزَالِيجَ. سِوَى قُرَى الصَّحْرَاءِ الْكَثِيرَةِ جِدًّا. 6فَحَرَّمْنَاهَا كَمَا فَعَلْنَا بِسِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ، مُحَرِّمِينَ كُلَّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. 7لكِنَّ كُلَّ الْبَهَائِمِ وَغَنِيمَةِ الْمُدُنِ نَهَبْنَاهَا لأَنْفُسِنَا» (تثنية/ 3)،

«[12]إِنْ سَمِعْتَ عَنْ إِحْدَى مُدُنِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَسْكُنَ فِيهَا قَوْلاً: [13]قَدْ خَرَجَ أُنَاسٌ بَنُو لَئِيمٍ مِنْ وَسَطِكَ وَطَوَّحُوا سُكَّانَ مَدِينَتِهِمْ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا. [14]وَفَحَصْتَ وَفَتَّشْتَ وَسَأَلْتَ جَيِّدًا وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ وَأَكِيدٌ، قَدْ عُمِلَ ذلِكَ الرِّجْسُ فِي وَسَطِكَ، [15]فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. [16]تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاًّ إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ. [17]وَلاَ يَلْتَصِقْ بِيَدِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُحَرَّمِ، لِكَيْ يَرْجعَ الرَّبُّ مِنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ، وَيُعْطِيَكَ رَحْمَةً. يَرْحَمُكَ وَيُكَثِّرُكَ كَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ، إِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْفَظَ جَمِيعَ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، لِتَعْمَلَ الْحَقَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلهِكَ» (تثنية/ 13)، «[10]حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، [11]فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. [12]وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. [13]وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. [14]وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. [15]هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا. [16]وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، [17]بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، [18]لِكَيْ لاَ يُعَلِّمُوكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا حَسَبَ جَمِيعِ أَرْجَاسِهِمِ الَّتِي عَمِلُوا لآلِهَتِهِمْ، فَتُخْطِئُوا إِلَى الرَّبِّ إِلهِكُمْ.

[19]«إِذَا حَاصَرْتَ مَدِينَةً أَيَّامًا كَثِيرَةً مُحَارِبًا إِيَّاهَا لِتَأْخُذَهَا، فَلاَ تُتْلِفْ شَجَرَهَا بِوَضْعِ فَأْسٍ عَلَيْهِ. إِنَّكَ مِنْهُ تَأْكُلُ. فَلاَ تَقْطَعْهُ. لأَنَّهُ هَلْ شَجَرَةُ الْحَقْلِ إِنْسَانٌ حَتَّى يَذْهَبَ قُدَّامَكَ فِي الْحِصَارِ؟ [20]وَأَمَّا الشَّجَرُ الَّذِي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ شَجَرًا يُؤْكَلُ مِنْهُ، فَإِيَّاهُ تُتْلِفُ وَتَقْطَعُ وَتَبْنِي حِصْنًا عَلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي تَعْمَلُ مَعَكَ حَرْبًا حَتَّى تَسْقُطَ» (تثنية/ 20). وهى، كما يرى القارئ، نصوص تشرّع الاستئصال وتقننه، بل توجبه على المؤمنين بها. وهذه النصوص ليست إلا غيضا من فيض، إذ لا تعدو أن تكون مجرد أمثلة قليلة، وإلا فالعهد القديم يعجّ بمثلها. والفرق الهائل واضح تمام الوضوح بين مبادئ الإسلام ومبادئ العهد القديم فى التعامل مع الآخرين، وبخاصة فى ميدان الحرب.

كذلك لو قارنّا هذه المبادئ وتلك السياسة التى يجرى عليها الإسلام فى التعامل مع الآخرين بما فعله الإسبان مثلا بالمسلمين، بعد توقيع المعاهدة بينهم وبين بنى الأحمر وانتهاء الحكم الإسلامى فى شبه الجزيرة الأيبيرية، من تنكيل وتضييق وتفتيش للبيوت والضمائر وتنصيرٍ قَسْرِيٍّ وتغريق وقتل وتشريد وطرد من الأندلس كما هو معروف للجميع حتى انتهى الأمر بأنْ لم يعد هناك مسلم واحد فى تلك البلاد،

لو فعلنا ذلك لاستبان لنا الحق ساطعًا يشهد للإسلام بأنه دين عجيب ليس له ضريب فى السماحة والإنسانية. لقد تم تنصير المسلمين فى إسبانية أو طردهم أو قتلهم، ومن نجا من هذا كله كان عليه أن يخفى دينه لا يطلع عليه أحد من الإسبان. ولكنهم بمرور الأيام انقرضوا وصار الجميع نصارى،

وانطوت صفحة الإسلام والمسلمين تماما من شبه جزيرة أيبيريا بناء على تلك السياسة الاستئصالية التى تأخذ على عاتقها تطهير البلاد من المسلمين بحيث لا يبقى منهم أحد على الإطلاق رغم أن المعاهدة بين الطرفين تنص على احترام حرية المسلمين الدينية والسياسية وحقوقهم الاقتصادية. أما حين كانت للمسلمين السيادة فى الأندلس فلم يقع منهم ضغطٌ قَطّ على أى شخص لتحويله إلى الإسلام، ولم يصادروا حرية أى إنسان فى الإيمان بما يشاء أو يطردوه من البلاد أو يأخذوا أمواله عَنْوَةً، فضلا عن أن يقتلوه. لقد احترم المسلمون، طبقا لتعاليم دينهم، أديان الآخرين وتركوا لهم حرية الاعتقاد والعبادة وخَلَّوْا بينهم وبين تطبيق شريعتهم لم يتعرضوا لهم بشىء. لكن لما دارت الأيام لم يجد المسلمون شيئا من هذا كله، بل تم استئصالهم والقضاء على دينهم وفُرِّغَت البلاد منهم بالوسائل البشعة التى أومأنا إليها.

وهذا وصــف سريع اقتطفناه من كتاب «La civilisation des Arabes: حضارة العرب» للمؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون يلخص لنا بعض الأهوال التي تعرض لها المسـلمون في الأندلس بعد سـقوط غرناطة، إذ كتب لوبون مؤكدا أنه من المستحيل علينا قراءة قصص التعذيب والاضطهاد الذى صبه المسيحيون المنتصرون على رؤوس المسلمين المنهزمين دون أن ترتعد منا الفرائص:

فقد عمّدوهم عَنْوة، وسـلّموهم لدواوين التفتيش لتحرق منهم ما اسـتطاعت إحراقـه. ورأى القس بيلـدا القضـــاء على جميع العرب ممن لم يكونوا قـد اعتنقوا المســيحية بعد بما فيهم النســاء والأطفال. وبهذه الطريقة أُبِيد وأُبْعِد ثلاثة ملايين عربى. وكان ذلك الراهب قد قتل في قافلة واحدة للمهاجرين العرب قرابة مائة ألف في أكمنةٍ نصــبها مع أتباعه. بل لقد طالب بقتل جميع العرب في إسـبانيا حتى المتنصرــين منهم بحجة أنه من المتعذر التفرقة بين الصـــادقين والكاذبين، ومن ثم يتعين قتلهم جميعا ليحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى، فيُدْخِل غير الصـــادقين منهم نار الجحيم. وهذا هو النص كاملا فى أصـــله الفرنســى، وهو متاح فى ختام الفصل السادس من الباب الثالث من الكتاب المذكور:

«La durée de l'empire des Arabes en Espagne fut d'environ huit siècles, c'est-à-dire à peu près égale à celle de la puissance romaine. Il périt victime de ses dissensions bien plus que des attaques étrangères. Son génie politique fut faible, mais son génie civilisateur le plaça aux premiers rangs.

Ferdinand avait accordé par traité aux Arabes le libre exercice de leur culte et de leur langue ; mais dès 1499 s'ouvrit l'ère de ces persécutions qui devaient se terminer au bout d'un siècle par leur expulsion. On commença par les baptiser de force ; puis, sous le prétexte qu'ils étaient alors chrétiens, on les livra à la sainte inquisition qui en brûla le plus qu'elle put. L'opération marchant avec lenteur, en raison de la difficulté de brûler plusieurs millions d'individus, on tint conseil sur la façon de purger le sol de l'élément étranger. Le cardinal-archevêque de Tolède, inquisiteur général du royaume, homme d'une grande piété, proposa de passer au fil de l'épée tous les Arabes non convertis, y compris les femmes et les enfants. Le dominicain Bleda fut plus radical encore. Considérant avec raison qu'on ne pouvait savoir si tous les convertis étaient bien chrétiens du fond du cœur, et observant justement qu'il serait d'ailleurs facile à Dieu de distinguer dans l'autre monde ceux qui méritaient l'enfer de ceux qui ne

le méritaient pas, le saint homme proposa de couper le cou à tous les Arabes, sans aucune exception. Bien que cette mesure eût été appuyée avec énergie par le clergé espagnol, le gouvernement pensa que les victimes ne se prêteraient peut-être pas facilement à la subir et se borna, en 1610, à décréter l'expulsion des Arabes. On eut soin du reste de s'arranger de façon à ce que la plupart fussent massacrés pendant l'émigration. L'excellent moine Bléda, dont je parlais plus haut, assure avec satisfaction qu'on en tua plus des trois quart en route. Dans une seule expédition, qui en conduisait 140 000 en Afrique, 100 000 furent massacrés. En quelques mois, l'Espagne perdit plus d'un million de ses sujets. Sédillot et la plupart des auteurs estiment à trois millions le nombre de sujets perdus pour l'Espagne, depuis la conquête de Ferdinand jusqu'à l'expulsion des Maures. Auprès de pareilles hécatombes, la Saint-Barthélémy n'est qu'une échauffourée sans importance, et il faut bien avouer que, parmi les conquérants barbares les plus féroces, il n'en est pas un ayant eu d'aussi cruels massacres à se reprocher.

Malheureusement pour l'Espagne, ces trois millions de sujets, dont elle se privait volontairement, constituaient l'aristocratie intellectuelle et industrielle de la nation. L'Inquisition avait pris soin, d'un autre coté, d'abattre tout ce qui, parmi les chrétiens, dépassait le niveau de la plus faible médiocrité. Ce fut seulement lorsque cette double opération fut terminée qu'on s'aperçut de ses effets. Ils furent très nets. L'Espagne, qui s'était trouvée pendant quelques temps au faîte de la grandeur,

tomba presque immédiatement au dernier degré de la plus honteuse décadence. Agriculture, industrie, commerce, sciences, littérature, population, tout s'écroula à la fois. Plusieurs siècles se sont écoulés depuis cette époque, mais, malgré ses efforts, elle ne s'est pas encore relevée de son abaissement. Tolède, qui comptait 200 000 habitants sous les Arabes, n'en possède plus que 17 000 aujourd'hui ; Cordoue qui avait un million d'habitants, en a 42 000 maintenant. Sur cent vingt-cinq villes que comprenait le diocèse de Salamanque, il en reste treize à peine. En étudiant, dans un autre chapitre, les successeurs des Arabes, nous montrerons à quel point la décadence produite par la destruction de ces derniers fut profonde. Si nous l'avons mentionnée ici, c'est qu'aucun exemple ne saurait mieux faire ressortir l'importance du rôle joué par ce peuple dans les contrées où il apporta la civilisation. On ne pourrait trouver d'exemples plus concluants pour montrer l'influence d'une race. Avant les Arabes, civilisation presque nulle ; avec les Arabes, civilisation brillante, après les Arabes, décadence profonde. L'expérience est complete».

وللقس الإسباني بارتولوميدى دى لا كاسا كتاب يصف فيه كيف كان قومه يعاملون الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين حين غَزَوْا تلك البلاد فى القرن السادس عشر، إذ ذكر أنهم كانوا يحرقونهم ويبقرون بطونهم ويسلخون جلد رؤوسهم ويقتلون أطفالهم ويغتصبون نساءهم، فضلا عن الاستئصال المنظم الذى كانوا ينتهجونه معهم مما كان من ثمرته البشعة أنْ تناقصت أعدادهم فى بلادهم بالملايين. ومن بين ما كتبه ذلك القسيس: «الناس في منطقة هاسبانو (أي هاييتي حاليا) أناس بسطاء وطيبون إلى درجة كبيرة. صبورون ومتواضعون وساذجون جدا ومطيعون. بعيدون عن الشرور وعن الحيل والخداع. وهم يبدون التزاما كبيرا بتقاليدهم ويطيعون الإسبان، ولا يتنازعون ولا يتقاتلون، ولا يحملون حقدا على أحد، ولا تجد عندهم مشاعر الانتقام والحقد والعداء. هم فقراء جدا، ولكنهم لا يحملون مشاعر الطمع والحرص والنهم. يسير أكثرهم عراة إلا ما يستر عورتهم، ويلفون حول أجسادهم قطعة صغيرة من القماش... ما إن رأى الإسبان هذا القطيع الوديع من السكان المحليين حتى هجموا عليهم هجوم الذئاب المسعورة الجائعة، وهجوم النمور والأسود التي لم تذق طعم اللحم من مدة طويلة على قطيع الغنم. ولم يتوقف هذا الهجوم فيما بعد، بل استمر على المنوال نفسه حتى اليوم. لم يقم الإسبان هناك بشيء إلا بقتل وتقطيع أوصال السكان المحليين وتعذيبهم وظلمهم...

عندما احتل الإسبان جزيرة هيسبانولا كان عدد نفوس السكان المحليين فيها 3 ملايين نسمة تقريبا، أما اليوم فلا يعيش منهم سوى 200 فرد. أما جزيرة كوبا فهي في حالة يرثى لها، ولا يمكن العيش فيها، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ جزر بورتوريكا وجامايكا... ونتيجة للظلم الذي اقترفه المسيحيون هناك خلال أربعين عاما والمعاملة غير الإنسانية مات أكثر من 12 مليون شخص بينهم العديد من النساء والأطفال حسب أكثر التخمينات تفاؤلاً. أما تخميني الشخصي- الذي أراه أكثر صوابا فهو موت 15 مليون شخص. ولي أسبابي المعقولة في هذا الخصوص... يا ليت الإسبان عاملوا هذا الشعب الساذج المطيع والصبور معاملتهم للحيوان! لم يعاملوهم حتى كحيوانات برية ووحشية، بل عاملوهم وكأنهم قاذورات متراكمة في الشوارع. لم تكن لهؤلاء السكان المحليين أدنى قيمة في نظرهم. لقد سار الملايين من هؤلاء إلى الموت دون أن يعرفوا ربهم، بينما كان هؤلاء السكان المطيعون يعتقدون بأن الإسبان جاؤوا من الجنة، وذلك قبل أن يُصْدَموا بظلمهم وقسوته... دخلوا مناطق سكناهم بالقوة وقتلوا كل من شاهدوه أمامهم... قتلوا الأطفال والشيوخ والنساء الحوامل، وحتى النساء اللائي وَلَدْن حديثا، وذبحوهم وقطعوا جثثهم، وبقروا بطونهم مثلما تُبْقَر بطون الغنم، وبدأوا يتراهنون: هل يستطيع أحدهم أن يشق رجلاً إلى نصفين بضربة سيف واحدة؟ أم هل يستطيع أي واحد منهم بَقْر بطن أحدهم وإخراج أحشائه بضربة فأس واحدة؟

أخذوا الأطفال الرُّضَّع من أحضان أمهاتهم، وأمسكوا بأرجل هؤلاء الأطفال وضربوا رؤوسهم بالصخور. وبينما كان بعضهم يقوم بهذا كان الآخرون يضجّون بالضحك ويَتَسَلَّوْن. رَمَوُا الأطفال إلى الأنهار وهم يصيحون: اسبح يا ابن الزنا!... كانوا يثبتون قطعتين خشبيتين كبيرتين على الأرض، ثم يصنعون شواية معدنية ويثبتونها عليهما، ويأتون بأحد الزعماء أو بأكثر من واحد يضعونهم على هذه الشواية، ويوقدون تحتها نارا ضعيفة، ويتركونهم يموتون ببطء، وهم يئنّون ويطلقون صرخات الألم. وقد شاهدتهم مرة، وهم يشوون أربعة أو خمسة من الزعماء المحليين. وعندما أفسدت صرخاتهم نوم القائد في الليل أصدر أمره بخنقهم حالاً ليسكتهم. ولكن رئيس فريق التعذيب، الذي كان من أشد الظامئين إلى سفك الدماء، لم يشأ قطع لهوه ولهو أصحابه بتعذيب هؤلاء وتمتعه بمنظرهم... لذا قام بوضع قطع خشبية بيديه في أفواه هؤلاء ليمنع صدور أي صوت منهم، ثم زاد من حدة النيران، لأنه كان يريد قتلهم في الوقت الذي يرغب فيه. لقد شاهدت جميع هذه الفظائع بعيني. وعندما بدأ بعض السكان المحليين بالهرب من ظلم ووحشية هؤلاء القتلة إلى الجبال قام هؤلاء القتلة بتدريب كلاب الصيد لتعقبهم.

كانت هذه الكلاب عندما تصل إلى أحدهم تهجم عليه وتفترسه. لقد اشتركت هذه الكلاب بحصة كبيرة في مثل هذه المذابح...

في إحدى المرات عثرت مجموعة من الجنود الإسبان في إحدى الجبال على جماعة من السكان المحليين الذين كانوا قد تركوا قراهم وهربوا من ظلم الإسبان، ونزل هؤلاء الجنود من الجبل ومعهم 70- 80 امرأةً وشابّةً بعد أن قتلوا جميع الرجال. وما إن سمع رجال القرى هذا النبأ حتى لحقوا بالجنود لاستعطافهم والتوسل إليهم ليتركوا النساء ليرجعن إلى أقربائهن. ولكن الجنود لم يترددوا كثيرا، إذ غرزوا سيوفهم في بطون النساء وبقروا بطونهن أمام أنظار هؤلاء الرجال الذين صرخوا من الألم: آه أيها الوضيعون، أيها المسيحيون القساة، لقد قتلتم نساءنا...».

وقد تناول جوستاف لوبون الأسباب التى ساعدت العرب فى فتوحهم ويسرتها لهم، فقال فى الفصل الثالث من الباب الثانى تحت عنوان: Caractère des conquêtes des Arabes من كتابه: «La civilization des Arabes»:

L'habileté politique que déployèrent les premiers successeurs de Mahomet fut à la hauteur des talents guerriers qu'ils surent bien vite acquérir. Dès leurs premiers combats, ils se trouvèrent en présence de populations que des maîtres divers tyrannisaient sans pitié depuis des siècles, et qui ne pouvaient qu'accueillir avec joie des conquérants qui leur rendraient la vie moins dure. La conduite à tenir était clairement indiquée, et les khalifes surent sacrifier aux intérêts de leur politique toute idée de conversion violente. Loin de chercher à imposer par la force leur croyance aux peuples soumis, comme on le répète toujours, ils déclarèrent partout vouloir respecter leur foi, leurs usages et leurs coutumes. En échange de la paix qu'ils leur assuraient, ils ne leur imposaient qu'un tribut très faible, et toujours inférieur aux impôts que levaient sur eux leurs anciens maîtres.

Avant d'entreprendre la conquête d'un pays, les Arabes y envoyaient toujours des ambassadeurs chargés de propositions de conciliation. Ces propositions étaient presque partout identiques à celles que, suivant l'historien arabe El-Macyn, Amrou fit faire l'an 17 de l'hégire aux habitants de la ville de Gaza, assiégés par lui, et qui furent faites également aux Égyptiens et aux Perses. Les voici:

«Notre maître nous ordonne de vous faire la guerre si vous ne recevez pas sa loi. Soyez des nôtres, devenez nos frères, adoptez nos intérêts et nos sentiments, et nous ne vous ferons point de mal. Si vous ne le voulez pas, payez-nous un tribut annuel avec exactitude tant que vous vivrez, et nous combattrons pour vous contre ceux qui voudront vous nuire et qui seront vos ennemis de quelque façon que ce soit, et nous vous garderons fidèle alliance. Si vous refusez encore, il n'y aura plus entre vous et nous que l'épée, et nous vous ferons la guerre jusqu'à ce que nous ayons accompli ce que Dieu nous commande.»

La conduite du khalife Omar à Jérusalem nous montre avec quelle douceur les conquérants arabes traitent les vaincus, et contraste singulièrement avec les procédés des croisés, dans la même ville, quelques siècles plus tard. Omar ne voulut entrer dans la cité sainte qu'avec un petit nombre de ses compagnons. Il demanda au patriarche Sophronius de l'accompagner dans la visite qu'il voulut faire dans tous les lieux consacrés par la tradition religieuse, et déclara ensuite aux habitants qu'ils étaient en sûreté, que leurs biens et leurs églises seraient respectés, et que les mahométans ne pourraient faire leurs prières dans les églises chrétiennes.

La conduite d'Amrou en Égypte ne fut pas moins bienveillante. Il proposa aux habitants une liberté religieuse complète, une justice impartiale pour tous, l'inviolabilité des propriétés, et le remplacement des impôts arbitraires et excessifs des empereurs grecs par un tribut annuel fixé à 15 francs par tête. Les habitants des provinces se montrèrent tellement satisfaits de ces propositions qu'ils se hâtèrent d'adhérer au traité, et payèrent d'avance le tribut. Les Arabes respectèrent si religieusement les conventions acceptées, et se rendirent si agréables aux populations soumises autrefois aux vexations des agents chrétiens de l'empereur de Constantinople, que toute l'Égypte adopta avec empressement leur religion et leur langue. C'est là, je le répète, un de ces résultats qu'on n'obtient jamais par la force. Aucun des peuples qui avaient dominé en Égypte avant les Arabes ne l'avait obtenu.

Les conquêtes des Arabes présentent un caractère particulier qui les distingue de toutes celles accomplies par les conquérants qui leur ont succédé. D'autres peuples, tels que les Barbares, qui envahirent le monde romain, les Turcs, etc., ont pu fonder de grands empires, mais ils n'ont jamais fondé de civilisation, et leur plus haut effort a été de profiter péniblement de celle que possédaient leurs vaincus. Les Arabes,

au contraire, ont crée très rapidement une civilisation nouvelle fort différente de celles qui l'avaient précédée, et ont amené une foule de peuples à adopter, avec cette civilisation nouvelle, leur religion et leur langue. Au contact des Arabes, des nations aussi antiques que celles de l'Égypte et de l'Inde ont adopté leurs croyances, leurs coutumes, leurs mœurs, leur architecture même. Bien des peuples, depuis cette époque, ont dominé les régions occupées par les Arabes, mais l'influence des disciples du prophète est restée immuable. Dans toutes les contrées de l'Afrique et de l'Asie où ils ont pénétré, depuis le Maroc jusqu'à l'Inde, cette influence semble s'être implantée pour toujours. Des conquérants nouveaux sont venus remplacer les Arabes: aucun n'a pu détruire leur religion et leur langue. Un seul peuple, les Espagnols, a réussi à se débarrasser de la civilisation arabe, mais nous verrons qu'il ne l'a fait qu'au prix de la plus irrémédiable decadence».

وتلخيص ذلك أن الخلفاء المسلمين الأولين قد تجنبوا تماما البغى على رعاياهم الجدد بعكس ما كان يفعله الأسياد القدامى مع أولئك الرعايا، فلم يحاولوا قط إكراه أحد على نبذ دينه أو إعمال السيف فى رقبته لعدم اعتناقه الإسلام، مُؤْثِرين أن يُخَلُّوا بين الرعية الجدد وأديانهم لقاء مبلغ زهيد من المال اسمه «الجزية» يقلّ كثيرا عما كانوا يدفعونه إلى سادتهم السابقين، وذلك مقابل حمايتهم لهم ومقاتلة من يناوئهم. وهذا ما فعله عمرو بن العاص مثلا فى غزة ومصر

ومنه أيضــا ما أبداه عمر بن الخطاب من رفق عظيم مع أهالى القدس وقَطْعه معهم عهدا باحترام كنائسـهم وأموالهم وبِيَعهم. ويختلف العرب عن الفاتحين الذين جاؤوا من بعدهم فى أن أولئك الفاتحين، وإن أقاموا دولا، لم يسـتطيعوا أن ينشـئوا حضـارة كما فعل العرب، الذين سرعان ما أقاموا حضـارة جديدة تختلف كثيرا عن الحضـارات التى سـبقتهم، واجتذبوا الكثير من الأمم إلى لغتهم ودينهم وعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم، فضـلا عن حضـارتهم الجديدة، رغم ما كان لتلك الأمم من حضـارات بعيدة الجذور فى التاريخ. ويركز لوبون على دور المثل الأعلى فى بناء الدول والحضارات، إذ يدفع ذلك المثلُ البشَرَ إلى التضحية بأنفسهم فى سبيل تلك الغاية كما هو الحال مثلا فى تضـحية المسـلمين الفاتحين، الذين كان إيمانهم بالجنة وتطلعهم إلى إحرازها دافعا لهم إلى الاسـتهانة بالموت فى ذلك السـبيل، وإن كان لوبون للأسف يرى أن هذا المثل هو مجرد خيال من الخيالات. إلا أن هذه الخيالات أقوى عنده من الحقائق. كذلك يؤكد لوبون، فى الفصـلين: العاشر من الباب الخامس، والأول من الباب السادس، أن العرب هم الفاتحون الوحيدون الذين نجحوا فى جعل الشعوب الشرقية المختلفة تنتحل دينهم ولغتهم وفنونهم، متفوقين بذلك على الفرس والإغريق والرومان، فضلا عما تدين به أوربا لهم من دَيْنٍ عظيم فى ميدان العلوم والفنون والأخلاق

والذوق والسلوك بعدما كانت قبل مجيئهم إليها مرتكسة فى الهمجية، مشيرا إلى ما أصاب أسبانية من انحطاط شامل عقب انتهاء حكمهم لها. بل إنه، عند حديثه فى الفصل السابع من الباب الثالث عن غزو العرب لفرنسا، لَيَرَى أنه لو كان المسلمون قد نجحوا فى ضم أوربة إلى إمبراطوريتهم لكان الأوربيون المتبربرون قد نالهم ما نال الأسبان من الحضارة الزاهرة تحت رايتهم، ولتجنبتْ قَارَّتُهم فظائعَ محاكم التفتيش والصراعات المذهبية الدامية كمذبحة سان بارتلمى مثلا.

كذلك كتب توماس آرنولد المستشرق البريطانى فى تمهيده للباب الأول من كتابه: «The Preaching of Islam: الدعوة إلى الإسلام» مؤكدا أن الإسلام دينٌ رسالىٌّ يؤمن أتباعه بالصدق المطلق لعقيدتهم ويعملون بكل طاقتهم من أجل نشرها، وأن هذه العقيدة من شأنها أن تمد أصحابها بقوة لا تقهر، فانطلقوا يفتحون البلاد فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية إلى أن وصلوا إلى أواسط آسيا شرقا، والأندلس غربا. ثم يضيف قائلا إن هذه الإمبراطورية، رغم ضعفها وانحلالها فيما بعد، قد ظلت قوتها الروحية نشطة لا تعرف الخمود، إذ خضع المغول والترك للإسلام بعدما اكتسحوا تلك الإمبراطورية، معتنقين بذلك دين من غلبوهم، كما انساح هذا الدين فى جزيرة سومطرة والصين وجزائر الهند الشرقية وأواسط أفريقية على أيدى الدعاة العُزْل الذين كانوا يفتقرون إلى أى سلطان دنيوى. وهذا إلى جانب الأقليات الإسلامية الموجودة هنا وهناك فى بلاد العالم المختلفة. وإليك، أيها القارئ، نص كلام آرنولد فى أصله الإنجليزى كاملا:

Ever since Professor Max Miiller delivered his lecture in Westminster Abbey, on the day of intercession for missions, in December, 1873, it has been a literary commonplace, that the six great religions of the world may be divided into missionary and non-missionary; under the latter head will fall Judaism, Brahmanism and Zoroastrianism, and under the former Buddhism, Christianity and Islam; and he has well defined what the term,— a missionary religion,—should be taken to mean, viz. one »in which the spreading of the truth and the conversion of unbelievers are raised to the rank of a sacred duty by the founder or his immediate successors... It is the spirit of truth in the hearts of believers which cannot rest, unless it manifests itself in thought, word and deed, which is not satisfied till it has carried its message to every human soul, till what it believes to be the truth is accepted as the truth by all members of the human famil.

It is such a zeal for the truth of their religion that has inspired the Muhammadans to carry with them the message of Islam to the people of every land into which they penetrate, and that justly claims for their religion a place among those we term missionary. It is the history of the birch of this missionary zeal, its inspiring forces and the modes of its activity that forms thesubject of the following pages. The 173 millions of Muhammadans scattered over the world at the present day are evidences of its workings through the length of twelve centuries».□

وهذا الكلام قد كُتِب فى أوائل القرن العشرين، فما بالنا لو كان صاحبه حيًّا الآن وشاهد بأم عينيه كيف ينتشر الإسلام فى الغرب ذاته رغم الضعف الشامل الذى يعانى منه المسلمون: حكومات وشعوبا فى كل المجالات، ورغم تضييق الغربيين عليهم ومحاربتهم لدينهم بكل سبيل ووضعهم إياهم موضع الريبة دائما واتهامهم لهم بالإرهاب والتخلف ومعاداة الحضارة الغربية؟ ولقد أصاب آرنولد كبد الحقيقة حين أكد أن الإسلام دينٌ رِسَالِيٌّ، فقد أتى إلى البشرية جميعا دون استثناء قوم من الأقوام أو أمة من الأمم فى أى زمان أو مكان. وفى القرآن العزيز: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة سبأ]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [سورة الفرقان]. ويقول النبى عليه الصلاة والسلام فى هذا المعنى: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي: بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود، وكان مَنْ قبلي يُبْعَث إلى قومه، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطَهُورًا، ونُصِرْتُ بالرعب أمامي مسيرة شهر، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة فأخّرتها لأمتي، فهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئا وكان النبي يُبْعَث إلى قومه خاصّة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامّة».

وللدكتور إدوار غالى الذهبى كتاب فى هذا الموضوع عنوانه: «معاملة غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى» جاء فيه: «لقد استخلصتُ من دراساتى وقراءاتى الشخصية أن الإسلام يرفض العنف، وأنه دين العدالة والمساواة والرحمة والمودة وحسن المعاملة للبشر جميعا، وخاصة أهل الكتاب منهم. بل إن الإسلام ليأمر بالرحمة والشفقة على الحيوان. وكلنا نعرف قصة المرأة التى أُلْقِيَتْ فى جهنم لأنها عذبت هِرّة، وكذلك الرجل الذى دخل الجنة لأنه أطفأ ظمأ كلب عطشان. فإذا كان هذا هو موقف الإسلام بالنسبة للحيوان، فكيف بالأحرى يكون موقفه بالنسبة للإنسان؟» (مكتبة غريب/ 1993م/ 9- 10). ثم مضى المؤلف يفصل القول فى تلك القضايا لينتهى بعد البحث والتقصى إلى أن المجتمع الإسلامى يحرص الحرص كله على إعطاء غير المسلمين حقوقهم كاملة، وأنه دين العدل واحترام الآخرين. ومن ثم نرى كاتبنا يعمل على طمأنة أبناء طائفته من نصارى مصر إلى أنهم لا ينبغى أن يشعروا بحيرة ولا قلق من هذا الجانب لأن الإسلام دين العدل والرحمة والحفاظ على حقوق الآخرين.

وبالمثل هناك كتاب هام للدكتور نبيل لوقا بباوى يحمل اسم «انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة و الافتراء» (مطابع الأهرام بالقاهرة) ألفه عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001م، وذكر فيه أنه قد شغلته التهمة الموجهة إلى الإسلام بأنه دين انتشر بحد السيف والقوة

وأنه أجبر الناس على اعتناقه، مما دفعه إلى قراءة عشرات الكتب التى تتعلق بانتشار الإسلام وتاريخه، وبعضها بأقلام غير إسلامية، وأنه قد استبان له تماما أن الإسلام لم ينتشر قط بحد السيف ولم يحدث أن أجبر أحدا على اعتناقه بالقوة، بل كل من اعتنقه إنما اعتنقه بقبول خال من الإكراه، فضلا عن أنه قد ثبت من جميع المصادر التاريخية أن الحكام المسلمين إنما كانوا يخيّرون أهل البلاد المفتوحة بين البقاء على دينهم مع ضمان إقامة شعائرهم فى حرية كاملة وبين الدخول فى الإسلام نزولًا على قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، وأنهم إذا اختاروا البقاء على دينهم تكون لهم ذات الحقوق التى للمسلمين، وعليهم نفس الواجبات التى عليهم، تحقيقا للمبدإ الإسلامى القائل: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا». ليس ذلك فحسب، بل إن الجزية التى كان يدفعها النصارى المصريون للمسلمين بعد الفتح الإسلامى للمحروسة كانت ضئيلة للغاية حسبما يؤكد الباحث، علاوة على أنه كان يُعْفَى منها سبعون فى المائة من نصارى مصر، إذ لم يكن المسلمون يحصّلونها من القُصَّر أو النساء أو الشيوخ أو العجزة أو المرضى أو الرهبان، على عكس الضرائب الباهظة التى كانوا يدفعونها للرومان. ودَعْكَ من ألوان العذاب الوحشى التى كان الروم يُنْزِلونها بالنصارى، ثم أنقذهم المسلمون منها.

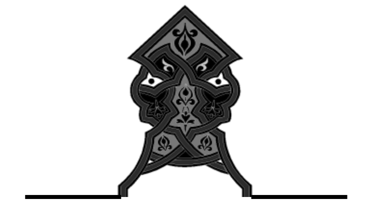
وثم كتاب آخر للدكتور بباوى أيضا هو «الأقباط، هل ساعدوا المسلمين فى فتح مصر؟»، عالج فيه الرجل موضوع فتح المسلمين لمصر، مبرزا حال الأقباط تحت الاحتلال الرومانى النصرانى وما كانوا يقاسونه من اضطهاد شنيع وضرائب مرهقة وإكراه مذهبى عنيف، كما أبرز دور الأقباط فى مساعدة المسلمين في فتح البلاد. والكتاب، فى الواقع، شاهد قوى على عدل الإسلام وسماحته مع من لا يدينون به.

وفى مادة «الحضارة»، وتحت عنوان جانبى هو «الحضارة العربية الإسلامية»، تتحدث «الموسوعة العربية العالمية» عن قوة العقيدة الإسلامية وثمارها العجيبة فى تاريخ الإسلام وقدرتها على حسم المعارك والحروب التى خاضها المسلمون لصالحهم، فتقول: «يخبرنا التاريخ الإسلامي أن العقيدة الإسلامية هي التي أفرزت بطولات نادرة، وجعلت المسلمين ينتصرون على شهواتهم، ثم يصمدون أمام قوى البغي والعدوان في مكة، وينتصرون في الغزوات والسرايا التي انطلقت من المدينة المنَّورة. ومن يتابع أبحاث المستشرقين المنصفين يلحظ أنهم يقفون مندهشين أمام هذه الظاهرة الإيمانية القوية في الحضارة الإسلامية ويقدرونها... لقد جعل الإسلام رابطة العقيدة الأصل الذي يجتمع ويتفرق عليه الناس، ورفض كل العصبيات: الطبقية والقومية والعنصرية والقبلية وما شابه ذلك.

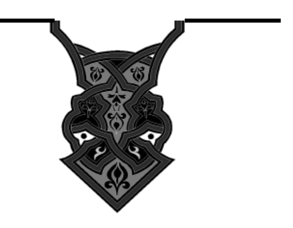
يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[الحجرات: 13]، ويقول أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾[النساء: 1].

ويقول الرسولﷺ : أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». إن اعتراف الإسلام بوحدة الأصل وبناء علاقات الناس على هذا الأساس نزعة إنسانية حضارية بارزة في تشريعات الإسلام المختلفة: فمثلاً يقف الناس جميعًا في الصلاة بين يدي الله متراصّين، لا مكان مخصص لحاكم أو غني، ويلبسون زِيًّا واحدًا في الحج، ويؤدون المناسك جميعها بعضهم مع بعض».





الأخلاق



ما من حضـــارة إلا وتســـتند إلى مجموعة من القيم الخُلقية، كالتعاون والإتقان والصدق والوفاء بالوعد والتراحم والصبر والانضباط والنظام... إلخ. والإسلام هو، فى الواقع، مجموعة من القيم الأخلاقية قبل أن يكون عبادات وتشريعات، إذ العبادات والتشريعات بدون الحرص على تلك القيم لا تؤدى إلى طائل، بل يتحول الأمر إلى تمســك بالشــكليات لا يقدم ولا يؤخر. والواقع أن دينًا دون أخلاق هو كعدمه سواء بسواء. ترى كيف يمكن مثلا إنشاء مشروع سكة حديدية دون تعاون بين المديرين والمهندسين والمشرفين والموظفين والحرفيين والعمال والتجار والمخططين والممولين والمستوردين؟ أو كيف يتم هذا العمل دون صدق أو إخلاص أو احترام للمواعيد وللخطة الموضوعة سلفا ودون إعطاء كل ذى حقه حقه كاملا غير منقوص وغير متأخر؟ إن أقل تأخير فى المواعيد معناه خسارة مال كنا نستطيع ألا نخسره، ومعناه أيضا فساد فى الأعصاب وقلق وتوتر، ومعناه أيضا تأخر فى مواعيد أمور أخرى مترتبة على هذا العمل أو مرتبطة به، وخسارة مالية فيه كذلك... وهلم جرًّا. وقس على ذلك كل عمل من أعمالنا. كذلك فإن القذارة تؤدى إلى انهيار الذوق وضيق الصدر وانتشار الأمراض واللامبالاة بأى إتقان،

وهذا بدوره يكلف أموالا دون أى داع، كما يصيب الأمة بفقدان الكرامة وضياع الرغبة فى التقدم. وخُلْف الوعد فى عملٍ ما يترتب عليه إنفاق مزيد من المال وتخلّف صاحب المصلحة المعطلة عن العمل الموكول إليه فى الشركة أو المؤسسة التى يعمل بها لأن عليه متابعة عمله المتأخر بنفسه مما يتولد عنه إهماله لعمله الأساسى، وهو ما يقود بالتبعية إلى إهمال مصالح الآخرين الموكولة إليه... وهَلُمَّ جَرًّا.

ومن القيم الأخلاقية الهامة أيضا: الصبر. والفهم العام له أنه الرضا بالبلوى دون عمل شىء، والصمت على ما ينزل بالإنسان من أذى وظلم مع انتظار مفاجأة تقضى على ذلك الظلم أو تزيل ذلك الأذى. لكنه فى الإسلام شىء آخر، شىء أعظم من ذلك وأوسع مدى وأبعد آثارا وأهم منزلة بحيث لا يمكن أن يتم أمر إلا به ومن خلاله، سواء كان ذلك الأمر متعلقا بالعلم أو بالإنتاج أو بالإبداع أو بالكفاح من أجل نيل الحق من السلطان أو بتوعية المواطنين بما لهم وما عليهم أو بالإتقان لما يُوكَل إلى الشخص من عمل، أو تحمُّل خسارة أو مرض أو فشل أو ضياع حق، دون أن يضعف الشخص المبتلَى أو تنهار مقاومته أو يسخط ويذهب فيشكو لكل من يقابله متضعضعا غير متماسك... إلخ. ذلك أن الصبر معناه أن يكون الإنسان طويل النَّفَس فلا يضيق صدره سريعا إذا ما وجد أن العمل الذى فى يديه يحتاج إلى وقت طويل

وشغل متواصل يوما وراء يوم، وأسبوعا وراء أسبوع، وشهرا وراء شهر، وسنة وراء سنة، ويحتاج منه إلى متابعة بذل الجهد ليلا ونهارا، فى العمل والشارع والبيت، وحده ومع الآخرين، وكذلك إلى المراجعة وتكرار التجربة والصيانة واليقظة على الدوام، مثلما يحتاج إلى إنفاق المال الكثير مع انتظار المكاسب بعد زمن بعيد، وتحمل الإرهاق المضنى والقلق الذى يفرى النفوس، والشكوك التى تلدغ القلوب إلى أن تنجلى الغمرة ويسفر الصبح لذى عينين، فضلا عن الصبر على تشكيك الآخرين فى جهده وبذرهم العقبات فى طريقه ومحاربتهم له وعملهم على تضييع جهوده عبثا.

لنأخذ مثلا الصبر فى حياة الطالب، إذ عليه فى كل يومٍ القيام من نومه وترك السرير بما فيه من دفء وراحة، وهذا يحتاج إلى الصبر على حرمانه من الراحة والكسل اللذيذ والإقبال على التعب الذى ينتظره طوال النهار. ثم هو بحاجة إلى أن يتوضأ ويصلى، ويغير ملابسه ويلبس حذاءه بعد تلميعه، ويسير إلى محطة القطار، ويقطع التذكرة، وينتظر وسيلة المواصلات، وينفق فيها بعض الوقت حتى تصل به إلى المحطة التى ينزل عندها، حيث يكون عليه أن يسير مرة أخرى إلى مدرسته أو جامعته، ثم الصبر على صعوبة الصمت والتركيز فيما يقوله الأستاذ، وإعداد الواجبات المدرسية بما تعنيه من مغالبته لذة مشاهدة التلفاز والانكباب على الكتاب والكراريس وحفظ النص وفهم الدرس وحل المسائل ومراجعة المقرر كل حين

حتى لا ينسى ما كان قد استذكره من قبل، ثم السهر أيام الامتحان بكل ما يعنيه هذا من تحمل القلق وتكرير ما كان قد درسه من قبل والتغلب على الملل الناشئ من جراء ذلك، ثم الصبر فى انتظار ظهور نتيجة الامتحان... إلخ. وهكذا كل سنة عاما بعد عام حتى يتم تخرجه. ثم هناك من جهة أخرى صبر الأهل على الإنفاق على ابنهم وتوفير الكتب ومصاريف الدراسة والملابس والطعام له... إلخ. وهناك لون آخر من الصبر لا يخطر عادة فى بال الناس، ألا وهو الصبر على النعمة من مال غزير يطرأ أو منصب كبير يستجدّ مثلا، إذ ترى بعض الناس متواضعا شكورا لطيف المعشر ما كان فقيرا أو عائشا فى الظل، فإذا ما اغتنى أو تسنم منصبا ضخما تغيرت شخصيته وبان للناس منه عورات شنيعة. فهذا ليس من الصابرين، بل من البطرين المستكبرين. وهكذا نرى كيف لا يستغنى أى شىء فى الحياة عن فضيلة الصبر.

وقد كنت قرأت للشيخ محمد عبده فى شبابى ما كتبه فى تفسير سورة «العصر» عن قيمة الصبر فذهلت لما اكتشفته فى الصبر من معانٍ وأبعادٍ كانت غائبة عن وعيى لأنى لم أُنَشَّأْ على هذا الفهم العظيم للصبر. قال الشيخ: «الصبر خُلُقٌ من أمهات الأخلاق، بل مِسَاكُ كل خلق. قالوا فى فضل الصبر: إنه ذُكِر فى القرآن نحو سبعين مرة. وليس لنا فائدة كبرى فى تحديد العدد، ولكن جاء فى الكتاب العزيز ذكر الصبر ومَدْح أهله وتبشيرهم بالفوز والفلاح. والصبر مَلَكَةٌ فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشقّ احتماله، والرضا بما يُكْرَه فى سبيل الحق.

وهو خُلُقٌ يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق. وما أُوتِيَ الناس من شىء مثل ما أُوتُوا من فقد الصبر أو ضعفه. كل أمةٍ ضَعُفَ الصبر فى نفوس أفرادها ضَعُفَ فيها كل شىء، وذهبت منها كل قوة. ولنضرب لذلك مثلا نقص الصبر، فإن من عرف بابًا من أبواب العلم لا يجد من نفسه صبرا على التوسع فيه والتعب فى تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعبا، ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه. ولو كان عنده احترام حقيقى لسَلَفه لاتخذهم أسوة له فى عمله فحذا حَذْوَهم وسلك مسلكهم وكلَّف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين. ثم هو إذا تعلم لا يجد صبرا على مشقة دعوة الناس إلى عِلْم ما يعلم وحَمْلهم على عرفان ما يعرف، ولا جَلَدًا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى ما لاقى أول معارضة قبع فى بيته وترك الخَلْق للخالق كما يقولون. يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه، أو يكلّ والده من الإنفاق عليه فيصرفه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب ويذهب فى الجهل كل مذهب. وكل هذا من ضعف الصبر.

يبخل البخيل بماله، ويجهد نفســه فى جمعه وكنزه، وتَعْرِض له وجوه البر فيُعْرِض عنها ولا ينفق درهما فى شــىء منها، فيؤذى وطنه وملته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته. ولو نظرنا إلى ما قَبَضَ يده لوجدناه ضَعْف الصبر. ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول إليه لما أصــيب بذلك المرض القاتل له ولأهله. يسرــف المسرــف فى الشــهوات، ويتهتَّك المتهتِّك فى المنكرات، حتى يَنْفَد المال، وتسوء الحال، ويستبدل الذل بالعز، والفقر بالغنى. ولا سبب لذلك إلا ضياع صــبره فى مقاومة الهوى وضــبط نفســه عن مواقع الرَّدَى. ولو صــبر فى مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خَسِر ماله، وأفسد حاله.

وهكذا لو أردتُ أن أَعُدّ جميع الرذائل وأبحث عن عللها الأولى لوجدت أنها تنتهى إلى ضعف الصبر أو فقده. ولو سردتُ جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها ما وجدت لها ينبوعا سوى الصبر. أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يُخَصّ بالذكر؟ فـ«الحق» حياة العلم، ومستنام السكينة، ومُطْمَأَنّ العقل، ومستقر الراحة للنفس. و«الصبر» مُسْتَمَدّ الفضائل، ومَدْحَرة الرذائل، ومِلاَك الصالحات، ومِسْلاك الحسنات. فجدير بهذين الأصلين الجليلين أن يُخَصّا من بين أعمال الإنسان بالإشادة بذكرهما، والتنويه بفضلهما، ولَفْت النفوس إليهما خاصة لتبدأ بإحرازهما، فتصلح بهما أعمالها كافة».

وكتب أستاذى د. شوقى ضيف فى كتابه: «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة» (دار المعارف/ 248) كلاما جميلا عن الصبر، وهأنذا أنقله هنا بشىء من التصرف. قال رحمه الله رحمة واسعة: «الصبر أقسام: صبر على أداء الطاعات وامتثال أوامر الله فيها مع ما يكون فى ذلك من بعض المشقة. وبجانب هذا الصبر صبر ثان عن ارتكاب المعاصى التى نهى الله عنها وشدد فى تحريمها وتوعَّد مرتكبها بالعقاب الأليم فى الآخرة. وصبر ثالث على ما ينزل بالمؤمن من مكروه أو يحلّ به من محنة وبلاء. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن صبرتَ مضى أمر الله وكنتَ مأجورا، وإن جَزِعْتَ فلم تصبر مضى ـ أمر الله ونَفَذ وكنتَ مأزورا. وقد يكون الصبر على المكروه والبلاء عن رضا وتقبل صادق للقضاء وحسن ظن بالله. وقد يكون عبادة لله بتجرع غصص المحنة والبلوى دون أى جزع ودون أى شكوى. وقدَّم الله الصبر على الصلاة أُم العبادات لمنزلته عنده، وهو إعزاز لأصحابه أنه مع الصابرين. ونَوَّهَ الله به مِرَارًا فى القرآن الكريم. وقال فى سورة «الزُّمَر»: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . ويقول الرسول: إن الله لم يعط أحدا عطاء خيرا وأوسع من الصبر. ويصور الله هذا العطاء فى آية سورة «الرعد» وما جاء فيها من أن أهل الجنة يُنَادَوْن: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ، فقد أثابهم ثوابا كبيرا بجنته لصبرهم على طاعته وصبرهم عن معصيته».

ولقد كان الرسـول مثلا رائعا للصـبر: كان يرعى الغنم فى البادية قريبا من مكة، والرعى حرفة تحتاج إلى صـبر طويل. ثم كان تاجرا يسـافر خارج البلاد فيصـبر على لأواء السفر فى الحر والبرد والغربة عن الأهل والوطن وملاحاة الشـارين والبائعين وعَرْض البضـائع ولَـمّها كل يوم على مدى شـهور طوال إلى أن يعود إلى بلده مرة أخرى فيرتاح من وعثاء الرحلة والاغتراب. كما كان متحنثا صـبورا، إذ كان يقضى الأيام والليالى ذوات العدد من كل عام وحيدا فى الغار فوق قمة الجبل بعيدا عن الناس والحياة يتفكر فى الملكوت وأحوال الدنيا صـائما متعبدا. كذلك كان عبقريا فى صـبره حين صـار رسـولا، فتحمل التكذيب والتشـكيك والأذى والسـخرية ومحاولات القتل: تحمل هذا كله من جانب المشركين، ومن جانب يهود، ومن جانب المنافقين، فضـلا عن الصـبر الذى كان عليه أن يصـبره فى توجيه المسـلمين وتعليمهم وتكرير ما يحمله إليهم من أوامرَ ونواهٍ وشرح ما يأتى به لهم من تشريـعات ثم تطبيقها بعد هذا، إلى جانب القيام بالقضـاء بين المتنازعين منهم. ومع هذا لم تلن له قناة أو يَعْتَرِه يأس أو يفكر فى الانسـحاب من تأدية المهمة الملقاة على عاتقه. ثم فوق هذا جميعه كان قائدا حربيا غاية فى الصـبر، فلم يؤثر عنه أنه تردد يوما أو تشـكك أو ارتاع أو تراجع أو حسـب حسـاب الآلام والجروح التى تصـيب الحروبُ بها مَنْ يخوض غمارها، أو القتل الذى يقف له مترصدا،

بل كان مثلا فى المضى- إلى غايته لا يرعوى عنها أبدا، مستعدا دائما للشهادة فى سبيل الله. وبالمثل كان زوجا صبورا مع نسائه سواء فى التعامل مع غيرتهن أو فى تحقيق العدل بينهن. وفضلا عن ذلك كان أبا صبورا. ويكفى أنه مات له عدة أبناء وبنات فى حياته فلم يجزع ولم يسخط ولم تصدر عنه كلمة واحدة تدل على الضيق بحادثات الحياة وتصاريف القدر. وكان الصحابة يسيرون على خطاه ويصبرون كما علّمهم وعوَّدهم، فلذلك فتحوا البلاد وسادوا الأرض فى غضون عقود قليلة، مما لم تعرفه الدنيا من قبل ولا من بعد، إذ صبروا على متاعب الجهاد والتغرب عن الأوطان والحرمان من الزوجة والولد شهورا طوالا والتضحية بالنفس والنفيس، كل ذلك لقاء الرغبة فى الفوز برضا الله وبما أعده سبحانه للمؤمنين من نعيم مقيم، فكانت ثمرة ذلك أَنْ فازوا بشرف الدنيا وثواب الآخرة وحازوا الرفعة فى الدارين، وسطَّر التاريخ أسماءهم وفِعَالهم بأحرف نورانية ساطعة فى صحائفه الغرّاء إلى أبد الآبدين.

يقول المولى جل شأنه فى فضيلة الصبر ورفعة شأن الصابرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[سورة البقرة].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الأنفال].

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة يونس].

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة هود].

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة هود].

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [سورة هود].

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرعد].

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الكهف].

﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة الفرقان].

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة الشورى].

ويقول الرسول الكريم صلوات الله وسلاماته عليه: «لا تَمَنَّوْا لقاء العدو. فإذا لقيتموهم فاصبروا».

«إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوضتُه منهما الجنة». يريد عينيه.

«عن أنس بن مالك: يقول لامرأة من أهله: تعرفين فلانة؟ قالت: نعم. قال: فإن النبي ﷺ مَرَّ بها وهي تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصـبري. فقالت: إليك عني، فإنك خلو من مصـيبتي. قال: فجاوزها ومضى، فمر بها رجل فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما عرفته. قال: إنه لرسول الله ﷺ. قال: فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بوابا، فقالت: يا رسول الله، والله ما عرفتك. فقال النبي ﷺ: إن الصبر عند أول صدمة».

«لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناسا: أعطى الأقرع مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أريدَ بهذه القسمة وجهُ الله. فقلت: لأخبرن النبي ﷺ. قال: رحم الله موسى! قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر».

« كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسـول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي ﷺ: «ارجع فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى. فَمُرْها فلْتَصْبِر ولْتَحْتَسِبْ». فأعادت الرسول أنها أقسمتْ لتأتينَّها، فقام النبي ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، فدُفِع الصبيُّ إليه، ونفسه تقعقع كأنها في شَنّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

«أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يَكُ في الجنة أَصْبِر وأَحْتَسِب، وإن تكن الأخرى تَرَ: ما أصنع؟ فقال: ويحك... أَوَجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جِنَانٌ كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس».

«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائعُ نفسه، فمُعْتِقها أو مُوبِقها».

«**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سَرّاءُ شكر، فكان خيرا له. وإن أصابته ضَرّاءُ** صبر، **فكان خيرا له**».

«شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنَيْنًا، فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام: «هذا من أهل النار». فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالا شديدا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت له آنفا: «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات. فقال النبي ﷺ: «إلى النار»، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدة! فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأُخْبِر النبي ﷺ بذلك فقال: الله أكبر! أشهد أني عبد الله ورسوله». ثم أمر بلالا فنادى في الناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

«كان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة، وأهلها أخلاط: منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

«من ابتُلِيَ بشيء من البنات (أى رزقه الله ببنات لا بأولاد ذكور) فصبر عليهن كن له حجابا من النار».

«سئل النبي ﷺ عن الإيمان قال: الصبر والسماحة».

«(عن عبد الله بن العباس:) كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. تعرَّفْ إليه في الرخاء يعرفك في الشدة. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. قد جف القلم بما هو كائن: فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه. وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه. فاعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا».

«إن الله كتب الغيرة على النساء، وكتب الجهاد على الرجال، فمن صبر منهن احتسابا كان له أجر شهيد».

«من تصبَّرَ يُصَبِّره الله».

«من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقةٌ عند الله عز وجل».

« هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: الفقراء المهاجرون الذين تُسَدّ بهم الثغور، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحَيُّوهم. فتقول الملائكة: ربنا، نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك. أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدوني، ولا يشركون بي شيئا، تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار».

«لأنا لفتنةِ السراء أَخْوَفُ عليكم من فتنة الضراء. إنكم ابتُلِيتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ».

«من وُعِكَ ليلةً فصبر ورضي بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كيومِ ولدته أمه».

«(عن عائشة:) سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فقال: كان عذابا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين. ما من عبد يكون في بلد يكون فيه، ويمكث فيه لا يخرج من البلد صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد».

«يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر».

«الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر».

«(قال عبد الله بن عمرو بن العاص:) يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو. فقال: يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا. يا عبد الله بن عمرو، على أي حال قاتلتَ أو قُتِلْتَ بعثك الله على تلك الحال».

«أربعٌ من أُعْطِيَهُنَّ فقد أُعْطِيَ خَيْرَيِ الدنيا والآخرة: قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لا تبغيه حُوبًا في نفسها وماله».

«عن عائشة رضي الله عنها قالت: من قدَّم من ولده ثلاثة صابرا محتسبا حجبوه بإذن الله تعالى من النار».

«لما كان يومُ أُحُد قُتِل من الأنصار أربعة وستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنُرْبِيَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعْرَف: لا قريش بعد اليوم. فنادى منادي رسول الله ﷺ: أَمِنَ الأسودُ والأبيضُ إلا فلانا وفلانا (ناسا سماهم)، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾. فقال رسول الله ﷺ: نَصْبِر ولا نعاقِب».

أما قوله ﷺ: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فلْيَصْبِرْ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية» فالذى أفهمه منه أنه عليه السلام لا يحب لكل من يعترض على شىء من أعمال الحكومة أن يقوم فى الحال فيخرج على السلطان، متصورا أن الدولة دولته هو وحده بحيث يكفى أن يغضب على قرار من القرارات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فى الدولة حتى يكون من حقه التصادم مع الحكومة. ذلك أن على المسلم التفرقة بين أمرين: موقفه هو الفردى، وموقف الغالبية من الشعب. فإن كان السخط عاما، والشعب كارها للحكومة وقراراتها و سيا ساتها ولا يرى فيها خيرا، فهذا شىء، أما السخط الشخصى فليس من حق صاحبه أن يتمرد على الدولة من أجله ويخرج عليها بالسلاح. إنها الفتنة! وهذا معنى نص الرسول فى الحديث عن مفارقة الجماعة.

ويســتطيع المعارض ، بدلا من ذلك، الكتابة أو الخطابة فى هذا الموضــوع وشرح وجهة نظره ومحاولة اســتقطاب الجماهير حول رأيه وإقناعهم به. أى أن بمســتطاعه خلق رأى عام من خلال توعية الناس لا جَرّهم فى التو واللحظة إلى صــدام مع الدولة على غرار ما يحدث فى بعض البلاد الإســلامية حيث ينتهى الأمر إلى إراقة الدماء وإحداث الخســائر فى الأموال والأرواح دون أية ثمرة بســبب تلك الرعونة المتسرعة. إننا لا ندافع عن الظلم والفساد الحكومى، لكننا ندعو إلى اتباع النظام فى عرض الرأى المضــاد وإقناع الناس به وصرفهم عن الســلبية والخنوع وحثهم على الوعى بحقوقهم والمطالبة بها والمنا ضلة من دونها حتى تتحقق كاملة. أما ترك الحبل على الغارب لكل ســاخط أو معترض، وإعطاؤه الحق فى التمرد على الدولة متى لم يعجبه شىء من أعمالها، فمعناه أن الدولة الإسـلامية سـتظل طول الوقت فى فتن لا تنقطع وحروب داخلية لا تتوقف لحظة من نهار أو ليل لأنه ما من قرار أو موقف تتخذه الحكومة إلا وهناك من الأفراد والجماعات من يتبرم به: عن حقٍّ أو ادعاءٍ.

وتقتضى قيمة الصـدق أن نتوقف عندها أيضـا كما فعلنا مع الصـبر، إذ هى قيمة شديدة الأهمية لا يمكن أن يقوم مجتمع سليم البنيان بدونها، ولا تستطيع أية حضارة أن ترتقى إلا بفضـلها. لنتصـور مثلا أن الصـدق انتفى من المجتمع، فما الذى يمكن أن يحدث؟ أولا لن يطمئن أحد إلى ما يقوله أحد،

ومن ثم لن يكون بمستطاع أى فرد فى ذلك المجتمع أن يقدم على عمل أى شيء، لأننا إذا ما أردنا أن نقدم على علم شـيء ما فلا بد أن نبنيه على معلومات توفرت لدينا. لكن أين نجد تلك المعلومات إذا كان كل ما نسمعه أو نقرؤه كاذبا؟ كيف نبنى عمارة إذا كان ما يقوله المقاول كاذبا، وما يكتبه المهندس فى تقريره كاذبا، وما يخبرنا به النجار والحداد كاذبا، وما ينبئنا به التاجر عن أسعار المواد البنائية كاذبا؟ وكيف يتعلم الطالب إذا كان ما يدرّسه له الأستاذ فى المدرسة أو فى الجامعة كاذبا، وكانت نتيجة الامتحان كاذبة، وما تقوله له الكتب التى يدرسها كاذبا؟ وكيف نطمئن، إذا ما أردنا السفر، إلى أن السيارة أو القطار أو الطيارة التى سنستقلها سوف تذهب فعلا إلى المكان الذى نريده، والذى قيل لنا من قِبَل المسؤولين فى المحطة أو فى المطار إنها ذاهبة إليه؟ وكيف نطمئن إلى ما قيل لنا من قِبَل فنيّى الصيانة من أنها سليمة وصالحة للطيران؟ وكيف نصدق أولادنا وزوجاتنا وآباءنا وجيراننا وحكوماتنا وزملاءنا وأصدقاءنا إذا كنا نعرف أنهم لا يقولون الحقيقة؟ ثم كيف نتصرف بناء على هذا الذى يقولون؟ إن الحياة، كما نرى، سوف تستحيل جحيما لا يطاق ولو لحظة، ويقف كل شيء فيها وتشلّ الدنيا كلها. والدول المتقدمة يسودها قول الصدق، فتزدهر فيها الحضارة ويطمئن الناس بعضهم لبعض ويرتبون أمورهم وقراراتهم على أساس متين لا على شفا جُرُفٍ هارٍ ينهار بما أُسِّس فوقه ولا يثبت أبدا.

أما الدول المتخلفة حضاريا فيسودها الكذب: الكذب فى القول، والكذب فى السلوك، ولا يطمئن أحد إلى ما يسمعه أو يقرؤه لأن الكلمة لم يعد لها معنى. وتكون النتيجة هى ما نعرف فى تلك الدول من تضييع الوقت والمال دون جدوى، وانتشار القلق والتوتر واحتراق الأعصاب واليأس. وعلى قدر انتشار الصدق أو الكذب فى أمة من الأمم يكون نصيبها من التقدم أو التخلف. على أن الصدق لا يعنى فقط قول الحقيقة، بل يمتد ليشمل صدق الفعل، أى وضع الشخص ما يدعو إليه أو يقوله موضع التنفيذ، فلا يكتفى بالكلام دون العمل، وإلا كان منافقا، والعياذ بالله.

ولقد كان المكيون يلقّبون النبى فى الجاهلية بـ«الأمين» لاشتهاره بالصدق والأمانة، إذ لم يجرّبوا عليه كذبةً أو خيانةً البتة. أما تكذيبهم إياه بعد نزول الوحى عليه فكان عنادا من بعضهم، وكبرا من بعضهم، وحسدا من بعضهم، وتمسكا بالوثنية من بعضهم. وفى كتاب «عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسِّيَر» لابن سيد الناس: «كان ﷺ يسمى: «الأمين» قبل النبوة لما عرفوا من أمانته وعدله. وعن الربيع بن خثيم: كان يُتَحَاكَم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام». وعلى كل حال فقد انقلب المكذبون بدعوته وآمنوا به بعدما كانوا يتهمونه بالكذب. وهذا أكبر برهان على أنهم، حين قالوا بكذبه، إنما كانوا هم الكاذبين. أما هو فحاشاه الكذب.

وفى القرآن الكريم كثيرا ما يتحدى الله الكافرين برسوله بأن يفعلوا كذا أو كذا إن كانوا صادقين فى كفرهم به، كما فى قوله تعالى عن كفار يهود فى المدينة: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ ﴾ [آل عمران: 183]، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ ﴾ [الجمعة: 6]، وقوله عز شأنه للمشركين: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله لهم فى موضع آخر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ ﴾ [الأعراف: 194]، ﴿ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤ ﴾ [النمل: 64]، ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤ ﴾ [الأحقاف: 4].

ولأهمية الصدق تكررت الآيات القرآنية التى تصف الله بالصدق، وله سبحانه وتعالى المثل الأعلى فى السماوات والأرض. وهذه هى: ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ ٩٥ ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ ١٥٢ ﴾ [آل عمران: 152]، ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧ ﴾ [النساء: 87]، ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ ﴾ [النساء: 122]،

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: 115]، ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنبياء: 9]، ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأحزاب: 22]، ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزُّمَر: 73- 74]، ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح: 37]، ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: 146].

والآن تعالَوْا إلى بعض ما قاله القرآن في هذا الباب لنرى مدى أهمية الصدق وسموّ مكانة الصادقين: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾[سورة المائدة].

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة المائدة].

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة التوبة].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة يونس].

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الإسراء].

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾ [سورة مريم].

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة الشعراء]. والكلام على لسان إبراهيم عليه السلام).

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة العنكبوت].

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾﴾ [سورة الأحزاب]﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾﴾. [سورة الأحزاب].

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[سورة الأحزاب].

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[سورة يس].

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الزُّمر].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[سورة القمر].

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة التوبة].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الحجرات].

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الحشر].

وفي السـنة النبوية المطهرة «أن رسـول الله ﷺ قال: بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشـون، إذ أصـابهم مطر، فأَوَوْا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضـهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصـدق، فلْيَدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَـدَق فيه. فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجيرٌ عَمِل لي على فِرْقٍ من أرز، فذهب وتركه، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أني اشتريت منه بقرا، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسُـقْها. فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز. فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق. فسـاقها. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشـيتك ففرِّجْ عنا. فانسـاحت عنهم الصـخرة. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم: كان لي أبوان شيخان كبيران،

فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي يتضــاغَوْن من الجوع، فكنت لا أسـقيهم حتى يشرـب أبواي، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما. فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشـيتك ففرِّجْ عنا. فانسـاحت عنهم الصـخرة حتى نظروا إلى السـماء. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأني راودتها عن نفسـها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتُها حتى قَدَرْتُ. فأتيت بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسـها. فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله، ولا تَفُضّ الخاتم إلا بحقه. فقمت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. ففرّج الله عنهم فخرجوا».

«عليكم بالصـدق، فإن الصـدق يهدي إلى البِرّ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَب عند الله صديقا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكْتَب عند الله كذابا».

«دع ما يَرِيبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة».

«لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امريء، ولا يجتمع الكذب والصـدق جميعا، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعا».

«(قال أبو بكر الصديق:) إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قام فينا عامَ أَوَّل فقال: ألا إنه لم يُقْسَم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين. ألا إن الصدق والبِرّ في الجنة. ألا إن الكذب والفجور في النار».

«لما فُتِحَتْ خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود. فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادِقِيَّ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ: كذبتم، بل أبوكم فلان. فقالوا: صَدَقْتَ وبَرَرْتَ. فقال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تَخْلُفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها. والله لا نخلفكم فيها أبدا. ثم قال لهم: فهل أنتم صادِقِيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سما؟ فقالوا: نعم. فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذابا نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك».

«سمع النبي ﷺ جلبة خصام عند بابه، فخرج عليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضًا أن يكون أبلغ من بعض. أقضي له بذلك، وأحسب أنه صادق. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار. فليأخذها أو ليدعها».

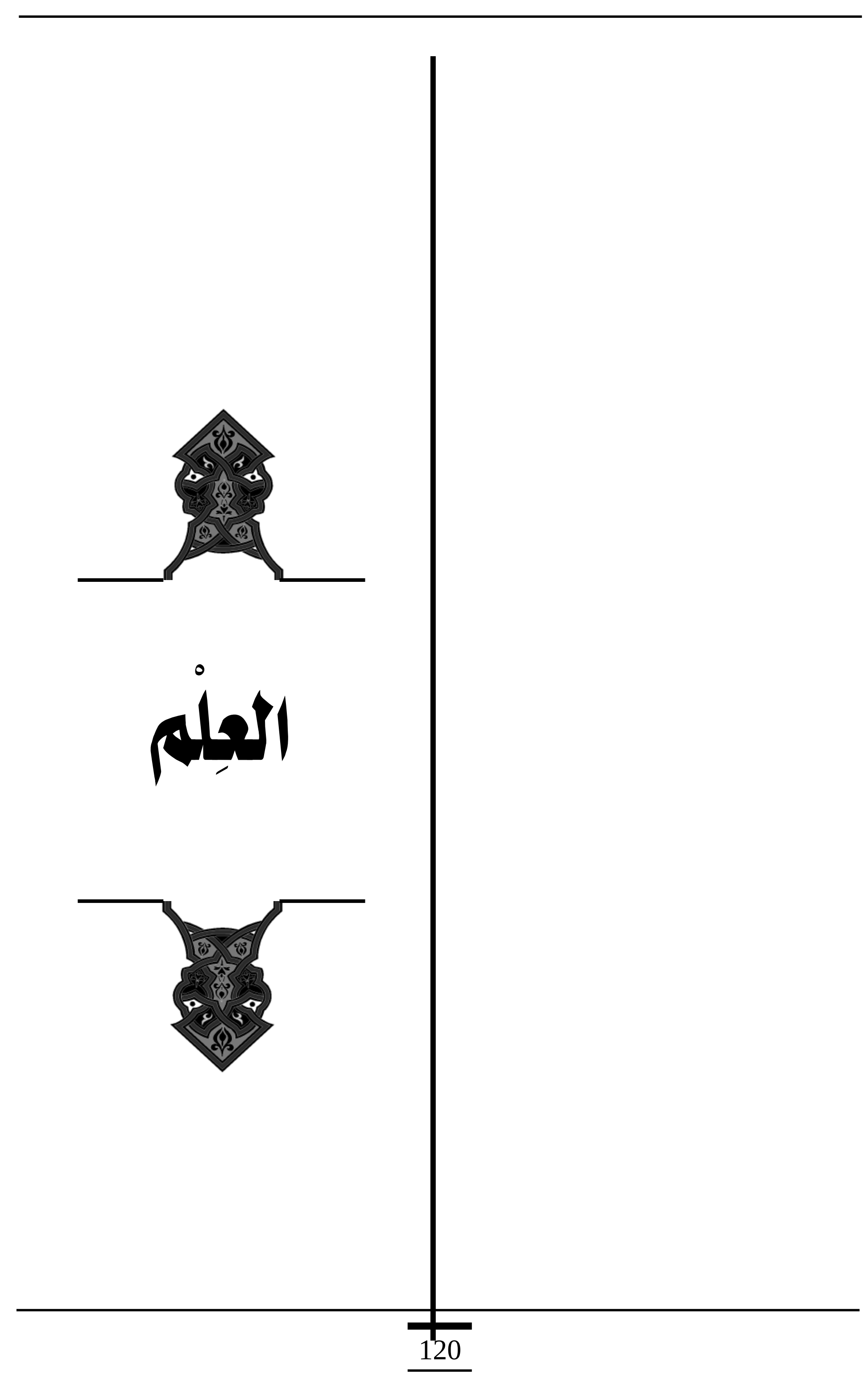
«من طلب الشهادة صادقا أُعْطِيَها، ولو لم تصبه».

«من مات وهو يشهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، صادقا من قلبه دخل الجنة».

«(عن عبد الله بن عمرو بن العاص:) قلنا: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم، واللسان الصادق. قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فماذا القلب المخموم؟ قال: هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد».

«إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، وأسألك لسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب».





العِلْم

العلم أحد عناصر الحضارة الرئيسية، وبدون العلم لا يمكن قيام حضارة. ذلك أنه ما من شىء تنجزه البشرية إلا ووراءه العلم: انظر إلى الطب والأدوية مثلا، فهل يمكن صناعة دواء أو آلة من آلات الكشف والعلاج أو أسلوب من أساليب إجراء العمليات الجراحية دون علم؟ بل إننا لو اقتصرنا على العلاجات الشعبية فهى أيضا علم، وإن كانت علما بدائيا. لكنها رغم ذلك علم. وانظر إلى الكاتوب أيضا، فهل يمكن إنتاج ذلك الجهاز وما يحتاجه من أقراص دون الاستعانة بالعلم؟ وهل يمكن صنع القطار أو الباخرة أو السيارة أو الطيارة أو سفينة الفضاء أو الصاروخ دن علم وعلماء؟ وقل مثل ذلك فى كل ما تشاهده حولك أو تسمع به أو تقرأ عنه من أدوات الحضارة واكتشافاتها. إننا لا نستطيع أن ننام أو نصحو أو نأكل أو نشرب أو نرفه عن أنفسنا أو نمشى أو نستريح أو نسافر أو نعود أو نقرأ أو نتحدث إلا بالعلم، ومن خلال العلم. ولا ريب أن الحضارة قد بدأت حين «تنبه الإنسان إلى أن له عقلا»، أى «قدرة على إدراك الأشياء وفهمها والربط بين الظواهر بعضها ببعض» (د. حسين مؤنس/ الحضارة/ 15). ولولا العقل لظل الإنسان على فطرته الأولى أبد الدهر لا يتغير مثلما لا يتغير الحيوان فى أساليبه وطريقة عيشه مهما مرت عليه الحقب والدهور، إذ يخضع فى تلك الحالة لغرائزه،

والغرائز ثابتة لا يعتريها تطور، ومن ثم لا تنشــئ حضــارة، لأن الحضــارة هى التوثب على طريق الحياة نحو الأفق البعيد، ذلك الأفق الذى لا يمكن بلوغه أبدا رغم كل شــىء. وهذا التوثب يســتلزم الحركة والاســكتشــاف والمرونة والتطور والبحث عن حلول للمشاكل التى تقابل الإنسان فى رحلته هذه. وكل ذلك لا بد له من عقل وعلم.

ولقد كانت حاجة البشرــ إلى العلم موجودة على الدوام منذ فتح آدم عينيه على الدنيا وســار فوقها أولى خطواته. كل ما هنالك أن الناس تظن أن العلم لا بد أن يكون مسجلا فى الكتب، وإلا لم يكن علما. صحيح أن هذا هو الحادث الآن، لكنه لم يكن موجودا فى بدايات التاريخ حيث كان العلم يحصَّــل فطريا دون مدارس أو كتب، بل من خلال الملاحظة الشخصية وتناقُلها شفويا، وتشرُّبها عمليا. لكن العلم الآن قد أصــبح معقدا غاية التعقيد، ويحتاج إلى أن يفنى الإنســان عمره فى تحصــيل بعض من قطراته. وتزداد المســألة صــعوبة حين ننظر فنرى أن الغرب قد ســبقَنا بأشواطٍ جِدٍّ طويلة، وأننا ما زلنا نحبو فى هذا الميدان. وتَشْنُع الأمور عندما نعى أننا لم نعد نهتم بالعلم اهتماما حقيقيا، فى الوقت الذى يضرــبنا فيه الغرب بالأســلحة النووية، والأسـلحة النووية علم ويخطط لتقسـيم بلادنا ومحو ديننا وانتزاع الدنيا من أيدينا بالعلم. بل لقد انتقل من مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ.

وكثير من الناس حول العالم يظنون أن الإســلام لا صــلة بينه وبين العلم، إن لم يظنوا أنه يعادى العلم ويؤثر الجهل... إلى آخر تلك الأخطاء السخيفة التى أرى أننا نحن المسـؤولون عنها بكراهيتنا الحالية للتحصـيل العلمى ونفورنا من أن يكون لنا أى دور فى ميدان الاختراعات والإبداعات، هذا النفور وتلك الكراهية اللذين يدينهما الإسلام قبل غيره.

والواقع أننا لو ذهبنا نتتبع آيات القرآن وأحاديث الرسول فى هذا الصدد فسوف نجد عجبا: ففى القرآن الكريم إلحاح على أن العلم نعمة إلهية أفاضها الله على البشر كما فى قوله تعالى فى أول نزول القرآن: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العَلَق: ٥]، وقوله سبحانه عن آدم عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨]، وقوله سبحانه عن العبد الصالح في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف: ٦٥]، وقوله جل شأنه عن داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقوله جَلَّ وتبارك عن رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[النساء: ١١٣]، وقوله عز شأنه في خطاب المؤمنين: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾. وهو ما يعنى أن العلم نعمة من الله سبحانه أنعم بها على عباده من البشر.

كذلك يعلي القرآن الكريم من شأن الحكمة ويعدّها خيرا كثيرا: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ولا يسوّي بين العلماء والذين لا يعلمون: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:9] والله سبحانه يرفع المؤمنين الذين أوتوا العِلْمَ درجات عالية لا يرقى إليها غيرهم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة: ١١].

وعلى سبيل المقارنة التى من شأنها إبراز مزايا الشىء بو ضوح نحب أن نقف فى الكتاب المقدس أمام النصوص الآتية: ففى سفر «الجامعة» مثلا نجد أن معرفة الحكمة، مثلها مثل معرفة الحماقة والجهل، هي قبض الريح، وأن «في كثرة الحكمة كثرة الغم. والذي يزيد علما يزيد حزنا». ومن هنا فإن «الدرس الكثير تعب للجسد». كذلك يؤكد بولس أن الله «مُرْجِع الحكماء إلى الوراء ومجهِّل معرفتهم»، وأنه قد جهَّل «حكمة هذا العالم»، وأنه قد«اختار... جُهّال العالم ليُخْزِي الحكماء» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس/ ١/ ٢٠، ٢٧)، وأن «حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله»، «وأيضا الرب يَعْلَم أفكار الحكماء باطلة». وعلى هذا فـ«إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فَلْيَصِرْ جاهلا لكي يصير حكيما» (رسالة يوحنا الأولى / ٢/ ٢٠، ٢٧).

ولا يقف الأمر بالنسبة إلى العلم فى الإسلام عند هذا الحد، بل له أبعاد أخرى: ففى القرآن، حين يبدى الملائكة استغرابهم لما قاله سبحانه لهم من أنه سوف يجعل فى الأرض خليفة هو الإنسان، إذ أدهشهم أن يخلق الله خليفة سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء فى الوقت الذى يسبحون هم بحمد الله ويقدسون له، نجده سبحانه يلفت نظرهم إلى جانب آخر من تكوين الجنس البشرى لم يتنبه له الملائكة. وهذا الجانب هو العقل والمقدرة على تحصيل العلم، وهو ما لا تستطيعه الملائكة. إذ لم يخلقهم الله قابلين للتطور والاجتهاد وتحصيل المعرفة، بل يقوم كيانهم على توجيه الله لكل منهم نحو ناحية معينة منذ الأزل لا يخرج عنها.

يقول عز شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 30– 33]. وليس معنى تعليم الله آدم الأسماء كلها أنه سبحانه قد أطلعه على الإجابة، فى حين أخفاها عن الملائكة، وإلا كان هذا تحيزا وظلما تعالى الله عنه علوا كبيرا،

بل المعنى، حسبما أفهم، هو أن الجنس البشرى، أو إن شئت فقل: آدم، مخلوق يتسم بالمرونة والمقدرة على التطور والترقى من حال إلى حال واكتساب ما كان يجهله من معرفة. أما الملائكة فقد خُلِقَتْ على نحو لا يقبل التطور من حال إلى حال، بل أُسْنِدَتْ إلى كل منهم منذ الأزل مهمة يؤديها على نحو مخصوص لا تغير فيه، ولا يؤدى سواها، ولا يُتَصَوَّر أن يهملها أبدا: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6]، ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: 27].

ولعلنا نجد فى الحديث التالى ما يشـير إلى ذلك. قال أنس بن مالك: «كنت مع النبي ﷺ جالسا في الحلقة، إذ جاء رجل فسلم على النبي ﷺ والقوم فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فردَّ النبي ﷺ عليه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فلما جلس الرجل قال: الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا أن يُحْمَد وينبغي له. فقال له رسول الله ﷺ: كيف قلت؟ فردّ عليه كما قال، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لقد ابتدرها عشرة أملاكٍ كلهم حريص على أن يكتبها، فما دَرَوْا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذي العزة، فقال: اكتبوها كما قال عبدي». فمن الممكن أن تكون هذه إشارة إلى ما قلناه من أن الملائكة تم توجيه كل منهم إلى مهمة معينة لا يعدوها. وعلى هذا فحين قال الرجل شيئا لم يكن يقال فى هذا الموقف تحير الملائكة فلم يعرفوا كيف يكتبون العبارة، إلى أن أمرهم الله عز و جل أن يكتبوها كما هى، وليتركوا الأمر له سبحانه يقدّره كما يشاء.

فالله سبحانه حين لفت انتباه الملائكة إلى تعلم آدم الأسماء كلها إنما أراد أن يباهى ملائكته بالجنس البشرى، ذلك الجنس الذى زوده عز شأنه بمواهب ليست موجودة لديهم. ومن الواضح أن الملائكة قد وعت الدرس، فها هى ذى تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع طبقا لما جاء فى الحديث الشريف التالى: «مَنْ سَلَكَ طريقا يطلب فيه علما سَلَكَ الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالِمَ ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما، إنما ورَّثوا العلم، فمَنْ أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ».

فإذا نظرنا فى العهد القديم لنرى موقف السماء من مقدرة الجنس البشرى على اكتساب المعرفة وجدنا فى الإصحاحين الثانى والثالث من سِفْر «التكوين» أنه سبحانه وتعالى قد اغتاظ حين رأى آدم يعرف الخير من الشر وحَقَدَ عليه وعاقبه بطرده من الجنة. أى أنه قد عاقبه على ما يحبه إله الإسلام من البشر ويجازيه عليهم الجنة. يقول كاتب سفر «التكوين»: «[15]وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. [16]وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، [17]وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ». [18]وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ». [19]وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. [20]فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. [21]فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. [22]وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. [23]فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». [24]لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. [25]وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ.

[1]وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» [2]فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، [3]وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». [4]فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! [5]بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». [6]فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. [7]فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ.

[8]وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. [9]فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». [10]فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». [11]فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» [12]فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». [13]فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ». [14]فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. [15]وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». [16]وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». [17]وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. [18]وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. [19]بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». [20]وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ»

لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. [21]وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. [22]وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». [23]فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. [24]فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ».

وبالإضافة إلى ذلك توجد فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (1/ 25) إشارة إلى «جهالة الله» و«ضعف الله»، إذ يؤكد أن «جَهَالَةَ الله أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ الله أَقْوَى مِنَ النَّاسِ!». كما يخلو الكتاب المقدس من الدعوة إلى التفكير واستخدام العقل والتأمل في أحوال الأمم ومظاهر الطبيعة والتثبت من كل رأي أو فكرة قبل اعتناقها، وذلك على عكس الإسلام، الذي يذكر جورج تاو سند مؤلف كتاب «Christ et Bahá'u'llah» أن من بين خصائصه التي تميزه «حرية الفكر والتوافق بين الدين والعلم»، مؤكدا أن العرب كانوا سادة الدنيا في وقتهم في العلوم التجريبية :

George Townshend, Christ et Bahâ'ullâh, Maison d'Editions Bahâ'ies, Bruxelles, 1968, P. 41, 59.

ولأهمية العلم والمعرفة فى الإسلام نجد القرآن يشدد على عقاب من يرتكب الإثم عالما أنه إثم، وليس عن ضعف طارئ لم يستطع أن يتحاشاه. لقد ذم اليهودَ مثلا ذما شديدا لإقدامهم على تحريف الوحي مع علمهم أن هذا إثم فاحش، إذ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٧٥]، وينذرهم قائلا:﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٤٢]. كما نجده يحذر المؤمنين من الإشراك بالله بعدما علموا أن التوحيد حق: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]، ويخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام على سبيل ضرب المثل قائلا: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة: ١٢٠]﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[لبقرة: ١٤٥].

وقد فهم المرحوم الشيخ شلتوت من قوله تعالى:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥] أن من لن يعلم بالحق بمعنى أنه لم يَبْلُغْه أو بَلَغه وعَلِم به ولكن على نحو محرَّف، أو علم به على وجهه الصحيح ولكنه لم يستطع الاقتناع به رغم أنه لم يقصِّر في ذلك على مدى عمره فهذا لا يناله الوعيد الإلهي بالإصلاء في جنهم (انظر الشيخ محمود شلتوت/ تفسير القرآن الكريم- الأجزاء العشرة الأولى/ ط2/ دار القلم/ القاهرة/ ٢٣٦- ٢٣٧). ومثله قول الشيخ محمد عبده

إن الإسلام يجعل من النظر العقلي وسيلة الإيمان الصحيح حتى لقد قال قائلون من أهل السنة: «إن الذي يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبًا غير واقف عند الظن فهو ناج» (الشيخ محمد عبده/ الإسلام بين العلم والمدنية/ كتاب الهلال / عدد ٣٨٥/ يناير ١٩٨٣/ ١١٨-١١٩. وانظر أيضا كتابه: «رسالة التوحيد»/ كتاب الهلال/ عدد ٣٥٥/ يوليه ١٩٨٠/ ١٨- ١٩). ومن هذا كله نرى أن العلم هو أساس المسؤولية، وأنه لا مسؤولية بلا علم، على أن يكون مفهوما طبعا أن العلم والسعي إليه هو واجب كل مسلم ومسلمة.

ولكن قبل أن نبحث عن الآيات المتصلة بهذا الموضوع علينا أن نعرف معنى «التفكير العلمي» ونُلِمّ بخصائصه إلماما سريعا لنرى إلى أى مدى يحرص القرآن على العلم ويعمل على أن يربى أتباعه على النظرة العلمية. يقول د. توفيق الطويل: «يُنْسَب التفكير العلمي إلى المشتغلين بالعلم الطبيعي. ويراد اليوم بالعلم الطبيعي كل دراسة تصطنعُ منهج الملاحظةَ الحسية، والتجربةَ العلمية إن كانت ممكنة، وتتناولُ الظواهر الجزئية في عالم الحس، وتستهدفُ وضع قوانين لتفسيرها بالكشف عن العلاقات التي تربط بينها وبين غيرها من الظواهر وصياغة هذه القوانين في رموز رياضية، وذلك للسيطرة على الطبيعة والإفادة من مواردها وتسخيرها ظواهرها لخدمة الإنسان في حياته الدنيا» (د. توفيق الطويل/ في تراثنا العربي والإسلامي/ عالم المعرفة/ عدد ٨٧/ مارس ١٩٨/ ٧- ٨).

ويتناول د. توفيق الطويل القول في خصائص التفكير العلمي، التي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

١-البدء بتطهير العقل من معلوماته السابقة.

2-الملاحظة الحسية كمصدر وحيد للحقائق.

٣-نزوع العلم الحديث إلى التكميم.

٤، ٥-موضوعية البحث ونزاهة الباحث.

٦-الاعتقاد في مبدأ الحتمية.

٧-توافر الثقافة الواسعة للعلماء(المرجع السابق/ 9، 14، 42، 47، 52).

ولا يخرج عن ذلك ما قاله د. أحمد زكي من أن «العلم مؤسس على التجربة يجريها العالم ويَرْقُم نتائجها، وعلى الملاحظة يأتيها ويرصد نتائجها، ثم هو يعمل عقله في هذه النتائج من بعد ذلك» (د. أحمد زكي/ مع الله في السماء/ كتاب الهلال/ عدد ٣١١/ نوفمبر ١٩٧/ ١٩). ويشير همايون كبير إلى أهمية الإيمان باتساق الطبيعة واطراد قوانينها والإيمان بقيمة الوحدات الفردية وأهمية ملاحظتها في مجال العلم وتطوره (همايون كبير/ العلم والديمقراطية والإسلام/ ترجمة عثمان نويه/ دار الهلال/ ٩- ١٣، ١٩- ٢٠). وهكذا يتبين لنا أن المنهج العلمي يقوم على الإيمان بأن العلم محيط لا ساحل له، وأن وسائل الإنسان إلى تحصيل العلم هي حواسه وعقله، التي ينبغي أن تكون مفتوحة ويقظة دائما للطبيعة وظواهرها من حوله كي يتسنى له استخلاص القوانين التي تحكمها بعد التثبت من كل ما يلاحظه ويستنبطه.

وفي القرآن آيات كثيرة تبرز سعة آفاق العلم وعدم انتهائها عند حد، كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]، ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]، ثم هذه الآية التي يأمر فيها العليم الحكيم رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام أنْ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: 114]. إن هذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يأمر فيها الله رسوله أن يستزيد من شيء. ولنلاحظ أن المأمور بذلك هو محمد، الذي كان يتنزل عليه الوحي صباح مساء. وعندنا كذلك هذه الآية التي يسوي فيها القرآن بين الجهاد في سبيل الله وطلب العلم، إذ يسمي كلا منهما: «نَفْرًا»، والتي يحض فيها المؤمنين أن يبقى من كل فرقة منهم طائفة مع الرسول في المدينة حين لا يخرج للغزو مع الجيش من أجل أن تتفقه هذه الطائفة في الدين: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. صحيح أن العلم هنا هو العلم الديني، بيد أنه ينبغي ألا يفوتنا أن هذا هو المجال العلمي الوحيد الذي كان يتتابع فيه ظهور الجديد كل يوم، وأحيانا كثيرة في مدى زمني أقصر من ذلك، على

عكس ما يسمى الآن بالعلوم التجريبية، التي كانت معارف العرب فيها في ذلك الحين مجرد شظايا بدائية ساكنة لا يلحقها تطور أو تجديد. والعبرة على كل حال بمبدإ التخصص وتهيئة الدولة المناخ المناسب لعكوف العالم على علمه وتشجيعه بل حثه على ذلك.

كذلك ما أكثر الآيات القرآنية التي تتحدث عن نعم السمع والبصر والعقل وتمن بها على العباد بما يدل على جلالة وظيفتها: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة :٩] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المُلْك: ٢٣]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وما أكثر أيضا الآيات التي تحض على النظر والتأمل في الملكوت ووقائع التاريخ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عَبَسَ: ٢٤ – ٣١]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥– ٨]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٦- ٧]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠]، ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾[العنكبوت: ٢٠].

وهناك مواضع أخرى يعنّف فيها القرآن من لا يستخدمون حواسهم وعقولهم تعنيفا شديدا لدرجة أنه يهبط بهم إلى ما دون مرتبة العجماوات. قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

والإنسان في القرآن مطالب بالتفكير قبل أن يؤمن أو يكفر حتى يكون إيمانه أو كفره عن بينة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ: ٤٦]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ [الروم: ٣٠]، ومطالب كذلك بالتفكير بعد الإيمان، إذ من صفات المؤمنين أنهم هم﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾آل عمران: ١٩١].

وفي مجال التثبت نجد القرآن يحذر دائما من الوقوف عند الظن، إذ لا بد من العلم اليقيني: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]. بل يبلغ موقف القرآن من الظن وعدم الاعتداد به الحد الذي يدعو عنده إلى اجتناب الكثير من الظن لأن بعضه إثم، فهو حَذَرَ الوقوع في القليل غير المتعين ينبذ الكثير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٨]. ولا يقف التثبت في القرآن عند اطِّراح الظن، بل لا بد من البرهان: «فقلنا (أي قال المولى سبحانه): ﴿هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥]، ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ (أي برهان قاطع) [يونس: ٦٨]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[الأنعام: ١٤٨]، ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤].

وعلى الإنسان أن يرجع فيما يجهله إلى أهل الاختصاص: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣]، [والأنبياء: ٧].

ولا يصح في مجال العلم الاعتداد بالآراء المتوارَثة لمجرد شيوعها وترديد الأجيال لها. ومن هنا كانت حملة القرآن شعواء على المقلدين لأسلافهم: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[البقرة: ١٧٠]، ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[المائدة: ١٠٤]، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا ﴾[الأعراف: ٢٨]، ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا ﴾[يونس: ٧٨]، ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[لقمان: ٢١]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٣]. وكما يقول الشيخ محمود شلتوت فـ«قد ارتفع القرآن بالعقل وسجل أن إهماله فى الدنيا سيكون سببا فى عذاب الآخرة، فقال حكايةً لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق والعمل به: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك: 10] (محمود شلتوت/ من توجيهات الإسلام/ ط8/ دار الشروق/ 1424هـ- 2004م/ 116).

وبالنسبة للنظام الكوني وما يجري عليه من قوانين مطردة هناك هذه الآيات التي تتحدث عن السُّنّة والتقدير والقَدَر والوَزْن والميزان، وهي كلها ألفاظ تعني ما يعنيه مصطلح «قوانين الطبيعة» أو «القوانين الكونية». ففي مجال التاريخ والحضارة وطباع البشر وانهيار الأمم نقرأ هذه الآيات: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

(أي الكفار لكفرهم وإجرامهم) [الأنفال: ٣٨]، ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧]، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، «﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:62] و[الفتح: ٢٣]، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]، [آل عمران:١٣٧]، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٦].

أما الآيات التالية فهي تتحدث عن القانون في مجال الظواهر الطبيعية: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ [يونس: ٥]، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحِجْر: ٢١]، ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون:١٨]، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (أي ماء الإنسان) [المرسلات: ٢١- ٢٢]، ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحِجْر: ١٩]، ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٧- ٨].

كذلك ينبغى التنبه إلى أن معظم الآيات والأحاديث التى تحض على العلم وترفع من شـأنه لا تحصره فى ميدان العلم الدينى، بل تطلق القول إطلاقا مما يدل على أن العلم فى الإسلام لا يقتصر على العلم الدينى وحده. ويؤكد هذا ما أشار إليه الأمير شكيب أرسلان من أن فى القرآن آيات متعددة تحث على السير فى الأرض والنظر والتأمل فى السحاب والجبال و ما إلى هذا، وهو ما يشير إلى أن الأمر مفتوح المصاريع، وليس خاصا بلون واحد من ألوان العلم. كما أن قوله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو فى الصين» يقطع بأن العلم هنا هو العلم الدنيوى لأن أهل الصين فى ذلك الوقت كانوا وثنيين، ومن ثم فليس من المعقول أن يجعلهم النبى عليه السلام مرجعا فى العلم الدينى (انظر شكيب أرسلان/ لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟/ تقديم محمد رشيد رضا/ دار البشير/ القاهرة/ 1985م/ 136- 137).

بعد هذا كله يستغرب الإنسان كيف يجرؤ جورج مارشال مؤلف «Promotion de l'Islam» على الزعم بأن الحضارة الإسلامية هي نتاج غير طبيعي لشخصية محمد وطبيعة الإسلام، لأن الرسول (كما يقول) كان أميا، والإسلام (في نظر ذلك المستشرق) لا يهتم إلا بالحياة الآخرة، فكيف تكون النتيجة إذن هي هذه الحضارة الإسلامية المزدهرة التي تعلمت منها أوربا؟ والإجابة عنده هي أن الإسلام قد ورث ثقافة الإغريق والبيزنطيين والفُرْس:

Georges Marchal, Promotion de l'Islam, Berget Leuault, Paris, 1957, pp. 40- 41, 50- 51 .

وهو يتهم الإسلام بفقدان قُوَى الأصالة والإبداع التي يتطلبها قيام الحضارة (المرجع السابق/ ٤١، ٥٢)، ويؤكد أن من بين ما يحتاجه من الغرب اقتباس المنهج التجريبي والروح التحليلية والعقلية الناقدة (السابق/ ٥٦). ولكن سرعان ما يزول استغراب الإنسان لهذه المزاعم حين يعرف أن صاحبها رجل دين، فرجال الدين من المستشرقين هم أسخفهم عقلا وأعماهم تعصبا وأضيقهم أفقا وأجرؤهم على الكذب إلا قليلا منهم. والسؤال هو: ترى لو أن القرآن والرسول لم يحضا على المجد والتفوق في الدنيا وطلب العلم واتباع مبادئ المنهج العلمي المؤسسة على اليقين والتثبت والتساؤل وتقليب النظر والملاحظة واستقراء القانون أكانت هذه الثقافات التي ورثها المسلمون تؤدي في أيديهم إلى شيء؟ لقد كان هذا التراث بين أيدي الأوربيين في ذات الوقت، فكيف لم يستفيدوا منه مجرد استفادة، ولا أقول: ينتقدوه ويضيفوا إليه ويطوروه ويصبغوه بشخصيتهم وعبقريتهم كما فعل المسلمون؟

ولو نظرنا فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام لنرى موقفه العملى من العلم فلسوف نقف ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمِّىّ، عقب الانتصار فى غزوة بدر مثلا حين وقع فى يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش، إذ عرض عليهم سيدنا رسول الله ﷺ أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة. وقد كان هذا الصنيع نقطة الانطلاق إلى نشر التعليم بين المسلمين، إذ كان عدد القارئين والكاتبين فى المجتمع الجاهلى جِدَّ ضئيلٍ كما هو معروف. وجدير بنا أن نتوقف نحن بدورنا إزاء هذا العمل العبقرى من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك العمل الذى كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، فضلا عن إلحاحه ﷺ على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء.

ووجه العبرة فى هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم فى الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها وقَضَوْا عليها وأَضْحَوُا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر فى العالم آنذاك رغم ضعف الإمكانات. إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان ولم يخصص الميزانيات ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض، إذ كان ذلك صعب التنفيذ فى تلك الظروف إن لم يكن مستحيله، بل اكتفى بالمتاح بين يديه، وهو أقل من القليل. ومع ذلك فإن هذا القليل الذى يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة،

وهى ثمار لا يمكن المقارنة بينها وبين ما تحقق من نتائج فى ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التى بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانات الهائلة التى لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها. لقد كانوا يتلقَّوْن تعليمهم مثلا فى المسجد، والمساجد لا تكلف الدولة شيئا يذكر. ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من الخارج بالعملة الصعبة، بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه «شيئا وشويّات». لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم اخترع هذا الحل العبقرى الذى أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئا على الإطلاق.

ولقد قرأت فى لندن عام 1982م كتابا بعنوان «Muhammad and Learning» للبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن دور الرسول الكريم فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل مثله يعتزى إلى أمةٍ باديةٍ أُمِّيّةٍ تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب،

الذى يؤكد أنه سـيظل إلى الأبد وصـمة عار فى جبين من اجترحوه، وكذلك فى جبين الكنيسـة لارتضـائها ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس محمد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وسـاواه فى الفضـل بالاسـتشـهاد فى سـبيل الله، بل فضّـل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُـل به البدرُ سـائرَ الكواكب. وفى ضـوء هذا يمكننا أن نقدر صـنيع العقاد حق قدره حين أكد أن «التفكير فريضـة إسـلامية»، بل جعل هذه العبارة عنوانا لواحد من أهم كتبه فى مجال الدراسـات الإسـلامية. وإذا كنت نادما الآن على شـىء فعلى أنى لم أصـور الكتاب وأترجمه. لقد عَهِدْتُ إلى زوجتى أن تقوم بترجمته، ولم تكذّب خبرا فترجمتْ فصـلين أو ثلاثة، لكنها توقفت، إذ كنا نسـتعد للعودة إلى مصر بعد حصولى على الدكتورية من جامعة أوكسفورد آنذاك، ثم ضاع ما كانت قد ترجمتْه لا أدرى أين، ولا كيف! إلا أن الله سـبحانه قد وضـع يدى، وأنا أكتب هذه السـطور، على صـفحاتٍ من ذلك الكتاب متاحةٍ فى كتاب آخر وجدته على المشـباك عنوانـه: « Glimpses from the Life of the Prophet Muhammad» لبعض العلماء البارزين Eminent Scholars, Glimpses from the Life of the Prophet Muhammad, England, PP. 102-112.

فله سبحانه وتعالى الحمدُ والمنَّةُ كفاءَ هذه النعمة الجليلة.

وننتقل الآن إلى الحديث الشريف، ونسوق منه النصوص التالية، وهى كلها نصوص عجيبة فريدة لا نظير لها فى أى دين أو مذهب أو فلسفة:

«ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رِضًا بما يصنع».

«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

«طلب العلم فريضة على كل مسلم».

«منهومان لا يقضي أحدهما نهمته: منهوم في طلب العلم لا يقضي نهمته، ومنهوم في طلب المال لا يقضي نهمته».

«اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

«طلب العلم فريضة على كل مسلم. وإنّ طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر».

«إن الله عز وجل أوحى إليَّ أنه من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريق الجنة».

«من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما. ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

«فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

«خيار أمتي علماؤها، وخيار علمائها رحماؤها. ألا وإن الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا. ألا وإن العالم الرحيم ليجيء يوم القيامة وإن لنوره ضوءا يمشي فيه ما بين المشرق والمغرب».

«ذُكِر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. ثم قال رسول الله ﷺ: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليُصَلُّون على معلِّم الناس الخير».

«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصـــاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر».

«من كانت له جارية فأحسن أدبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان».

ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام كان حريصا تمام الحرص فى ذات الوقت على القضاء على منابع الخرافة والدجل والأساطير، فقد حرّم السحر تحريما قاطعا ولم يتساهل فيه أى قدر من التساهل، وكان حربا شعواء على الكهانة والعيافة والزجر وما شابه ذلك من ضروب الانحراف الفكرى والعقيدى. وفى القرآن نفىٌ قاطعٌ لما كان المشركون يزعمونه بالكذب والباطل عن الرسول عليه السلام من أنه كاهن. ذلك أن الكهانة خرافة وانحطاط فكرى وحضارى، أما نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فدعوة إلى اليقظة العقلية والإبداعات العلمية والعمل على إحراز المجد فى الدنيا عن طريق العلم وإكرام العلماء والاستعانة بأفكارهم واجتهاداتهم. وأين الكهانة من هذا؟ إنها هى التخلف ذاته، إذ هى الجهل مجسدا. يقول المولى جل جلاله: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾[الطور: 29]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحاقة: 40 - 43].

وها هى ذى بعض النصــوص الحديثية التى تناولت هذا الموضــوع. وهى، كما سـيرى القارئ، تتشــدد فى هذاالموضــوع تشــددا قد يبدو غريبا عند من لا يتنبه إلى الموضــع البارز الذى يحتله العلم فى دين محمد، وأن الإســلام هو دين العقل والعلم ويكره الخرافة والجهل كراهية رهيبة:

«العيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت». والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يُخَطّ في الأرض. والجبت: الشيطان.

«من أتى عرّافا فسأله عن شيء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة».

«من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسـأله فصـدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على محمد».

«أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْي المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم».

على أن الأمر لا يقف عند هذه النقطة، بل إن الإســلام ليربط بين الفتن المبيرة وبين الجهل حتى ليقول الرسـول عليه الصـلاة والسـلام مثلا: «إن بين يدي السـاعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويُرْفَع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْج». والهرج: القتل. كما ورد عنه ﷺ أن العمل مع الجهل ليس له جدوى مهما كثر، على العكس مما لو كان العمل قليلا، والعلم كثيرا: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فقال: يا رســول الله، أي الأعمال أفضــل؟ قال: «العلم بالله عز وجل». قال: يا ر سول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم بالله». قال: يا ر سول الله، أ سألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رســول الله ﷺ: «إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل».

ومن أقواله ﷺ ذلك الحديث العجيب الذى يعكس معرفة تامة بأبعاد العلم والجهل والثمار الخطيرة التى تترتب على كل منهما. قال عليه الســلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسُـئِلوا فأَفْتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا». ومن المهم جدا أن ننبه إلى أن العلم هنا ليس مقصورا على الفقه والتوحيد وما شابه، بل هو مطلق، فالرسول الكريم لم يحدده بل تركه مفتوح الأبواب. صحيح أن كلمة «أَفْتَوْا» ترتبط فى أذهان كثير من المسلمين بالفتيا فى الدين، إلا أن هذا بدوره تضييق دون أى داع. فالفتيا فى الأصل هى إصدار حكم أو رأى فى مسألة ما. ولعل الحديث التالى يصــح أن يكون شــاهدا على ما أقول، فالعلم فيه مضــاف إلى الدنيا، والجهل منسوب إلى الآخرة، مما يدل على أن العلم والجهل مفتوحان فى الإسلام: فقد يكونان للدنيا، وقد يكونان للآخرة، ولا تخصــص لأى منهما بأى منهما. وهذا هو الحديث: «إن الله يبغض كل جعظريٍّ جواظ ســخّاب في الأســواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بالدنيا جاهل بالآخرة».

وهذا الذى أقوله عن انفتاح العلم فى الإسلام وعدم اقتصاره على الفقه والعقيدة وما أشبه ليس رأيى وحدى، بل يقوله كبار علماء الدين أمثال الشيخ محمود شلتوت رضى الله عنه، الذى أكد، فى كتابه: «من توجيهات الإســلام»، أن القرآن يطلب من المسلم القراءة فى كل المجالات دون التقيد بعلم معين، مثلما يطلب منه السعى وراء تحصيل العلم بإطلاق دون تخصيصه بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام كما قد يظن الناس، إذ العلم فى نظر الإســلام «هو كل إدراك يفيد الإنســان توفيقا فى القيام بمهمته العظمى التى ألقيت على كاهله منذ قُدِّر خَلْقُه وجُعِل خليفةً فى الأرض، وهى عمارتها واستخراج كنوزها وإظهار أسرار الله فيها». ولهذا فالعلم فى القرآن يشمل مثلا علوم النبات والحيوان والاقتصاد والصناعة والطب والحرب... إلخ. أى أن العلم فى الإســلام هو العلم الشــامل المطلق الذى يغطى كل ميدان من ميادين الحياة (انظر محمود شلتوت/ من توجيهات الإسلام/ 121- 122).

ومعنى الحديث النبوى الســابق أن الدنيا لا تســتقيم مع الجهل، إذ إن القرارات التى يصدرها الجهال والحلول التى يضعونها للمشاكل سوف تؤدى إلى الاضطراب والضرر، وتقود إلى مزيد من الخطإ والضلال والعنت وتراكم المشاكل بدلا من الحل والتيسير والتنوير. كذلك يشير الحديث بكل وضوح إلى أن الخط الذى يتخذه العلم صعودا وهبوطا، وتقدما وتراجعا، هو خط طبيعى يتبع النواميس التى تحكم عملية التحضر والتخلف. ألا وهو التدرج.

فالمجتمع الجاهل لا يهبط عليه العلم من الهواء، بل عليه أن يشق طريقه نحو العلم قليلا قليلا بالسهر والتعب والتجربة والخطإ والتحصيل حتى يصير مجتمعا عالما عن طريق التراكم المعرفى الذى ينجزه كل يوم بل كل ساعة. وكذلك الحال مع المجتمع العلمى الذى ينحدر فيجد نفسه متمرغا فى حمأة الجهل. إنه أيضا يصل إلى ذلك بالتدريج، إذ الله لا ينزع من هذا المجتمع العلم انتزاعا بحيث يقوم أفراده من نومهم ذات صباح فلا يجدون ما كان فى أيديهم من علم، بل ينقشع علمهم قليلا قليلا مثلما تراكم من قَبْلُ قليلا قليلا حتى يجدوا أنفسهم فى نهاية المطاف مثلما وجد المسلمون أنفسهم فى آخر الأمر جُهّالاً بلهاءَ بعدما كانوا هم سادة العالم فى ميدان العلم والمعرفة واليقظة العقلية. فانظر رؤية الإسلام للعلم حتى فى ذهابه. إنه لا ينسى أبدا القانون الطبيعى الذى تعرفه المجتمعات فى تحضرها وتخلفها. ومن كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعوز من العقل، ولا وحدة أوحش من العُجْب، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير، ولا حَسَب كحسن الخلق، ولا ورع كالكف، ولا عبادة كالتفكر، ولا إيمان كالحياء والصبر».

بقى نصان أحب أن أقف إزاءهما قليلا لأهميتهما رغم أنهما لا يتحدثان عن العلم ولا يذكران اسمه، وإن كانا يتصلان بالعلم اتصالا شديد الوثاقة: فأماالنص الأول فقرآنى

وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: 27 – 31]. فهذا النص يشير إلى إحدى الطرق التى يتعلم بوساطتها الإنسان ما كان يجهله قبلا، ألا وهى تقليد ما يقع فى الطبيعة من حوله. فهذا هو ابن آدم حين قتل أخاه لم يستطع أن يجد طريقة لمواراة جثته، إلى أن رأى غرابا يحفر الأرض، فعندئذ أشرقت فى عقله فكرة حفر الأرض ودفن جثة أخيه. ولقد تعلم الإنسان الكثير من الحيوانات والطيور واستلهم الكثير أيضا من مظاهر الطبيعة فى اختراعاته وإنجازاته على ما هو معروف. ففى الآية تنبيه للعقل الإنسانى إلى هذا، وعلى المسلم إذن أن يكون يقظ العقل سريع الخاطر لا تفوته مثل تلك الملاحظات التى يمكن أن تعود عليه وعلى بنى جنسه بالنفع والفائدة.

وأما النص الثانى فقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنزل الله داءً إلا قد أنزل له شفاءً: عَلِمَه مَنْ عَلِمَه، وجَهِلَه مَنْ جَهِلَه». لقد أذكرنى هذا الحديث العجيب بما كان يثور فى ذهنى أيام الصبا، إذ كنت أظن أن الاختراعات والاكتشافات التى تحل مشاكل البشر- إنما هى ثمرة المصادفة، فكنت أستغرب كيف توصل العلماء إليها وسط هذه الشبكة المعقدة من الأشياء والأوضاع غير المتناهية. ويزداد استغرابى إذا توصل العلماء إلى حل آخر لذات المشكلة أو اخترعوا اختراعا آخر يؤدى نفس المهمة التى كانوا قد حلوها من قبل على نحو مغاير، فأقول: كيف استطاعوا هذا وسط هذه التعقيدات المستحيلة؟ ثم لما اتسعت تجاربى وخبراتى وفهمت شيئا من أحوال الحياة تيقنت أنه ما من مشكلة إلا وقد جعل الله لها حلا بل حلولا، وأن الإنسان إذا ما شمر عن ساعد الجد فلا بد أن يتوصل إلى هذا الحل فيُنْسَب إليه وتزين اسمَه هالاتُ المجد. وها هو ذا الرسول يلفت نظرنا إلى ما لم أتبينه إلا بعد تفكير طويل على مدى سنوات وسنوات، واستغراب أطول. إنه، عليه الصلاة والسلام، يقرر فى هدوء عذب أنه ما من مرض فى الدنيا إلا وقد خلق الله له علاجا مكنونا فى زاوية من زوايا الكون. والمهم التشمير عن ساعد الجد حتى نستطيع العثور على هذا الدواء. فانظر إلى هذه البساطة البديعة، وتلك النظرة العلمية المتقدمة على عصرها بل على كل العصور!

وعند تعداد بعض إنجازات الحضارة العربية الإ سلامية فى ميدان المعرفة والعلم تقول «الموسوعة العربية العالمية» فى مادة «الحضارة» ما ننقله هنا بشىء من التصرف: «حققت الحضـارة الإسـلامية العربية في فترة ازدهارها الكثير من الانجازات في ميادين المعرفة المختلفة، خصوصًا في مجالات الرياضيات والفلك والطب والعمارة والجغرافيا والفيزياء والهندسة: في الرياضيات اخترع الخوارزمي، أحد منجمي المأمون، علم الجبر وانتشر العلم بفضله في العالم. وأخذت أوروبا في الرياضيات عن العرب مفهوم «الصِّفْر» ونظام التقويم والنظام العشري، الذي دفع بعلم الرياضيات خطوات إلى الأمام، والأرقام العربية، التي هي اليوم أوسع الأرقام انتشارًا في العالم.

وشهد علم الفلك ظهور الأسطرلاب العربي، الذي أوجده العلماء المسلمون لتحديد أوقات الفجر والمغرب والصوم، ثم طوّروه فاكتشفوا خطوط الطول والعرض وسرعة الصوت والضوء حتى أصبح ذلك مرجعًا لعلماء الغرب. وتمكن البيروني من اكتشاف دوران الأرض حول الشمس، وهو ما أثبته جاليليو بعد ستة قرون. وترجم الفلكيون العرب: الزرقالي والفرغاني والفزاري مؤلفات بطليموس في الفلك وأضافوا إليها ما بات مرجعًا بعدهم للفلكيين الغربيين.

وفي الطب تفوق العرب في فنون الشفاء التي كانت معروفة في مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين. وكانت مؤلفات الرازي المتقدمة في الطب مرجعًا للأوربيين حتى وقت متأخر من القرن السادس عشر الميلادي. كما ظل الأوروبيون حتى القرن السابع عشر يتعلمون من نظريات ابن سينا الطبية. وكان ابن سينا أول من أشار إلى الطب العقلي، وهو ما أصبح فيما بعد أساسًا لعلم النفس. واشتهر عند العرب أيضًا أمر التداوي بالأعشاب والمواد الطبيعية من ثوم ومُرٍّ وعصير جُلاّب وماء زهر... إلخ، فكانت تزخر بها صيدلياتهم، ومنها انتشرت إلى الشرق الأوسط فأوروبا.

وفي الملاحة والجغرافيا كان للعرب تأثير كبير على الغرب. وقد أخذ العرب من الكنعانيين أسياد البحر ومن قدامى المصريين ما أعانهم على تطوير البوصلة. وبرع الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي بابتكاراته ومكتشفاته، إذ وضع أول أطلس في العالم حاويًا سبعين خريطة بعضها لمناطق لم تكن معروفة من قبل. وكانت رحلات ابن بطوطة وتدويناته خير معين للأوروبيين على معرفة مناطقَ جغرافيةٍ لم يكونوا يعرفونها. وفي القرن السادس عشر تمكن حسن الوزان (المعروف عند الغربيين بـ«ليون الأفريقي») من كشف مجاهل إفريقيا، وهو ما يدين له الغرب به. وفي رحلات فاسكو دي جاما الشهيرة كان الملاح العربي أحمد بن ماجد هو البحار الرئيسي في القيادة. ويقال إن كريستوفر كولمبوس كان يتَّكِل على بحار عربي في توجيه حملته البحرية التي أدت إلى اكتشاف أمريكا.

كذلك أفاد الأوروبيون، من ناحية أخرى، في مجال الفيزياء، وتحديدًا حقل البصر والبصريات، من مؤلفات الكندي وابن الهيثم. وفي الفلسفة نقل المفكرون العرب أهم مصادر الفلسفة المشرقية واليونانية القديمة ترجمة وتطويرًا، فاشتهر الكندي بتطوير فلسفة أفلاطون وأرسطو، والفارابي بفكرة المدينة الفاضلة، وابن سينا بفلسفته العقلية، وابن خلدون بنظرياته الاجتماعية التي لاتزال حتى اليوم أصل مؤلفات الكثيرين من الفلا سفة الاجتماعيين الغربيين. وبرز ابن ر شد بفلسفته التي ارتكز عليها بعده فلاسفة غربيون كبار.

وفى الأندلس ازدهر علم الطب، خاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، وبرع أطباء الأندلس في الجراحة وتحضير العقاقير، وأُنْشِئت المستشفيات، ووُضعت عشرات المؤلَّفات الطبِّية مثل كتاب « الأدوية المُفْرَدَة» للكتَّاني المُتَوفى سنة 420هـ، و«التعريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي المتوفى سنة 403هـ. أما علم الرياضيات فتُعَدّ المدرسة التي ظهرت على يد الفلكي مسلمة المجريطي المتوفى سنة 394هـ من أولى مدارسه في الأندلس. وقد أدى تلاميذه من بعده خدمةً جليلة لهذا العلم. وفي ميدان الفلك ظهر ابن برغوث (433هـ) وأبو إبراهيم بن يحيى الزرقالي القرطبي وغيرهما.

هكذا نجد أن المسلمين ساهموا في إعلاء الحضارة العالمية وتقدمها وتطورها بفضل أعلامهم في العلوم والفنون والتربية والفلسفة والشعر والموسيقى. وفي مكتبات العالم اليوم آلاف الوثائق التي تشهد بالفضل للمنجزات الحضارية الإسلامية في حقول الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والجغرافيا والعمارة والموسيقى، وما كان لهم من تأثير في تصنيع النسيج والورق والدهان والصابون والحبر والشمع والسكر والنشاء والزيوت النباتية والعطور والبارود، وكذلك في اكتشاف أو تطوير الميزان ورقاص الساعة والساعة المائية والطاحونة المائية والهوائية والآلات الفلكية وأجهزة سكب المعادن وصك النقود والمعدات الحربية والأدوات الطبية والجراحية، وكذلك بناء الجسور والقنوات المكشوفة وجر المياه والتدفئة والتبريد وأنظمة الري والحمامات العامة وأبراج المراقبة والتحصينات العسكرية، وسواها من المنشآت والابتكارات والاكتشافات التي يعترف الغرب اليوم بفضلها للعرب وحضارتهم». ومن يرد أن يتوسع بعض التوسع فى معرفة الأفضال العلمية للحضارة الإسلامية على العالم فليرجع إلى مادة «العلوم عند العرب والمسلمين» فى هذه الموسوعة ذاتها، وهى تبلغ مائتى صفحة تقريبا، وإن لم تُغَطِّ من الموضوع إلا القشور والخطوط العامة رغم هذا.

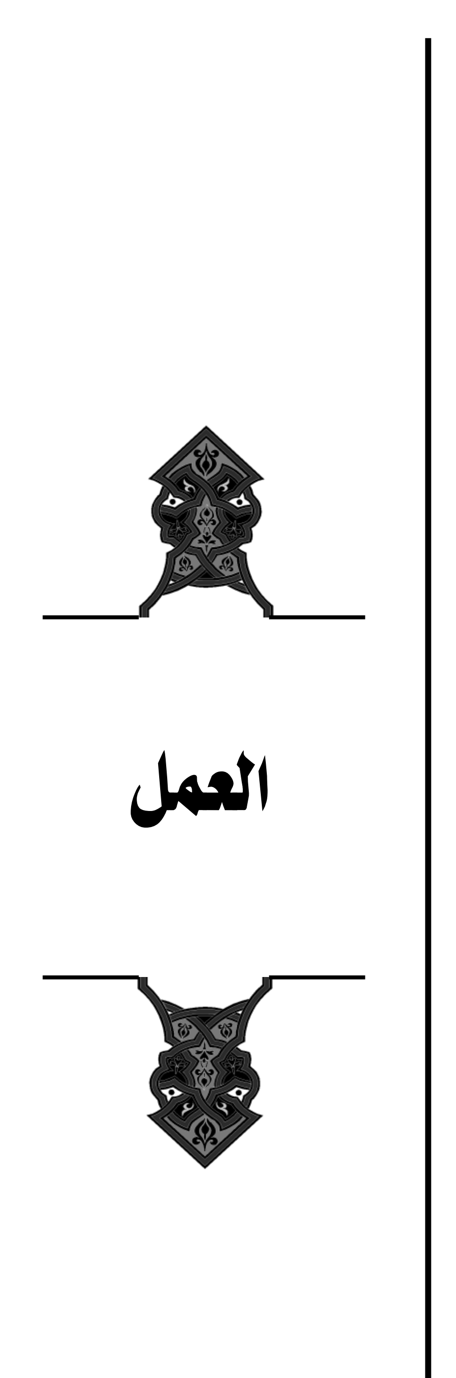
وأهم من هذا كله بلورة المسلمين للمنهج العلمى التجريبى، الذى يمكن تشبيهه بجن الفانوس السحرى، إذ بفضل تلك النعمة الإلهية استطاعت البشرية أن تنجز ما يشبه المعجزات. وكان للمسلمين الفضل الأكبر فى بلورة هذا المنهج. يقول بريفو (Briffault) مؤلف كتاب «The Making of Humanity» إن «روجر بيكون درَس اللغةَ العربية والعلمَ العربي في مدرسة أكسفورد على يد خلفاء معلمي العرب في الأندلس. وليس لروجر بيكون ولا لسميِّه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبِي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي التجريبِي إلى أوروبا المسيحية». نعم لقد كان العلماء المسلمون روادَ المناهج التجريبية العملية في كثيرٍ من المجالات العلمية، وجعلوا التجربة العملية شرطًا للوصول إلى الحقيقة العلمية: فمثلا يقول جابر بن حيَّان، رائد الكيمياء الحديثة (721- 815م) في كتابه عن نتائج تجاربه العملية: «يجبُ أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواصّ ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو ما قيل لنا وقرأناه بعد أن امتحناه وجرَّبناه: فما صحَّ أوردناه، وما بطل رفضناه». وفي كتاب «سر الأسرار» الذي ألَّفه أبو بكر الرازي الطبيب، الذي يُعتبر مؤسِّسَ علم الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب، والمولود سنة 854م، تبيانٌ واضح لطريقة إجراء التجارب الكيميائية، فهو يصف المواد المستخدمة، والأدوات والآلات التي يستعملها

وبعد ذلك يصف طريقة تحضير كل مادة، مبينًا نتائجَ التجربة. وعلى هذا النحو وصف ما يزيد على 20 جهازًا بعضها زجاجي، والبعض الآخر معدني، على غرار المستخدم الآن في معامل الكيمياء الحديثة. وكان الرازي بعد ذلك يشرح كيفية تركيب الجهاز، ويدعم شرحه بالتعليمات الواضحة الجلية (انظر مقال «تطور المنهج العلمي التجريبي عند علماء المسلمين» للدكتور سعد الدين خرفان فى موقع «altareekh.com»).

وكعادتى مع النصوص الهامة هأنذا أنقل هنا، فى صورته الكاملة، النص الأصلى الذى كتبه بريفو فى كتابه السالف الذكر عن ريادة المسلمين فى اكتشاف المنهج التجريبى، أو فى بلورته على الأقل. وهو موجود فى ص200- 201 منه :

Robert Briffault, The Making of Humanity, George Allen & Unwin Ltd., London, 1919

Neither Roger Bacon nor his later namesake has any title to be credited with having introduced the experimental method. Roger Bacon was no more than one of the apostles of Muslim science and method to Christian Europe ; and he never wearied of declaring that a knowledge of Arabic and Arabian science was for his contemporaries the only way to true knowledge. Discussions as to who was the originator of the experimental method, like the fostering of every Arab discovery or invention on the first European who happens to mention it, such as the invention of the compass to a fabulous Flavio Gioja of Amalfi, of alcohol to Arnold of Villeneuve, of lenses and gunpowder to Bacon or Schwartz, are part of the colossal misrepresentation of the origins of European civilization. The experimental method of the Arabs was by Bacon's time widespread and eagerly cultivated throughout Europe; it had been proclaimed by Adelhard of Bath, by Alexander pf Neckam, by Vincent of Beauvais, by Arnold of Villeneuve, by Bernard Silvestris, who entitles his manual Experimentarius, by Thomas of Cantimpre, by Albertus Magnus .



العمل

العمل هو النشاط الذى يطبق من خلاله الإنسان ما لديه من علم عن الأشياء من حوله لإنتاج ما يحتاجه من سلع وخدمات لا تستطيع حياته أن تمضى ـ بدونها بسهولة على الأقل من طعام أو شراب أو مسكن أو ملبس أو كتب أو وسائل مواصلات أو آلات وأدوات أو لوحات فنية أو قصائد شعرية أو غناء أو ترتيل... إلخ. وتعرّف موسوعة «الويكيبيديا» (فى نسختها العربية) العمل بأنه «الطاقة أو الجهد الحركي الذي يبذله الإنسان من أجل تحصيل أو إنتاج ما يؤدي إلى إشباع حاجة معينة محلّلة. والإنتاج هو السلع والخدمات التي يساهم الجهد البشري في إيجادها من أجل إشباع حاجة ما. وهذا الإنتاج قد يكون سلعة، كما قد يكون خدمة. فتكييف الطاقة يتجسّد في إنتاج السلع والخدمات: فالطبيب والنّجار والعامل والحمّال كل منهم يكيّف طاقته الإنسانية من أجل إشباع حاجة معينة، لأن العمل هو الجهد أو القوة البشرية التي تتفاعل مع مختلف العناصر الأولية من أجل توفير سلعة مادية أو إشباع حاجة فكرية أو نفسية، كالكرسي والقميص والكتاب والعلاج الطبّي والقصيدة الشعرية والبرنامج الإذاعي والتلفزيوني».

وهذا العمل قد يكون يدويا كالنجارة والحدادة والسباكة والصناعة والخبازة وكنس القُمَامة وقيادة السيارات والقطارات والطيارات وحمل الأثقال... وما إلى ذلك. وقد يكون ذهنيا ككتابة القصص ونظم الشعر ووضع الخطط الحربية والتصاميم الهندسية واكتشاف القوانين الطبيعية وإلقاء الدروس والمحاضرات... وهلم جرا. وقد يؤديه الإنسان بيده، وقد يؤديه بذهنه، وقد يؤديه بفمه، وقد يؤديه بلسانه، وقد يؤديه بأنفه، وقد يؤديه بقدمه، وقد يؤديه بعينه: فالأول كنشر الخشب وتركيب المواسير والعزف على الآلات الموسيقية وطباعة الكتب، والثانى كنظم الشعر وتأليف الكتب ووضع الخطط، والثالث كالغناء والإذاعة وترتيل القرآن وإلقاء الدروس والمحاضرات وتحفيظ القرآن، والرابع كتذوق الأطعمة والأشربة، والخامس كشم العطور، والسادس كلعب كرة القدم، والسابع كالحراسة والملاحظة. ويعطى مالك بن نبى أمثلة على العمل فيقول إن «إعطاء ثلاثة حروف من الأبجدية عمل، وتقبل هذه الحروف عمل، وإزالة أذى عن الطريق عمل، وإسداء أى نصح عن النظافة والجمال... عمل، وغرس شجرة هنا عمل، وا ستغلال أوقات فراغنا فى مساعدة الآخرين عمل... وهكذا. فنحن نعمل ما دمنا نعطى أو نأخذ بصورة تؤثر فى التاريخ» (مالك بن نبى/ شروط النهضة/ ترجمة عبد الصبور شاهين/ دار الفكر/ دمشق/ 1986م/ 107- 108).

وعلى هذا الأساس فإن المثل الشعبى الذى يقول إن «اليد البطالة نجسة» لا يعنى أبدا حصر العمل فى الشغل اليدوى، بل هو مَثَلٌ لا أكثر لم يُرَدْ به الحصر. ومثله قول الرسول الكريم: «من بات كالاًّ من عمل يده بات مغفورا له». ولسنا، حين نقول إن هذا اللون من العمل أو ذاك يعتمد على الذهن أو اليد، نقصد أنه لا يعتمد على أية وسيلة أخرى من الوسائل البشرية، بل المراد أن هذا هو أهم عنصر فيه، وإلا فواضع الخطط العسكرية مثلا لا يقضى وقته كله فى التفكير بعقله دون الا ستعانة بالأوراق والأقلام مثلا مما يقتضى استعمال اليد أيضا. كما أن الصانع، الذى نقول عنه إن عمله يدوى، لا يمكنه الاستغناء عن التفكير تماما، إذ هو على الأقل يعمل عقله فى التحقق من أنه ينفذ ما طُلِبَ منه تنفيذه، ولا يؤدى مهمته آليا دون تفكير على الإطلاق كما هو واضح.

وبدون العمل لا يمكن أن يعيش الإنسان بل يموت. وإلا فكيف يحصل على الطعام إلا بالعمل، أو على الدواء إلا بالعمل، أو على التعليم إلا بالعمل، أو على الملابس إلا بالعمل، فيصنع ما يحتاجه بنفسه إن كان ذلك ممكنا أو يعمل عملا آخر كى يحصل على المال، الذى به يمكنه اشتراء ما يحتاج إليه؟ ومن هنا كان تعريف «Britannica Concise Encyclopedia» (ط2005م) للعمل (Work) فى مجال الاقتصاد وعلم الاجتماع على النحو التالى: Work: In economics and sociology, the activities and labour necessary for the survival of society.

وهذا يصدق على الأوضاع الآن كما سوف يصدق على المستقبل، وكما صدق من قبل على الماضى. فمثلا لو افترضنا أننا الآن فى اللحظة الأولى من تاريخ الإنسانية وأننى، أنا الإنسان الأول، الذى هو آدم، أريد أن آكل بعد أن فتحت عينى لأول عهدى بالوجود وشبعت من النظر يمينًا ويسارًا وفوقًا وتحتًا، ورأيت كل ما حولى وشممته وسمعته ولمسته، ثم آخ! قرصنى الجوع فى بطنى، فماذا ترانى فاعلا غير البحث عن شىء آكله؟ وهذا، بطبيعة الحال، يستلزم أن أتحرك من مكانى بحثا عن الطعام والنظر هنا وههنا بغية العثور عليه، مستعملا عقلى وحواسى فى ذلك البحث، ومادًّا يدى إليه لالتقاطه ووضعه فى فمى عندما أعثر عليه. وهذه كلها ألوان من العمل. وبطبيعة الحال كلما تعقدت الحياة لم يعد يكفى الإنسان أن يقتصر عمله على ما يستهلكه فى التو واللحظة، تاركا حاجاته المستقبلية إلى الوقت الذى يحس بإلحاحها عليه، بل يجتهد فى أن يكون لديه احتياطى يخزنه لذلك المستقبل خشية أن يفاجئه ظرف طارئ يمنعه من العمل والحصول المباشر على حاجته حين تنشأ تلك الحاجة، واجتنابا للقلق واجتلابا لشعور الاطمئنان بأن كل شىء على ما يرام وإشباعا لمشاعر الزهو بتميزه عن أولئك الذين لا يملكون شيئا يدخرونه للمستقبل الغائب.

فكما يرى القارئ لا يمكن أن تمضى الحياة بدون عمل وإنتاج، اللهم إلا إذا لم يجد الشخص عملا يعمله أو عجز عن العمل أصلا، فعندئذ ينبغى أن يحمله المجتمع ويقدم له ما يعتاش منه. وهنا يبرز دور الزَّكَوَات والصدقات. وفى كتابه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» يؤكد الشيخ محمد الغزالى أن «رأس مال أى أمة ناهضة هو جهد بنيها، وكدحهم وراء الرزق، واعتصارهم أسباب الحياة من الصخور. وعلى الدول شق ميادين العمل لكل قادر، واستنفاد الطاقات المختزنة فى الأجساد لمصلحة الفرد والجماعة، فإذا توفرت ثمرات العمل أوّلاً فإن الزَّكَوَات وشتى ضروب العطاء عليها بعد ذلك أن تعمل عملها الواسع فى تفريج الضوائق، وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين».

وقد اشتغل الرسول عليه السلام قبل البعثة بالرعى والتجارة لقاء أجر معلوم ذكرته كتب السيرة والحديث. ثم اشتغل بعد النبوة بالدعوة والقيادة السياسية والعسكرية والقضاء، ولم يكن يمنعه هذا من العمل بيديه كأى فرد آخر إذا ما كان هو وأصحابه على أمرٍ جامعٍ كما هو الحال فى السفر مثلا حين يحتاجون إلى تجهيز الطعام، وكما هو الحال فى حفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب حيث كان عليه السلام يحمل الحجارة والأتربة كأى واحد من المسلمين دون أى تميز من جانبه عليهم. وكان الصحابة من جانبهم كلما رَأَوْه يعمل مثلهم اشتدت بهم الحماسة للعمل وأنشدوا:

لَئِنْ قعدْنا، والنبيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ الـمُضَلَّلُ

ثم إنه ﷺ كان يشارك فى أعمال بيته من حلب للشاة وخَصْفٍ للنعل وما إلى ذلك غير متحرج من شىء من هذا بتاتا. وكذلك كان الصحابة كلهم يعملون: فمنهم من يشتغل بالتجارة، ومنهم من يعمل بالرعى، ومنهم من يزرع ويقلع، ومنهم الجزار، ومنهم دليل القوافل، ومنهم الدباغ، ومنهم قافى الأثر، ومنهم المداوِى... إلخ. ولم يكن الرسول يقبل لأحد من أصحابه أن يمد يده بالسؤال، بل يعلن أنه سوف يأتى يوم القيامة وفى وجهه نكتة سوداء علامة العار والهوان. والحالة الاستثنائية بين الصحابة فى هذا الجانب هى حالة أبى هريرة، الذى لم يكن عاطلا مع هذا، بل نستطيع أن نقول إنه كان يلازم النبى ويقوم بحاجته إذا ما احتاج شيئا، علاوة على انقطاعه لسماع حديث الرسول وتأديتها لمن لم يسمعها منه ﷺ، فكأنه يشتغل معيدا يكرر دروس الأستاذ للطلاب الذين يحضرون متأخرين أو يغيبون عن المحاضرة لعذر أو لآخر. ولم يكن النبى من ناحيته يضيق بهذا الشاب الغريب القادم من أقصى جنوب الجزيرة إلى يثرب حيث لا أهل ولا أقارب ولا أصدقاء ولا حرفة، بل كان يحن عليه ويكرمه ويفسح صدره له.

ولقد فهمنا وضـع أبى هريرة من الحديث التالى الذى يعلق فيه ذلك الصـحابى الشـاب على ما كان يوجَّه إليه أحيانا من انتقاد بسبب كثرة روايته لأحاديث رسـول الله ﷺ: «يقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث. والله الموعد! ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم. وكنت امرأ مسكينا ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأحضر حين يغيبون، وأعي حين يَنْسَوْن. وقال النبي ﷺ يوما: لن يبسـط أحد منكم ثوبه حتى أقضي ـ مقالتي هذه ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئا أبدا. فبسطتُ نَمِرَةً ليس عليَّ ثوب غيرها حتى قضى النبي ﷺ مقالته، ثم جمعتُها إلىَّ. فوالذي بعثه بالحق ما نسـيت من مقالته تلك إلى يومي هذا. والله لولا آيتان في كتاب الله ما حدثتكم شـيئا أبدا: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات... (إلى قوله:) الرحيم».

أما الصحابة الآخرون فكانوا ينصرفون إلى أشغالهم يباشرونها، لأن الإسلام دين يمجد العمل، ويكره البطالة والعطالة. ففى الحديث النبوى «أن أبا موسـى الأشـعري اسـتأذن على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يؤذن له، وكأنه كان مشغولا، فرجع أبو موسـى، ففرغ عمر فقال: ألم أسـمع صـوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له. قيل: قد رجع. فدعاه، فقال: كنا نُؤْمَر بذلك. فقال: تأتيني على ذلك بالبينة. فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم، فقالوا: لا يشهد على هذا إلا أصغرنا أبو سـعيدٍ الخُدْرِيّ. فذهب بأبي سـعيد الخدري، فقال عمر: أَخَفِيَ هذا عليَّ من أمر رسول الله ﷺ؟ ألهاني الصَّفْق بالأسواق. يعني الخروج إلى تجارة».

ومن الحديث التالى أيضــا نفهم أن الصــحابة بوجه عام لم يكونوا ينقطعون إلى النبى عليه الســلام لأن الإســلام لا يحبّذ مثل ذلك الانقطاع، إذ هو (كما قلنا) دين الإنتاج والسعى وراء الرزق لا الجلوس دون شغل مهما تكن الأسباب ما دام هناك شغل متوفر. ومن ثم كان هناك اتفاق بين عمر و صحابى آخر مثلا على أنه إذا غاب أحدهما عن ر سول الله انشغالا بالعمل و سعيا وراء الرزق وحضر الآخر أن يروى له ما فاته من أحاديثه عليه السلام. يقول عبد الله بن العباس رضى الله عنه وأرضاه: «لبثتُ ســنة وأنا أريد أن أســأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ، فجعلتُ أهابه. فنزل يوما منزلا فدخل الأراك، فلما خرج ســألته، فقال: عائشــة وحفصة. ثم قال: كنا في الجاهلية لا نَعُدّ النساء شيئا. فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا. وكان بيني وبين امرأتي كلام، فأغلظتْ لي، فقلت لها: وإنك لهناك؟ قالت: تقول هذا لي، وابنتك تؤذي النبي ﷺ؟ فأتيتُ حفصــة فقلت لها: «إني أحذّرك أن تعصي الله ورســوله»، وتقدمتُ إليها في أذاه. فأتيت أم ســلمة فقلت لها، فقالت: أعجب منك يا عمر. قد دخلتَ في أمورنا، فلم يبق إلا أن تدخل بين رســول الله ﷺ وأزواجه؟ فرددت. وكان رجل من الأنصــار إذا غاب عن رســول الله ﷺ وشــهدتُه أتيتُه بما يكون، وإذا غبت عن رســول الله ﷺ وشــهد أتاني بما يكون من رســول الله ﷺ. وكان مَنْ حول رسول الله ﷺ قد استقام له،

فلم يبق إلا ملك غسان بالشام. كنا نخاف أن يأتينا. فما شعرت إلا بالأنصاري وهو يقول: إنه قد حدث أمر. قلت له: وما هو؟ أجاء الغساني؟ قال: أعظم من ذاك! طلق رسول الله ﷺ نساءه! فجئت فإذا البكاء من حُجَرِهنّ كلها، وإذا النبي ﷺ قد صعد في مشربة له، وعلى باب المشربة وَصِيف. فأتيته فقلت: استأذن لي. فأذِن لي، فدخلت، فإذا النبي ﷺ على حصير قد أَثَّر في جنبه، وتحت رأسه مرفقة من أدم حَشْوُها ليف، وإذا أُهُبٌ معلَّقَةٌ وقَرَظ، فذكرت الذي قلت لحفصة وأم سلمة والذي ردت عليَّ أم سلمة، فضحك رسول الله ﷺ، فلبث تسعا وعشرين ليلة، ثم نزل». ولذلك ليس غريبا أن نسمع عمر بن الخطاب فى خلافته يعلى من شأن العمل المنتج فيقول: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بالحمد منا يوم القيامة».

ويبين الحديث التالى مدى كراهية الرسول عليه السلام أن يمد المسلم يده بالسؤال فيتخلى عن عزة نفسه ويصير عالة على المجتمع. ذلك أن الشحاذ، بدلا من أن يضيف إلى ما ينتجه المجتمع شيئا، نراه يمد يده وينقص منه، حا صلا بذلك على سلع وخدمات لم يقدم فى مقابلها شيئا. إنه عضو أشل. فعن أنس بن مالك «أن رجلا من الأنصار أتى النبي ﷺ، فسأله، فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى. حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْب نشرب فيه من الماء. قال: ائتني بهما. فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده،

وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال رسول الله ﷺ: من يزيد على درهم؟ (مرتين أو ثلاثا). قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فائتني به. فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وَبِعْ. ولا أَرَيَنَّك خمسة عشر يوما. ففعل فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتةً في وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث: لذي فقر مُدْقِع، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِع، أو لذي دم موجع». ومن كلام الرسول عليه السلام: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده». ومع هذا ينبغى التفرقة بين الشحاذة، التى يتخذها بعض الناس حرفة لهم، وبين استحقاق الفقراء والمساكين والعجزة لعون المجتمع، هذا الاستحقاق الذى شُرِعت الزكاة والصدقات لمواجهته. بيد أن الرسول، خشية منه أن يمد يده للزكاة والصدقات من لا يستحقها، صَوّرها على أنها أوساخ المسلمين. ولا يعنى هذا أن من يستحقها يأخذ الأوساخ. إنما هو أسلوب بليغ فى تنفير من لا يستحقون من مد أيديهم لأخذها طمعا منهم فيما ليس لهم جَرّاء عدم التعفف وفقدان عزة النفس.

وعلى ســبيل المقارنة ليس إلا نجد أنه، فى الوقت الذى يدفع الإســلام المؤمن به دفعا كى تكون له حرفة يكسب منها لقمة عيشه ويستغنى عن الناس ويستعفّ، لا نعثر فى الكتاب المقدس على شــىء من ذلك، فلا ذِكْرٌ للعمل ولا اهتمامٌ به ولا حثٌّ عليه ولا تمجيدٌ له. كما نقرأ فى الأناجيل أن عيســى، عليه الســلام، كان كلما كســب حواريًّا جديدا إلى دعوته طلب منه أن يترك عمله ويتبعه ملازما له: «18وَإِذْ كَانَ يَسُــوعُ مَاشِــيًا عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ أَخَوَيْنِ: سِــمْعَانَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ بُطْرُسُ، وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ، يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. 19فَقَالَ لَهُمَا: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا صَــيَّادَيِ النَّاسِ». 20فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا الشِّــبَاكَ وَتَبِعَاهُ. 21ثُمَّ اجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ فَرَأَى أَخَوَيْنِ آخَرَيْنِ: يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، فِي السَّــفِينَةِ مَعَ زَبْدِي أَبِيهِمَا يُصْلِحَانِ شِبَاكَهُمَا، فَدَعَاهُمَا. 22فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا السَّفِينَةَ وَأَبَاهُمَا وَتَبِعَاهُ» (متى/ 4).

وكانت النتيجة أن الجموع التى تتبعه إذا جاعت أكلت من أول حقل يقابلها: «1وَفِي السَّــبْتِ الثَّانِي بَعْدَ الأَوَّلِ اجْتَازَ بَيْنَ الزُّرُوعِ. وَكَانَ تَلاَمِيذُهُ يَقْطِفُونَ السَّــنَابِلَ وَيَأْكُلُونَ وَهُمْ يَفْرُكُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ»، أو كان هو عليه الســلام يقوم بتوفير الغذاء للجائعين بمعجزة من المعجزات. ومعروف أن المعجزات على جلالها لا تحل مشكلة الطعام والغذاء والملابس وبقية الاحتياجات البشـرية لأنها لا يمكن أن تدوم، بل لا بد أن يعتمد كل فرد فى المجتمع على كد يده وذهنه فى توفير حاجاته المعيشــية: «1فِي تِلْكَ الأَيَّامِ إِذْ كَانَ الْجَمْعُ كَثِيرًا جِدًّا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ، دَعَا يَسُوعُ تَلاَمِيذَهُ

وَقَالَ لَهُمْ: [2]«إِنِّي أُشْفِقُ عَلَى الْجَمْعِ، لأَنَّ الآنَ لَهُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام يَمْكُثُونَ مَعِي وَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ. [3]وَإِنْ صَرَفْتُهُمْ إِلَى بُيُوتِهِمْ صَائِمِينَ يُخَوِّرُونَ فِي الطَّرِيقِ، لأَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ جَاءُوا مِنْ بَعِيدٍ». [4]فَأَجَابَهُ تَلاَمِيذُهُ:«مِنْ أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُشْبِعَ هؤُلاَءِ خُبْزًا هُنَا فِي الْبَرِّيَّةِ؟» [5]فَسَأَلَهُمْ:«كَمْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْخُبْزِ؟» فَقَالُوا:«سَبْعَةٌ». [6]فَأَمَرَ الْجَمْعَ أَنْ يَتَّكِئُوا عَلَى الأَرْضِ، وَأَخَذَ السَّبْعَ خُبْزَاتٍ وَشَكَرَ وَكَسَرَ وَأَعْطَى تَلاَمِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا، فَقَدَّمُوا إِلَى الْجَمْعِ. [7]وَكَانَ مَعَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ، فَبَارَكَ وَقَالَ أَنْ يُقَدِّمُوا هذِهِ أَيْضًا. [8]فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا. ثُمَّ رَفَعُوا فَضَلاَتِ الْكِسَرِ: سَبْعَةَ سِلاَل. [9]وَكَانَ الآكِلُونَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ. ثُمَّ صَرَفَهُمْ» (مرقس/ 8).

وفى القرآن المجيد لا نكاد نرى ذكرا للإيمان إلا ويُقْرَن به العمل، وقد تكرر هذا كثيرا جدا فى الكتاب المجيد. ثم إن العمل فى القرآن ليس مجرد العمل، أىّ عمل، بل العمل الصالح. والعمل الصالح ليس فقط هو الصلاة والصيام والصدقات وأمثالها مما يقتصر ذهن الناس عادة عليه لدن سماعهم عبارة «العمل الصالح»، بل يتسع ليشمل كل عمل نافع للفرد والمجتمع والإنسانية، بدءا من كسح المجارى وانتهاء بتأليف الكتب والجهاد فى سبيل الله، مرورا بقيادة القطار وخَبْز العيش وإلقاء الأحاديث الإذاعية وتطبيب المرضى وتجهيز الأم طعام زوجها وأولادها... إلخ. بل إن العمل فى الإسلام عبادة من العبادة ذات مكانة عظيمة كما جاء فى أحد أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومعروف أن الوقت هو أحد العناصر الحاسـمة فى العمل، إذ لا يتم عمل إلا داخل الوقت. من هنا تحرص الأمم المتحضرـة على الوقت لأنه ثروة لا تقدر بثمن. أما الأمم المتخلفة فلا تبالى بتضـييع الوقت حتى إنهم ليصـدق عليهم أنهم يقتلون الوقت قتلا، أى يضـيعونه دون عمل. ولكن انظر إلى حديث الرسـول التالى الذى يبين قيمة الوقت ويؤكد لنا أن الله سائلنا يوم القيامة ماذا فعلنا بأوقاتنا وهل أنفقناها فيما يفيد أو ضيعناها دون أن نستفيد أو نفيد المجتمع منها شيئا، فضلا عن حرصه عليه السـلام على أن يحوّل المسـلم علمه إلى عمل ولا يكتفى بالكلام دون تطبيقٍ فِعْلِيٍّ: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْـأَل عن خمس: عن عمره فِيمَ أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عَمِل فيما عَلِم».

يقول عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:25].

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [سورة التوبة].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ٧﴾ [سورة هود].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الفرقان].

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة سبأ].

﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة سبأ] .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [سورة البقرة].

ومن أحاديث رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قَطُّ خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

«لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس».

«من أمسى كالاًّ من عمل يده أمسى مغفورا له».

«ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة».

«اِكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تملُّوا. وإنّ أَحَبّ العمل إلى الله أَدْوَمُه، وإنْ قَلَّ».

«للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلَّف من العمل إلا ما يطيق».

«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم بالله عز وجل». قال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم بالله». قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرني عن العلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل».

«(عن جابر بن عبد الله الأنصارى:) أن خديجة ا ستأجرت النبي ﷺ سَفْرَتَيْن إلى جرش، كُلّ سَفْرة بقَلُوص».

«نزل رسول الله على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغّب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه. فقال قائل من المسلمين:

لَئِنْ قعدْنا، والنبيُّ يعملُ ... لَذَاكَ منّا العمل المضلَّلُ

وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخرة ... اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فيقول رسـول الله ﷺ: لا عيش إلا عيش الآخرة. اللهم ارحم المهاجرين والأنصار. قال: فيدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللَّبِن، فقال يا رسول الله: قتلوني! يحملون عليَّ ما لا يحملون. قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وَفْرَتَه بيده، وكان رجلاً جَعْدًا، وهو يقول: وَيْحَ ابن سميّة! ليسوا بالذين يقتلونك. إنما يقتلك الفئة الباغية».

عن عائشة: «كان الرسول ﷺ في مهنة أهله: يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق».

«إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة. قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: الهموم في طلب المعيشة».

«ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة».

«مر على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن كان خَرَج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على نفسه يُعِفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان».

«لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أقاسمك مالي، وأنزل لك عن إحدى امرأتيّ. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك. فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئا من أَقِطٍ وسمن، فتزوج».

«(عن أسماء بنت أبى بكر:) تزوجني الزبير، و ما له في الأرض من مال ولا مملوك، ولا شي غير ناضح وغير فرسه. فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء، وأخرز غَرْبَه وأعجن. ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكنّ نسوة صدق. وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ».

«(عن على بن أبى طالب:) خرجت في يومٍ شاتٍ من بيت رسول الله ﷺ، وقد أخذتُ إهابا معطونا جوبت وسطه فأدخلته عنقي، وشددت وسطي فحزمته بخُوص النخل، وإني لشديد الجوع. ولو كان في بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه. فخرجت ألتمس شيئا، فمررت بيهودي في مال له، وهو يسقي ببكرة له، فاطَّلَعْتُ عليه من ثُلْمَة في الحائط، فقال: ما لك يا أعرابي؟ هل لك في كل دلوٍ بتمرة؟ قلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل. ففتح فدخلت، فأعطاني دلوه. فكلما نزعتُ دلوا أعطاني تمرة. حتى إذا امتلأت كفي أرسلت دلوه وقلت: حَسْبِي. فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت المسجد، فوجدت رسول الله ﷺ فيه».

«جاء رجل من الأنصــار فقال: يا رســول الله، ما لي أرى لونك منكفتا؟ قال: الـــخَمْص. فانطلق الأنصاري إلى رَحْله فلم يجد فيه شيئا، فخرج يطلب، فإذا هو بيهودي يسقي نخلا له، فقال الأنصاري لليهودي: أسقي نخلك؟ قال: نعم، كل دلو بتمرة. واشترط الأنصاري عليه ألا يأخذ فيه جرزة ولا تارزة ولا حشفة، ولا يأخذ إلا جيده. فاستقى له بنحو من صاعين، ثم أتى به إلى رسول الله ﷺ، فقال: من أين لك هذا؟ فأخبره الأنصاري، وكان يسأل عن الشيء إذا أُتِيَ به، فأرسل إلى نسائه بصاع، وأكل هو وأصحابه صاعا».

«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار».

«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُه، وأَمِنَ الفَتَّانَ».

«عن عائشة أنها قالت: كان الناس أهل عمل، ولم يكن لهم كُفَاة، فكانوا يكون لهم تَفَلٌ، فقيل لهم: لو اغتسلتم يوم الجمعة؟».

«إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

«إن الله تعالى يحبّ من العامل إذا عمل أن يُحْسِن».

«أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه».

«قال الله تعالى: ثلاثة أنا خَصْمُهم يوم القيامة: رجل أُعْطِيَ بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

«إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد. وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ ، و﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ .

« لما نزلت هذه الآية: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾... إلى آخر الآية» جاء عمر بنصف ماله يحمله إلى رسول الله ﷺ، يحمله على رؤوس الناس، وجاء أبو بكر بماله أجمع يكاد أن يخفيه من نفسه، فقال رسول الله ﷺ: ما تركتَ لأهلك؟ فقال: عِدَة الله وعِدَة رسوله. قال: يقول عمر لأبي بكر: بنفسي ـ أنت أو بأهلي أنت. ما استبقْنا إلى خير قَطُّ إلا سبقتنا إليه».

«زكاة الفطر طهرةٌ للصائم من اللَّغْو والرَّفَث وطُعْمَةٌ للمساكين. من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات».

«(عن جرير بن عبد الله:) كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه أقوام حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، وليس عليهم أُزُرٌ ولا شيء غيرها، عامّتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر... وجه رسول الله ﷺ لـِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذَّن وصلى الظهر، ثم صعد منبرا صغيرا، ثم خطب فحمد الله وأثنى عليه،

فقال: أما بعد، فإن الله أنزل في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، والآية التي في الحشر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. تصدَّقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة. تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من شعيره، من صاع تمره، حتى قال: ولا يحقرنَّ أحدكم شيئا من الصدقة ولو بشق تمرة. فأبطؤوا حتى بان في وجهه الغضب. قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّةٍ من وَرِق (وفي رواية: من ذهب) كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، فناولها رسول الله ﷺ وهو على منبره، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله. فقبضها رسول الله ﷺ، ثم قام أبو بكر فأعطى، ثم قام عمر فأعطى، ثم قام المهاجرون والأنصار فأَعْطَوْا، ثم تتابع الناس في الصدقات: فمِنْ ذي دينار، ومن ذي درهم، ومن ذي، ومن ذي، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ومِثْل أجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة في الإسلام سيئة كان عليه وزرها ومِثْلُ وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. ثم تلا هذه الآية: «ونكتب ما قَدَّموا وآثارَهم». قال: فقسَّمه بينهم».

«إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس. إنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد».

«(عن زياد بن الحارث الصـدائى:) أتيت النبي ﷺ فبايعته، فبلغني أنه يريد أن يرسـل جيشـا إلى قومي، فقلت: يا رسـول الله، رُدَّ الجيش، وأنا لك بإسـلامهم وطاعتهم. فقال: يا أخا صـداء، إنك لمطاع في قومك؟ قلت: بل هداهم الله وأحسـن إليهم. قال: أفلا أؤمِّرك عليهم؟ قلت: بلى. فأمَّرني عليهم، فكتب لي بذلك كتابا. وسـألتُه من صـدقاتهم ففعل. وكان النبي ﷺ يومئذ في بعض أسـفاره، فأعرسـنا من أول الليل، فلزمتُه وجعل أصـحابي يتقطعون حتى لم يبق معه رجل غيري. فلما تحين الصـباح أمرني، فأذَّنْتُ. ثم قال: يا أخا صـداء، معك ماء؟ قلت: نعم، قليل لا يكفيك. قال: صُـبَّه في الإناء ثم ائتني به. فأَدْخَل يده فيه، رأيت بين كل أصـبعين من أصابعه عينا تفور. قال: يا أخا صداء، لولا أني أستحيي من ربي لسقينا واستقينا. نادِ في الناس من يريد الوضوء. قال: فاغترف من اغترف، وجاء بلال ليقيم، فقال النبي ﷺ: إن أخا صداء أذَّنَ، ومن أذّن فهو يقيم. فلما صلى الفجر أتاه أهل المنزل يشكون عاملهم ويقولون: يا رسـول الله، أَخَذَنا بما كان بينه وبين قومه في الجاهلية. فالتفت إلى أصـحابه وقال: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن. فوقعت في نفسي، وأتاه سـائل يسـأله، فقال: من سـأل الناس عن ظهر غِنًى فهو صـداع في الرأس، وداء في البطن. فقال: أعطني من الصـدقات. فقال: إن الله لم يرض في الصـدقات بحكم نبي ولا غيره حتى جعلها ثمانية أجزاء.

فإن كنتَ منهم أعطيتُك حقك. فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، أَقِلْ إمارتك، فلا حاجة لي فيها. قال: ولم؟ قلت: سمعتك تقول: «لا خير في الإمارة لرجل مؤمن»، وقد آمنت. وسمعتك تقول: «من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع في الرأس، وداء في البطن»، وقد سألتك وأنا غني. قال: هو ذاك، فإن شئتَ فخُذْ، وإن شئتَ فَدَعْ. قال: قلت: بل أَدَعُ. قال: فدُلَّني على رجل أُوَلِّيه. فدللته على رجل من الوفد، فولاه. قال: يا رسول الله، إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وَسِعَنا ماؤها فاجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه من حولنا. وإنا لا نستطيع اليوم أن نتفرق. كلّ من حولنا عدو. فادع الله أن يسعنا ماؤها. فدعا بسبع حصيات ففركهن بين كفيه وقال: إذا أتيتموها فألقوا واحدة، واذكروا اسم الله. فما استطاعوا أن ينظروا إلى قَعْرها بَعْد».

وتحت عنوان «اقتصاديات العمل» تقول موسوعة «الويكيبيديا»: «حدّد الإسلام مفهوم الحاجة والعمل والإنتاج، وبيَّن عناصره في جملة من النصوص والمفاهيم، وأوضح أن الطاقة الإنسانية بالتفاعل مع عناصر الطبيعة هي التي تنتج السلع التي يشبع بها الإنسان حاجاته المادية المختلفة، ويسدّ بها نواقص حياته، كالطعام واللباس والدواء.

وإن مفهوم الإسلام عن الطاقة البشرية هو أن الإنسان وحدة حياتية قائمة بذاتها لها حاجاتها من الخدمات والسلع والمنافع تقوم هي ذاتيا بتوفيرها وصيانة نفسها باستعمال الطاقة المخزونة فيها بالتفاعل مع العناصر الأولية والأساسية للإنتاج. والإنسان الذي صرف هذه الطاقة من كيانه هو صاحب الحق في امتلاك الفائض منها عن حاجته، وليس من حق أحد أن يستولي عليها. إلا أن الإنسان يملك حق التصرف وحرية التعاقد لتأجير هذه الطاقة لغيره لقاء أجر معين. وبذا يتنازل الأجير عن قدر من نتاجه وجِدّه يبذله لغيره بمقتضى هذا التعاقد والرضى. وهذا التعاقد هو المبرر الشرعي لامتلاك المؤجر الفائض من جهد الأجير على أجرته مقابل توفير فرص العمل له. وفي كيان الإنسان قُوًى حركية وفنية وعقلية ضخمة بإمكانها أن تتفاعل مع عناصر الطبيعة فتوفر الحاجة للجميع، وأن تبعد الفقر والجوع والحرمان عن كل إنسان يعيش على هذه الأرض لأن الله سبحانه قد جعل في كل إنسان من القدرة والطاقة ما يمكنه من توفير لوازم الحياة ومستلزمات العيش لو فُسِح لها الإنتاج من جهة، ورُفِع الظلم والسيطرة والاستغلال من جهة أخرى.

وتعتبر الحاجة إلى الشيء هي السبب الأعمق في إنتاجه وإيجاده. ولولا الحاجة إليه لكان وجوده عبثا لا مبرر له، والسعي من أجله تضييعا للجهد والمال والوقت الإنساني الثمين. وقد حرم الإسلام العبث، ولم يكن الإسلام إلا رسالة الضبط والتنظيم والقانون. لذلك عمد إلى تحريم الإنتاج والتداول والاستهلاك والانتفاع بكل سلعة تشيع شذوذا أو تستجيب لحالات الانحراف المرضي، كالخمر والقمار والرقص والاحتكار والربا... إلخ، فمنع إنتاج الآلات والأدوات والخدمات أو بذل الجهود وإنشاء المؤسسات التي توفر الظروف المشجعة على إيجاد وبقاء هذه الظواهر الشاذة، لأن الإنسان بتكوينه الطبيعي السليم لا يحتاج إلى الخمر ولا إلى الرقص. والإنسان في حالته الطبيعية يجب أن يعمل ويكسب لا أن يتّخذ القمار والاحتكار وسيلة لاقتناص جهود الآخرين ليعيش في خمول وترهّل على الكسب الشاذ المدمّر لنظام الحياة المعاشي... إلخ.

راح الإسلام يحثّ على العمل ويحارب الكسل والاتكالية ويدعو إلى الجِدّ وبذل الجهد من أجل تحصيل الرزق والانتفاع بطيّبات الحياة وإعمار الأرض وإصلاحها. وقد ضرب الرسول وخلفاؤه أروع الأمثلة في الجِدّ وممارسة العمل والنزول إلى ميدان الحياة، فلم يستخفّوا بالعمل ولم يحتقروا العاملين، بل كرّموا العمل والعاملين واستنكروا الخمول والاتكالية والكسل، لأن العمل في عرف الإسلام هو بذل الجهد من أجل إشباع حاجة إنسانية محلّلة،

وهو ضرب من ضروب العبادة وتحقيق لإرادة الله وحكمته في الأرض والسعي لبناء الحياة وفق مشيئته تبارك وتعالى. ولكي يحقق الإسلام فكرته هذه جعل إشباع الحاجات الشخصية واجبة من حيث الأساس على الإنسان نفسه لكيلا يتوانى عن الكسب ومباشرة العمل بنفسه. فإن هو عجز عن توفير حاجاته كاملة انتقلت مسؤولية إشباع هذه الحاجات إلى الداخلين معه في علاقات النفقة والتكافل، كالآباء والأبناء. فإذا تعذّر النهوض بمسؤولية الكفالة هذه وإشباع الحاجات الضرورية انتقلت المسؤولية إلى المجتمع والدولة الإسلامية».

ومعروف أن العمل يحتاج إلى عنصر ـ الأرض حتى يكون هناك إنتاج، ولأهمية هذا العنصر أحب أن أقف إزاءه وقفة خاصة. وفى مادة «Labour» (أى «العمل») بموسوعة «الإنكارتا» (النسخة الإنجليزية/ 2006م) مثلا يعدد محررها العناصر التى يحتاجها العمل كى يتم، فيذكر الإنسان والأرض ورأس المال:

Labor, in economics, effort necessary to satisfy human needs. It is one of the three leading elements in production, the other two being land (natural objects) and capital .

وفى كتابه: «شروط النهضة» (ص131 وما بعدها) يحصى مالك بن نبى مكونات الحضـارة فى الإنسـان والتراب والوقت. ويقصـد بـــ«التراب» الأرض الزراعية ووجوب الحفاظ عليها، مع العمل بكل وسـيلة على التوسـع فيها. وكان كلامه منحصرا فى حالة الجزائر تقريبا. بيد أننى أوثر توسعة الكلام بحيث يشمل الأرض جميعا: ترابا ورمالا وأحجارا وجبالا وبحرا ونهرا وبِرَكًا وحيوانا ونباتا ونارا ومعادن وهواء ونجوما وكواكب، أى الأرض ظهرًا وبطنًا وغلافًا جويًّا. أما التراب فما هو إلا عنصر واحد من عناصر الأرض ليس إلا، فى حين أن النعم الإلهية التى وَهَبَناها الله أكثر من ذلك كثيرا، ومنها ما يُدِرّ من الثروة وله من الأهمية ما قد يفوق التراب بمراحل شاسعة، كالبترول والذهب والهواء والماء مثلا. و سوف يطالع القارئ بعد قليل حديثا عجبا، إذ يحكى النبى قصـة رجل من أهل الجنة كان يزرع فى الدنيا، فلم يشـأ أن يعيش دون عمل فى الجنة، فاسـتأذن ربه فى الزرع فأذن له. ويزيد الحديثَ عجبًا انتهاؤه بتعليق طريف من أعرابى تصـادف أن كان موجودا فى مجلس الرسـول وهو يحكى القصـة. وفى ضـوء هذا ينبغى أن نفهم قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لواليه فى مصر: «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في اسـتجلاب الخَرَاج لأن ذلك لا يُدْرَك إلا بالعمارة

ومن طلب الخراج من غير عمارة أخرب البلاد». أى أن تدبير موارد الإنتاج مقدم على جمع الضرائب، إذ لا يمكن أن يتوفر مالٌ تُدْفَع عليه ضريبةٌ من الضرائب

ما لم يكن هناك إنتاج أصلا. ويمكن أن نستخدم للإشارة إلى «الأرض» مصطلحا آخر كـ«البيئة» و«الطبيعة» مثلا.

ولنلاحظ أن نص الإنكارتا قد فسر «الأرض» بالـ«natural objects»، أى الموضوعات الطبيعية، وهو ما يقترب من مصطلح «الطبيعة»، الذى اقترحته. فماذا قال الإسلام فى هذا العنصر؟ لنبدأ بنصوص القرآن العزيز:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾﴾ [سورة هود].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الرعد].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة إبراهيم].﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحِجْر].

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء].

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء].

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الحج].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة المؤمنون].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان].

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الفرقان].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧)﴾ [سورة الشعراء].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [سورة النمل].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [سورة فُصِّلَتْ].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)﴾ [سورة الزخرف].

﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الجاثية].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الجاثية].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة ق].

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الرحمن].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الـمُلْك].

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة المرسلات].

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة النبأ].

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة النازعات].

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة عَبَس].

أما الأحاديث النبوية فنقتطف منها النصوص التالية:

«(عن أبى هريرة:) أن النبي ﷺ كان يوما يحدّث، وعنده رجل من أهل البادية، أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع. قال: فبَذَر، فبادر الطَّرْفَ نباتُه واستواؤه واستحصادُه، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء. فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك النبي ﷺ».

«اللهم اسـقنا غيثا مغيثا هنيئا مريئا مريعا غَدَقا مجللا عاما طَبَقا سـحًّا دائما. اللهم اسـقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد والضــنك ما لا نشــكو إلا إليك. اللهم أنبت لنا الزرع، وأَدِرَّ لنا الضرـع، واسـقنا من بركات السـماء، وأنبت لنا من بركات الأرض. اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشــف عنا من البلاء ما لا يكشــفه غيرك. اللهم إنا نستغفرك، إنك كنت غفارا، فأَرْسِل السماء علينا مدرارا».

«من أحيا أرضا ميتة فهي له».

«من كانت له أرض فليزرعها أو ليُزْرِعها أخاه».

«ألا من وَلِيَ يتيمًا له مال فَلْيتَّجِر بماله، لا يتركه حتى تأكله الصدقة».

«ما من مسـلم يغرس غرسـا أو يزرع زرعا فيأكل منه طيرٌ أو إنسـانٌ أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

«من اتخذ كلبا إلا كلب زرع أو غنم أو صيد، ينقص من أجره كل يومٍ قيراط».

لما قدمنا إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصـار مالا فأَقْسِـم لك نصـف مالي. وانظر أيّ زوجتيَّ هَوِيتَ نزلتُ لك عنها، فإذا حَلَّتْ تزوجتَها. قال:

فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك. هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع. قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأَقِطٍ وسمن. قال: ثم تابع الغُدُوّ، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة. فقال رسول الله ﷺ: تزوجتَ؟ قال: نعم. قال: ومن؟ قال: امرأة من الأنصار. قال: كم سُقْتَ؟ قال: زِنَة نواةٍ من ذهب، أو نواةٌ من ذهب. فقال له النبي ﷺ: أَوْلِمْ ولو بشاة».

«سمعت ابن عمر، وسُئِل عن الرجل يحجّ ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

ولقد قرأت بالإنجليزية مقالا أكثر من ممتاز تعالج فيه كاتبته الصحفية والأنثروبولوجية الهولندية فرانسيسكا دو شاتِلْ موقف النبى عليه الصلاة والسلام من هذا العنصر: عنصر الأرض أو البيئة. والمقال بعنوان «محمد رائد الحفاظ على البيئة». ولعل أفضل ما يمكننى فعله هنا هو أن أسوق ترجمتى للمقال فقط دون تعليق من جانبى، فهو فى حد ذاته كافٍ شافٍ. وهذا هو: «جاء فى الحديث النبوى » ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة». والواقع أن القول بأن محمدا رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع فى آذان الكثيرين فى البداية موقعا غريبا، إذ لا شك أن مصطلح «الحفاظ على البيئة» وما يرتبط به من مفاهيم مثل «البيئة» و«الوعى البيئى» و«ترشيد الاستهلاك» هى ألفاظ من اختراع العصر الحديث، أىْ مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا.

ومع ذلك فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب، أى تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة فى حياة محمد، لَتُرِينا أنه كان واحدا من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان فى نصرته للبيئة سابقا لعصره، أى رائدا فى مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية، وواحدا من الذين يَسْعَوْن لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة. وبالاستناد إلى ما أوردته لنا الأحاديث من أعماله وأقواله يمكننا القول بأن محمدا كان يتمتع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار وأنه كان على صلة حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والنار والهواء. لقد كان محمد من الدعاة الأقوياء للاستخدام الرشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفى هذا السياق فإن حداثة رؤيته للبيئة وحداثة المفاهيم التى جاء بها فى هذا المجال لمما يَشْدَه العقل شَدْهًا، حتى لتبدو بعض أحاديثه وكأنها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة.

المبادئ الثلاثة: إن فلسفة محمد البيئية هى أولا وقبل كل شىء فلسفة شاملة مترابطة، إذ تقوم على أن هناك صلة أساسية وارتباطا متبادلا بين عناصر الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هى الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافا فإن العالم الطبيعى برُمّته سوف يضارّ أضرارا مباشرة. على أن هذا الاعتقاد لا يُنَصّ عليه فى حديث واحد نصا مباشرا، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذى تنهض عليه جميع أقوال محمد وأفعاله. إنه فلسفة حياته التى على ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته.

إن أهم ثلاثة مبادئ فى الفلسفة المحمدية المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر والثقة فى الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية فى دعوة الإسلام، و هذا التوحيد يراعى الحقيقة التى تقول بوجود خالق واحد للكون وأن الإنسان مسؤول أمامه عن أعماله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: 120].

ويقر محمد بأن علم الله وقدرته يشملان كل شىء، ومن ثم كانت الإساءة إلى أى مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائنا حيا أو مصدرا من مصادر الطبيعة، ذَنْبًا من الذنوب يجازَى الإنسان عليه. وفى اعتقاده أن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغى أن يكون لها حقوق تُحْتَرَم.

أما مفهوما الخلافة البشرية فى الأرض والثقة فى الإنسان فينبعان من مبدإ الوحدانية. ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسؤولية العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب. وهذا واجب كل فرد فينا ووجه تميُّزه، ومجلى الثقة به. ورغم هذا نرى القرآن مرارا وتكرارا ينهى الإنسان عن الكِبْر منبها إياه إلى أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

وكـان محمـد يؤمن بـأن الكون بما فيـه من مخلوقـات: حيوانـاتٍ كـانـت هـذه المخلوقات أو نباتاتٍ أو مياهًا أو أرضين، لم تُخْلَق لتكون للبشر. صحيح أن لهم الحق فى اســتخدام موارد الطبيعة، إلا أنهم لا يمكنهم أن يتملكوها تملُّكًا. ومن هنا ففى الوقت الذى يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدودا لذلك: فعلى سـبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يسـتعملها، لكنه ما إن يكفّ عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجبا عليه التخلى عن هذه الحيازة.

ويعترف محمد بمسؤولية الإنسان أمام ربه، بيد أنه كان دائما وأبدا يدعو إلى التواضع، ومن ثَمّ نراه يقول: «إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فســلة فليغرســها»، فهو هنا يبين أنه، حتى عند انتفاء كل أمل لدى البشرـ، على الفرد أن يحافظ على نمو الطبيعة. لقد كان مؤمنا بأن الطبيعة حسنة فى ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها.

وبالمثل نراه يحض أتباعه على التشــارك فى موارد الطبيعة، إذ يخاطبهم قائلا: «المسـلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلإ والنار». كما يعد حرمان العطشـان من الماء إثما يعاقَب عليه: «مَنْ منع فَضْل مائه أو فَضْل كَلَئِه منعه الله فَضْلَه يوم القيامة».

والواقع أن موقف محمد تجاه الاســتعمال الرشــيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التى كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التواضــع الذى يصــبغ فلسفته حول البيئة.

الاستخدام الرشيد للأرض: «جُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا». في هذا الحديث يؤكد محمد الطبيعة المقدسة للأرض أو التربة، لا بوصفها ذاتا طاهرة فحسب، بل بو صفها مادة مُطَهِّرة كذلك. ويَظْهَر أيضا هذا الاحترامُ للأرض في شعيرة التيمم التي تجيز للمسلم استعمال التراب في الطهارة الواجبة عند الصلاة في حالة فقدان الماء.

وينظر محمد إلى الأرض على أنها مسخَّرة للإنسان، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يفرط في استخدامها أو يسيء استعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التي للأشجار والحيوانات البرية التي تعيش فوقها. ومن أجل المحافظة على الأرض والغابات والحيوانات البرية جعل محمد عددا من المحميات، أي الأماكن التي يحرم فيها استعمال الموارد الطبيعية، وهو ما لا يزال معروفا إلى اليوم، إذ هناك مناطق ممنوعة حول بعض الآبار وعيون الماء غايتها حماية المياه الجوفية من الاستهلاك المفرط والنفاد. ومنها المناطق الخاصة بالحيوانات البرية والغابات حيث يُمْنَع الرعي وقطع الأشجار أو يحرم التعرض لأنواع معينة من الحيوانات.

ولم يشجع محمد فقط الاستعمال الرشيد للأرض، بل لفت أنظار أتباعه أيضا إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سَقْي أرض عطشى من أعمال البر والإحسان:

«من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر». وعلى هذا فأيما شخص ساق الماء إلى قطعة أرض قاحلة فهى له.

المحافظة على الماء: فى البيئة الصحراوية الخشنة التى كان يعيش فيها محمد يُعَدّ الماء مرادفا للحياة، فهو نعمة من الله، بل هو أصل الحياة كما يشهد بذلك القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:30]. ويذكِّر القرآن المسلم على الدوام بأنه خليفة الله فى الأرض، لكن لا ينبغى له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة على أنها أمرٌ مسلَّمٌ به: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 68- 70].

كذلك كان الاقتصاد فى الماء والمحافظة على طهارته قضيتين مهمتين عند محمد. ولقد رأينا كيف أدى اهتمامه بالاستخدام الرشيد للماء إلى إقامة المحميات بالقرب من ينابيعه. وحتى عندما يكون الماء متوفرا نراه ينصح بالاقتصاد فى استعماله. ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرات حتى لو كان المتوضئ على نهرٍ جارٍ. ويضيف البخارى قائلا: «وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي ﷺ». وبالمثل نهى محمد عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبول فى الماء الراكد.

معاملة الحيوانات: يقول محمد: «من قتل عصفورا فما فوقها بغير حقها سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة». وهو حديث يعكس إجلال محمد واحترامه وحبه للحيوانات. ذلك أنه كان يعتقد أنها، بوصفها خلقا من خلق الله، ينبغى أن تحظى بمعاملة كريمة، ففى الأحاديث النبوية عدد ضخم من الروايات

والتوجيهات الخلقية والقصص التى ترسم لنا صورة عن علاقته بالحيوانات. وبعض هذه القصص ترينا أنه كان يهتم اهتماما خاصا بالإبل والخيول: فهما فى رأيه نعم الرفيق فى الأسفار والحروب، كما كان يجد كثيرا من الراحة والحكمة فى صحبتهما حسبما يقول لنا الحديث التالى: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وحتى فى ذبح الحيوان نجده يبدى قدرا عظيما من الرقة والمرحمة. وعلى الرغم من أنه لم يكن نباتيا فإن الأحاديث تبين لنا بوضوح أنه كان حساسا للغاية تجاه معاناة الحيوانات حتى لكأنه كان يشاركها ألمها مشاركة وجدانية. ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حاد فى الذبح واتباع طريقة مسؤولة من شأنها أن تزهق روح الحيوان سريعا بحيث يخف ألم الذبيحة إلى أقصى درجة ممكنة. كما نهى عن ذبح أى حيوان أمام غيره من الحيوانات

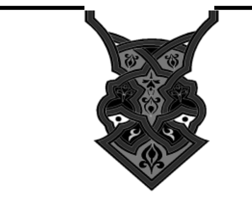
أو إحداد الشفرة بحضرته، وإلا فكأنه قد ذبحه مرتين حسبما جاء فى حديثه لمن كان يُحِدّ شفرته فى حضور ذبيحته، إذ قال له مستنكرا: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟». لقد كان يكره ذلك كراهية شديدة.

وختاما نقول إنه من المستحيل إيفاء المدى الذى بلغته فلسفة محمد البيئية، وكذلك الأهمية التى تستأهلها، حقهما فى هذه المقالة القصيرة، فرؤيته الشاملة للطبيعة وفهمه لمكان الإنسان داخل العالم الطبيعى هما رؤية وفهم رائدان فى مجال الوعى البيئى لدى المسلمين.

وللأسف فإن الانسجام الذى دعا إليه محمد بين الإنسان وبيئته قد تم تجاهله فى أيامنا هذه إلى حد بعيد. وفى الوقت الذى نواجه فيه آثار التلوث والإسراف فى استخدام موارد الطبيعة والتصحير وشح الماء فى بعض الأماكن فى العالم مع المعاناة من الفيضانات والعواصف فى غيرها من الأماكن ربما يكون من الملائم بالنسبة لنا جميعا: مسلمين ونصارى ويهودًا وهندوسًا وبوذيين وملاحدةً أن نأخذ ورقة من كتاب محمد ونواجه الأزمة البيئية الحاليّة بجِدٍّ وحكمة».



الذوق



تقوم الحضارة، ضمن ما تقوم، على النظافة والنظام والتناسق والحرص على الجمال ومراعاة الرسوم التى يتعاهدها الناس فى المناسبات والمواقف المختلفة، لما فى ذلك من فوائد صحية ونفسية واجتماعية ولما فيها من التيسير على الناس واختصار الوقت والجهد والوصول السريع للتفاهم بين أفراد المجتمع وجماعاته، فضلا عما فيها من رُقِىٍّ يليق بالمتحضرين حتى ولو لم يكن لها صلة بالصحة والراحة النفسية واختصار الوقت والجهد. والإسلام دين الجمال والنظافة والنظام والجمال بامتياز، وهو يراعى هذا فى كل شىء حتى فى العبادات. كما أنه يربطه بالعقيدة والربوبية، إذ يجعل الله المثل الأعلى فى النظافة والجمال والطيب والسلوك، علاوة على أنه يضع للاستمساك بكل قيمة من هذه القيم وتطبيقها أجرا كبيرا، مما يستحث المسلم على التعلق بهذه القيم والحرص عليها والتمسك بها كى ينال رضوان الله، ومن ثم يجد نفسه وهو يمارس الحضارة دون أن يشعر، إذ إن ربط هذه القيم بالله سبحانه على هذا النحو وذاك من شأنه أن يصيّر الحضارة دما يجرى فى عروق المسلم تلقائيا دون أن يُعَنِّىَ نفسه بالتفكير فى أمرها. وهل يُعَنِّى الإنسانُ نَفْسَه فى تتبع تنفُّسه مثلا، أم إنه يتنفس على نحو طبيعى لا يتنبه معه إلى ما يفعل؟

ويقول مالك بن نبى فى هذا الصدد إنه لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح. والمجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره وأعماله ومساعيه. والأفكار، بصفتها روح الأعمال التي تعبّر عنها أو تسير بوحيها، إنما تتولد من الصورة الـمُحَسَّة الموجودة في الإطار الاجتماعي والتي تنعكس في نفوس من يعيش فيه. وهنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره. فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة القبيحة. فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعًا إلى الإحسان في العمل وتوخيًا للكريم من العادات. نعم إن الإطار الحضاري بكل محتوياته، كما يؤكد بن نبى، متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، ومن ثم ينبغي أن نلاحظه في أنفسنا كما ينبغي أن نتمثله في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا (انظر مالك بن نبى/ شروط النهضة/ 91، 94).

وهذه طائفة من النصوص القرآنية التى تتعلق بهذا الموضوع الحيوى أسوقها حسب ترتيبها فى المصحف. وبعضها يتعلق بالنظافة والطهارة، وبعضها بالذوق واللياقة، وبعضها بالنظام والسلوك المستقيم، وبعضها بمظاهر الطبيعة من حولنا أو بمناظر الجمال والسعادة فى الجنة:

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [سورة البقرة].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة].﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء]. ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٠٢﴾ [سورة النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ ٦﴾ [سورة المائدة].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ [سورة الأعراف].

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦٠﴾ [سورة التوبة].

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة التوبة].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾[سورة الحِجْر].

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾[سورة الحِجْر].

﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النحل].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[سورة النحل].

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة النحل].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة النور].

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة النور].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النور].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة النور].

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ (62) ﴾ [سورة النور].

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾ [سورة الفرقان].

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) ﴾ [سورة النمل].

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) ﴾ [سورة لقمان].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49) ﴾ [سورة الأحزاب].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) ﴾ [سورة فاطر].

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) ﴾ [سورة فاطر].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة يس].

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَتْ].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الحجرات].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الحجرات].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة ق].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الطور].

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة الرحمن].

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الواقعة]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة المجادلة]. ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [سورة المعارج].

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الإنسان].

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة عَبَس].

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة التكوير].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الغاشية].

وبعد القرآن نقدم إلى القارئ هذه الباقة من نصوص الحديث النبوى الشريف التى توصى المسلم مباشرة أو على نحو غير مباشر بالنظافة والطهارة والتطييب والأناقة والحرص على الجمال والنظام وعزة النفس والترتيب

ومراعاة أصـــول اللياقة ورقة النفس وتهذيب السـلوك والالتفات إلى مظاهر الحسن فى الكون من حوله والتخلص من الأوضاع المزرية أو القبيحة أو المشوهة:

«إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود. فنظفوا أفنيتكم، ولا تَشَبَّهوا باليهود».

«(قال رســول الله ﷺ:) لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حســنا، ونعله حســنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكِبْر بَطَر الحق وغَمْط الناس».

«من جر ثوبه خُيَلاءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خَرْدَل من كِبْر».

«إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها».

«إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس».

« كانوا (أى بعض الناس) يدخلون على رســول الله ﷺ ولم يســتاكوا، فقال: تدخلون عليَّ قُلْحًا؟ اسـتاكوا، فلولا أن أشـقّ على أمتي لفرضـت السـواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء».

«استاكوا وتنظفوا وأَوْتِروا، فإن الله وَتْرٌ يحب الوَتْر».

«سَوُّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة».

«أَتِمُّوا الصفَّ المقَدَّم ثم الذي يليه، فما كان من نقصٍ فلْيَكُنْ في الصفّ المؤَخَّر».

«مَنْ سَدَّ فُرْجَةً في الصفّ غُفِر له».

«لا ينظر الله عز وجل إلى صلاة عبدٍ لا يقيم صُلْبَه فيما بين ركوعها وسجودها».

«كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أنِ اخْرُج فأَصْلِحْ رأسك ولحيتك، ففعل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟».

«اتقوا الملاعن الثلاثة: البِراز في الموارد وقارعة الطريق والظل».

«ثلاث من السعادة: المرأة الصالحة، والمنزل الواسع، والمركب الهني».

«اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال. اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبَرَد، ونَقِّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب».

«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفْضِي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفْضِي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد».

«الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

«(عن أنس:) حَدَّث نبيُّ الله ﷺ بحديث، فما فرحنا بشيء منذ عرفنا الإسلام أشد من فرحنا به. قال: إن المؤمن ليُؤْجَر في إماطة الأذى عن الطريق، وفي هداية السبيل، وفي تعبيره عن الأرتم، وفي منحة اللبن».

« البذاء من الجفاء، والجفاء في النار. والحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة».

«من اطَّلَعَ في بيت رجل بغير إذنه فحذفه بحصاة ففقأت عينه فلا شيء عليه».

«عن عطاء بن يسار أن رجلا سأل النبى ﷺ: أستأذن على أمي؟ قال: نعم».

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت. إن الله يحب الحيي الحليم العفيف، ويبغض الفاحش البذيء السائل الملحف. إن الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والفحش من البذاء، والبذاء في النار».

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. ولْيُحِدَّ أحدكم شفرته، ولْيُرِحْ ذبيحته».

«جاء قوم بصاحبهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا هذا قد أفسده الحياء. فقال نبي الله ﷺ: إن الحياء من شرائع الإسلام، وإن البذاء من لؤم المرء».

«(عن لقيط بن صرة:) قلت: يا رسول الله، إن لي امرأة في لسانها شيء (يعني البذاء). قال: طلقها. قلت: إن لي منها ولدا، ولها صحبة. قال: فمُرْها (أي عِظْها)، فإن يك فيها خير فستقبل، ولا تضربنّ ظعينتك ضربك أَمَتك».

«إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره بيمينه، وإذا تمسح أحدكم فلا يتمسح بيمينه».

«(عن أبى هريرة:) أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد، فأقبل على الناس فقال: «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخّع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يُسْتَقْبل فيُتَنَخَّع في وجهه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره، تحت قدمه».

«انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبي ﷺ، فخرج ومعه درقة، ثم استتر بها، ثم بال».

«كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟».

«مر رسول الله ﷺ برجل في سفر في ظل شجرة وهو يُرَشّ عليه الماء، فقال: ما بال صاحبكم؟ قالوا: صائم يا رسول الله. قال: ليس من البر الصيام في السفر. فعليكم برخصة الله التي أرخص لكم، فاقبلوا».

«(عن عمرو بن أبى سلمة ربيب رسول الله:) كنت غلاما في حِجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يلي». فما زالت تلك طعمتي بعد».

«(عن عائشة:) أن رسول الله ﷺ أُهْدِيَ إليه ضَبٌّ، فلم يأكله، فقالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، ألا تطعمه المساكين؟ فقال لا تطعموهم مما لا تأكلون».

«إذا اجتمع الداعيان فأَجِبْ أقربهما بابا، فإن أقربهما بابا أقربهما جوارا. وإنْ سَبَقَ أحدُهما فأجب الذي سبق».

«من دُعِيَ إلى عرس أو نحوه فليجب».

«إذا دُعِيَ أحدكم إلى الوليمة فليجب».

«إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فليجب: فإن كان مفطرا فليأكل، وإن كان صائما فلْيَدْعُ بالبركة».

«شر الطعام طعام الوليمة يُدْعَى لها الأغنياء ويُتْرَك الفقراء. ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله ﷺ».

«أُتِيَ رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به بإيلياء بقدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما، فأخذ اللبن. قال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة. لو أخذتَ الخمر غَوَتْ أمتك».

«(عن أنس:) أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله، الذي أطعمنا وسقانا وسَوَّغه وجعل له مخرجا».

«من أكل طعاما ثم قال: «الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة» غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومن لبس ثوبا فقال: «الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة« غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

«كان (الرسول عليه السلام) إذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين».

«(عن عائشة:) كانت فاطمة إذا دخلت على النبي ﷺ قام لها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامت إليه وأجلسته في مجلسها».

«(عن أبى الطفيل:) رأيت النبي وأنا غلام، فدنت منه امرأة، فبسط لها رداءه، فجلست عليه. فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التى أرضعته».

«(لما جيء بأخت الرسول من الرضاعة في سبايا هوازن وتعرفتْ إليه بسط لها رداءه و قال لها:) إن أحببتِ أقمتِ عندنا مكرمة مُحَبَّة، أو متَّعْتُكِ ورجعتِ إلى قومك»، فاختارت قومها، فمتَّعها».

«كان إذا أُتِيَ بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة. إنها كانت تحب خديجة».

«(عن أبي سعيد الخدري أن النبى ﷺ قال:) إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدّ. قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

«يسلِّم الراكب على الماشي، وفي رواية: يسلم الصغير على الكبير والماشي على القاعد، والقليل على الكثير».

«لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يقعد فيه، ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا يَفْسَح الله لكم».

«إذا انتهى أحدكم إلى مجلسٍ فلْيُسَلِّم. فإن بدا له أن يجلس فلْيجلس، ثم إذا قام فلْيُسَلِّم، فليست الأولى بأحقَّ من الثانية».

«إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به».

«وَفَدَ وَفْدٌ للنجاشي، فقام رسول الله يخدمهم، فقال له أصحابه: نحن نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمين، وإني أحب أن أكافئهم».

«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه».

«تبسُّمك في وجه أخيك صدقة».

«كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

«(قال أبو عياش الزرقي:) كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، وعلى المشركين خالد ابن الوليد، قال: فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد كانوا على حال لو أردنا لأصبنا غفلة. فأُنْزِلَتْ آية القَصْرِ بين الظهر والعصر، فأخذ الناس السلاح وصَفُّوا خلف رسول الله ﷺ مستقبلي القبلة، والمشركون مستقبلوهم. فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّروا جميعا، ثم ركع وركعوا جميعا، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعا، ثم سجد و سجد الصف الذي يليه، وقام الآخرون يحرسونهم. فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء، ثم نكص الصف الذي يليه، وتقدم الآخرون فقاموا في مقامهم، وركع رسول الله ﷺ فركعوا جميعا، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعا، ثم سجد و سجد الصف الذي يليه، وقام الآخرون يحرسونهم. فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء الآخرون، ثم اسْتَوَوْا معه فقعدوا جميعهم، ثم سلم بهم جميعا. فصلى بعسفان، وصلاها يوم بني سليم».

«لما انكفأ المشركون من أحد قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوُوا حتى أُثْنِيَ على ربي»، فصاروا خلفه صفوفا، فقال: اللهم لك الحمد كله. وفيه: اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك، واجعل عليهم رِجْزَكَ وعذابك. اللهم عَذِّب الكَفَرة، إلهَ الحق».

«من زار قوما فلا يَؤُمَّهم، ولْيَؤُمَّهم رجل منهم».

«إذا حضرتِ الصلاة فلْيُؤَذِّن لكم أحدكم، وليَؤُمَّكم أقرؤكم».

«(عن عبد الله بن زيد الأنصارى:) لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعْمَل ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى، فقال: تقول: الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله. حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح، حَيَّ على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله، ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: ثم تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحتُ أتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله. فقم مع بلال، فألق عليه ما رأيتَ، فليؤذِّن به، فإنه أندى صوتا منك».

«إذا سافرتم فليؤمَّكم أقرؤكم، وإن كان أصغركم. وإذا أمَّكم فهو أميركم».

«من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلْنا أو ليعتزلْ مسجدنا، وليقعدْ في بيته».

«عن المغيرة بن شعبة قال: أكلت ثوما ثم أتيت مصلى رسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني بركعة، فلما قمت أقضي ـ وجد ريح الثوم، فقال: من أكل من هذه البقلة فلا يقربنَّ مسجدنا حتى يذهب ريحها».

«ما مسستُ حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحا قط أو عَرْفًا قط أطيب من ريحِ أو عَرْفِ النبي ﷺ».

«حوضي من كذا إلى كذا، فيه من الآنية عدد النجوم، أطيب ريحا من المسك، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه شربة لم يظمأ أبدا، ومن لم يشرب منه لم يَرْوَ أبدا».

«إن هذا (أى يوم الجمعة) يوم عيد جعله الله للمسلمين. فمن جاء الجمعة فليغتسل، وإن كان عنده طيب فلْيَمَسَّ منه. وعليكم بالسواك».

«من غسل ميتا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ».

«نهى (رسول الله ﷺ) عن البول في الماء الدائم ثم الاغتسال منه، ونهى عن اغتسال الجنب فيه، وأمر المستيقظ من نوم الليل ألا يغمس يده فيه، وأمر بإراقة الإناء من ولوغ الكلب فيه».

«الإسلام: إقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و حج البيت، و صوم شهر رمضان، والاغتسال من الجنابة».

«إن أمتي يُدْعَوْن يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء. فمن استطاع منكم أن يُطِيل غُرَّته فليفعل».

«إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، واجعل الماء بين أصابع يديك ورجليك».

«لا يبولنّ أحدكم في الماء الراكد».

ويدخل فى الذوق الفنون من غناء وتصوير ونحت وشعر ونثر... ولسوف أتناول الفنون الآن من حيث حكمها فى الإسلام. ولسوف أقتصر منها على الغناء والتصوير والنحت، وهى الفنون التى يحرمها بعض العلماء ويرى أنها لا يمكن أن تتسق مع الإسلام، بخلاف العمارة والنقوش والتوريق والتكفيت والخطوط الجميلة مما لا يمارى فى حِلّه أحد. ونبدأ بفن الصوت الجميل، وهو الغناء، و ها هى ذى بعض النصوص التى وردت فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك الفن:

«زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا».

«مر النبي ﷺ على أبي موسى ذات ليلة وهو يقرأ فقال: إن عبد الله بن قيس (أو الأشعري) أُعْطِيَ مزمارا من مزامير داود. فلما أصبح ذكروا ذلك له فقال: لو كنتَ أعلمتَني لحبَّرْتُ ذلك تحبيرا».

«زَوَّجَتْ عائشـــةُ ذاتَ قرابة لها من الأنصـــار، فجاء رســـول الله فقال: أَهْدَيْتُم الفتاة؟ قالوا: نعم. قال: أرســـلتم معها من يغنّي؟ قالت: لا. فقال رســـول الله: إن الأنصـــار قوم فيهم غَزَل. فلو بعثتم معهـا من يقول: أتينـاكم أتينـاكم، فحيـانـا وحياكم».

«دخل عليَّ رسـول الله ﷺ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعَاث، فاضـطجع على الفراش وحوَّل وجهه. ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشـيطان عند النبي ﷺ؟ فأقبل عليه رســول الله عليه الســلام فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا. وكان يوم عيد يلعب الســودان بالدرق والحراب، فإما ســألت النبي ﷺ وإما قال: تشــتهين تنظرين؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة. حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم، قال: فاذهبي».

«(عن بريدة) أن النبي ﷺ غزا، فنذرت أَمَةٌ سـوداءُ إنْ رده الله سـالما أن تضربـب عنده بالدف. فرجع ســالما غانما، فأخبرَته، فقال: إن كنتِ فعلتِ فافعلي، وإلا فلا. فقالت: يا رســول الله، قد فعلتُ. فضَرَــبَتْ، فدخل أبو بكر وهي تضربــب. ودخل عمر وهي تضربــب، فألقت الدف وجلســت عليه مُقْعِيَة. فقال رســول الله ﷺ: أنا هاهنا، وأبو بكر هاهنا، وهؤلاء هاهنا. إني لأحسب الشيطان يَفْرَق منك يا عمر».

«بعثني الله رحمة وهدى للعالمين، وبعثني لمحق المعازف والمزامير وأَمْر الجاهلية. ثم قال: من شرب خمرا في الدنيا سقاه الله كما شرب منه من حميم جهنم».

وهناك خلاف شــديد حول حِلِّيّة هذا الفن ما بين محرّم له متشــدد فى التحريم، ومحلل بشرـوط: فأما المتشــددون فمعروفةٌ مواقِفُهم وحُجَجُهم، فهم يســتندون إلى بعض الآيات والأحاديث التى تنهى عن الغناء أو يفهمون منها ذلك. وأما المبيحون فلا يبيحون هذا الفن دون ضـوابط، بل لهم شروطهم. وهم فى أثناء ذلك يحرصـون على الرد على كل ما قاله الناهون بالتفصيل. وسوف أكتفى هنا بآراء المجوِّزين، ومن خلال هذه الآراء ســنطلع على ماقاله الطرف الآخر. قال ابن حزم فى رســالة له صغيرة اسمها: «رسالة الغناء الــمُلْهِي: أمباحٌ هو أم محظور؟»: «أما بعد، أيدك الله وإياي بتوفيقه، وأعاننا بلطفه على أداء حقوقه، فإنك رغبت أن أقدم لك في الغناء الملهي: أمباح هو أم من المحظور؟ فقد وردتْ أحاديث بالمنع منه وأحاديث بإباحته. وأنا أذكر الأحاديث المانعة وأنبّه على عللها، وأذكر الأحاديث المبيحة له وأنبه على صحتها إن شاء الله، والله موفق للصواب.

فالأحاديث المانعة:

1 –ما روى ســعيد بن أبي رزين عن أخيه عن ليث بن أبي ســليم عن عبد الرحمن بن سابط عن النبي عليه السلام أنه قال: إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها.

2-وروى لاحق بن حسين بن عمر أن ابن أبي الورد المقدسي قال: ثنا أبو المرجى ضرار بن علي بن عمير القاضي الجيلاني ثنا أحمد بن سعيد عن محمد بن كثير الحمصي ثنا فرج بن فضالة عن يحيى بن سعيد عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله: «إذا عملتْ أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء: إذا كان المال دولاً، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته، وعَقَّ أمه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أذلهم، وأُكْرِم الرجل مخافة شَرّه، ولبست الحرير واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليتوقعوا عند ذلك ريحًا حمراء ومسخًا وخسفًا».

3-وروى أبو عبيدة بن فضيل بن عياض ثنا أبو سعيد مولى بني هاشم هو عبد الرحمن بن عبد الله انبا عبد الرحمن بن العلاء عن محمد بن المهاجر عن كيسان مولى معاوية ثنا معاوية أن رسول الله ﷺ نهى عن تِسْعٍ، وأنا أنهاكم عنهن: ألا إن منهن الغناء والنوح والتصاوير والشعر والذهب وجلود السباع والخَزّ والحرير.

4-وروى سلام بن مسكين عن شيخٍ شهد ابن مسعود يقول: الغناء ينبت النفاق في القلب.

5-وروى عبد الملك بن حبيب ثنا عبد العزيز الأُوَيْسِيّ- عن إسماعيل بن عيّاش عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا اتخاذهن. وثمنهن حرام. وقد أنزل الله ذلك في كتابه: «ومِن الناس من يشتري لَهْو الحديث ليُضِلّ عن سبيل الله بغير علم» (لقمان/ 6). والذي نفسي بيده ما رفع رجلٌ عقيرته بالغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما صدره وظهره حتى يسكت».

6-وبه إلى عبد الملك بن حبيب عن الأويسي- عن عبد الله بن عمير بن حفص بن عاصم أن رسول الله قال: «إن المغني أُذُنه بيد شيطان يرعشه حتى يسكت».

7-وبه إلى عبد الملك بن حبيب ثنى ابن معين عن موسى بن أعين عن القاسم عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم تعليم المغنيات وشراءهن وبيعهن وأكل أثمانهن».

8-وذكر البخاري قال: قال هشام بن عمار ثنا صدقة بن خالدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثنا عطية بن قيس الكلابي ثنا عبد الرحمن بن غنم الأشعري ثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري أنه سمع النبي عليه السلام يقول: «ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف».

9-وروى ابن شعبان ثني ابراهيم بن عثمان بن سعيد ثني أحمد بن الغمر بن أبي حماد بحمص ويزيد بن عبد الصمد قالا ثنا عبيد بن هاشم الحلبي، هو أبو نعيم، ثنا عبد الله بن المبارك عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس قال: قال رسول الله: «من جلس إلى قينة صُبَّ في أذنيه الآنُكَ يوم القيامة».

10-وبه إلى ابن شعبان ثني عمي ثنا أبو عبد الله الدوري ثنا عبيد الله القواريري ثنا عمران بن عبيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله عز وجل: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضِلّ عن سبيل الله»، قال: الغناء.

11-وروى ابن أبي شيبة أبو بكر ثنا زيد بن الحباب ثنا معاوية صالح عن حاتم بن حريث عن ابن أبي مريم قال: دخل علينا عبد الرحمن بن غنم فقال: أنبأنا أبو مالك الأشعري أنه سمع النبي عليه السلام يقول: «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، تُضْرَب على رؤوسهم المعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض».

12-وحديث فيه: « أن الله تعالى نهى عن صوتين ملعونين: صوت نائحة، وصوت مغنية».

وكل هذا لا يصح منه شيء، وهي موضوعة:

1-أما حديث عائشة رضي الله عنها ففيه سعيد بن أبي رزين عن أخيه، وكلاهما لا يدري أحد مَنْ هما.

2-وأما حديث علي رضي الله عنه فجميع من فيه إلى يحيى بن سعيد لا يُدْرَى من هم. ويحيى بن سعيد لم يرو عن محمد بن الحنفية كلمة ولا أدركه.

3-وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه ففيه شيخ لم يُسَمَّ، ولا يعرفه أحد.

4-وأما حديث معاوية فإن فيه كيسان، ولا يُدْرَى من هو، ومحمد بن مهاجر، وهو ضعيف. وفيه النهي عن الشّعْر، وهم يبيحونه.

5، 6، 7-وأما أحاديث عبد الملك بن حبيب فكلها هالكة.

8- أما حديث أبي أمامة ففيه إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف، والقاسم، وهو مثله.

9-وأما حديث البخاري فلم يورده البخاري مُسْنَدًا، وإنما قال فيه: قال هشام ابن عمار ثم إلى أبي عامر أو إلى أبي مالك، ولا يُدْرَى أبو عامر هذا.

10-وأما أحاديث ابن شعبان فهالكة.

11-وأما حديث أنس فبَلِيَّةٌ لأنه عن مجهولين، ولم يروه أحد قط عن مالك من ثقات أصحابه، والثاني عن مكحول عن عائشة، ولم يلقها قط ولا أدركها، وفيه أيضًا من لا يُعْرَف، وهو هاشم بن ناصح وعمر بن موسى، وهو أيضًا منقطع. والثالث عن أبي عبد الله الدوري، ولا يُدْرَى من هو.

12-وأما حديث ابن أبي شيبة ففيه معاوية بن صالح، وهو ضعيف، ومالك ابن أبي مريم، ولا يُدْرَى من هو.

13-وأما النهي عن صوتين فلا يُدْرَى من رواه. فسقط كل ما في هذا الباب جملة.

14-وأما تفسير قول الله تعالى: «ومِنَ الناس مَنْ يشتري لَهْوَ الحديث» بأنه الغناء فليس عن رسول الله، ولا ثبت عن أحد من أصحابه، وإنما هو قول بعض المفسرين ممن لا يقوم بقوله حجة. وما كان هكذا فلا يجوز القول به. ثم لو صح لما كان فيه متعلَّق لأن الله تعالى يقول: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وكل شيء يُقْتَنَى ليُضَلّ به عن سبيل الله فهو إثم وحرام، ولو أنه شراء مصحف أو تعليم قرآن، وبالله التوفيق.

فإذا لم يصح في هذا شيء أصلاً فقد قال تعالى ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 119]، وقال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] وقال رسول الله ﷺ من طريق سعد بن أبي وقاص، وطريقه ثابتة، «إن من أعظم الناس جرمًا في الإسلام من سأل عن شيء لم يحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»، فصح أن كل شيء حرّمه تعالى قد فصّله لنا، وما لم يفصّل لنا تحريمه فهو حلال.

1-وخرج مسلم بن الحجاج قال ثني هارون بن سعيد الأيلي ثنا عبد الله بن وهب عمرو، وهو ابن الحارث، أن ابن شهاب حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين، أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جاريتان تغنيان في أيام مِنًى وتضربان، ورسول الله مُسَجًّى بثوبه، فنهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله عنه فقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد.

2-وبه إلى عمرو بن الحارث أن محمد بن عبد الرحمن حدثه عن عروة عن عائشة قال: دخل رسول الله وعنده جاريتان تغنيان بغناء بُعَاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله؟ فأقبل عليه فقال: دعهما. فإن قيل إن أبا أسامة روى هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه فقال فيه: «وليستا بمغنيتين»، قيل: قد قالت عائشة: «تغنيان»، فأثبتت الغناء لهما. فقولها: وليستا بمغنيتين، أي ليستا بمحسنتين. وقد سمع رسول الله قول أبي بكر: «مزمار الشيطان؟»، فأنكر عليه، ولم ينكر على الجاريتين غناءهما. وهذا هو الحجة التي لا يسع أحدا خلافُها، ولا يزال التسليم لها.

3-وروى أبو داود السجستاني ثنا أحمد بن عبيد العداني ثنا الوليد بن مسلم ثنا سعيد بن عبد العزيز ثنا سليمان بن موسى عن نافع قال: سمع ابن عمر مزمارًا فوضع إصبعيه في أذنيه ونأى عن الطريق، وقال: يا نافع، هل تسمع شيئًا؟ قال: لا. فرفع إصبعيه وقال: كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا، فصنع مثل هذا. فلو كان حرامًا ما أباح رسول الله لابن عمر سماعه، ولا أباح ابن عمر لنافع سماعه، ولكنه عليه السلام كره لنفسه كل شيء ليس من التقرب إلى الله كما كره الأكل متكئًا، والتنشف بعد الغسل في ثوب يُعَدّ لذلك، والستر الموشى على سدة عائشة وعلى باب فاطمة رضوان الله عليهما، وكما كره أشد الكراهية عليه السلام أن يبيت عنده دينار أو درهم. وإنما بُعِث عليه السلام منكرًا للمنكر وآمرًا بالمعروف.

فلو كان ذلك حرامًا لما اقتصر عليه السلام أن يسد أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه. فلم يفعل عليه السلام شيئًا من ذلك بل أقره وتنزه عنه، فصح أنه مباح وأن تركه أفضل كسائر فضول الدنيا المباحة، ولا فرق.

4-وروى مسلم بن الحجاج قال ثنا زهير بن حرب ثنا جرير ابن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قال: جاء حبشٌ يزفنون في المسجد في يوم عيد، فدعاني رسول الله فوضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي انصرفت عن النظر به إليهم.

5-وروى سفيان الثوري وشعبة كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي عن عامر بن سعد البجلي أن أبا مسعود البدري وقرظة بن كعب وثابت بن زيد كانوا في العريش، وعندهم غناء، فقلت: هذا، وأنتم أصحاب رسول الله؟ فقالوا: إنه رُخِّص لنا في الغناء في العرس، والبكاء على الميت في غير نوح، إلا أن شعبة قال: «ثابت بن وديعة» مكان ثابت بن زيد، ولم يذكر أبا مسعود.

6-وروى هشام بن زيد ثنا حسان عن محمد بن سيرين قال: إن رجلاً قدم المدينة بجَوَارٍ، فنزل على ابن عمر، وفيهم جارية تضرب، فجاء رجل فساومه فلم يَهْوَ منهن شيئًا. قال: انطلقْ إلى رجل هو أمثل لك بيعًا من هذا. فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه، فأمر جارية فقال: «خذي»، فأخذت حتى ظن ابن عمر أنه قد نظر إلى ذلك، فقال ابن عمر: حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان. فبايعه ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني غُبِنْتُ بتسعمائة درهم. فأتى ابن عمر مع الرجل إلى المشتري فقال له إنه غُبِن في تسعمائة درهم، فإما أن تعطيها إياه وإما أن ترد عليه بيعه. فقال: بل نعطيها إياه. فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود. وإن كان ابن عمر كره ما ليس من الجِدّ فلم ينه عنه. وقد سَفَر في بيع مغنية كما ترى، ولو كان حرامًا ما استجاز ذلك أصلاً.

فإن قال قائل: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[يونس: 32]، ففي أي ذلك يقع الغناء؟ قيل له: حيث يقع التروح في البساتين وصباغ ألوان الثياب وكل ما هو من اللهو. قال رسـول الله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». فإذا نوى المرء بذلك ترويح نفسه وإجمالها لتقوى على طاعة الله عز وجل فما أتى ضلالاً. وقد قال أبو حنيفة: من سرق مزمارًا أو عودًا قُطِعَتْ يده، ومن كسرهما ضَمِنَهما. فلا يحل تحريم شيء ولا إباحته إلا بنص من الله تعالى أو من رسـوله عليه السـلام لأنه إخبار عن الله تعالى، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى

إلا بالنص الذي لا شك فيه. وقد قال رسول الله: «ومن كذب علي متعمّدًا فليتبوأ مقعده من النار». قال أبو بكر عبد الباقي بن بريال الحجاري رضي الله عنه: ولقد أخبرني بعض كبار أهل زمانه أنه قال: أخذتُ النسخة التي فيها الأحاديث الواردة في ذم الغناء والمنع من بيع المغنيات وما ذكره فيها أبو محمد رضي الله عنه، ونهضت بها إلى الإمام الفقيه أبي عمر بن عبد البر ووقفته عليها أيامًا ورغّبته في أن يتأملها، فأقامت النسخة عنده أيامًا ثم نهضتُ إليه فقلت: ما صنعتَ في النسخة؟ فقال: وجدتها فلم أجد ما أزيد فيها وما أنقص».

ومن الفقهاء المعاصرين يقول الشيخ شلتوت، رحمه الله رحمة واسعة، فى كتابه: «الفتاوى» (ط18/ دار الشروق/ 1424هـ- 2004م/ 355- 358) مع بعض التصرف: «الأصل الذي أرجو أن يُتنبَّه إليه في هذا الشأن وأمثاله مما يختلفون في حِلِّهِ وحُرمته هو أن الله خلَق الإنسان بغريزة يَميل بها إلى المستلَذّات والطيبات التي يَجِدُ لها أثرًا طيبًا في نفسه به يهدأ، وبه يرتاح، وبه ينشط، وبه تسكن جوارحه. فتراه ينشرح بالمناظر الجميلة، كالخُضرة المُنَسَّقَة والماء الصافي الذي تلعب أمواجه، والوجه الحَسَن الذي تنْبسط أ ساريرُه، وينشرح صدرُه بالروائح الزكيَّة التي تُحْدِث خِفَّةً في الجسم والروح،

وينشرح صدره بلَمْسِ النُّعومة التي لا خُشونة فيها، وينشرح صدره بلذَّة المَعرفة في الكشــف عن مجهول مَخْبُوءٍ، وتراه بعد هذا مَطبوعًا على غريزة الحب لمُشــتهيات الحياة وزينتها من النســاء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضــة، والخيل المسومة والأنعام والحرْث.

ولعلَّ قيام الإنسان بمُهمته في هذه الحياة ما كانت لِتَتِمَّ على الوجه الذي لأجله خلَقه الله إلا إذا كان ذا عاطفة غريزية، تُوَجّهه نحو المشتَهَيَات، وتلك المُتَع التي خلقها الله معه في الحياة، فيأخذ منها القَدْر الذي يحتاجه وينفعه. ومن هنا قضــت الحِكمة الإلهية أن يُخْلَق الإنســان بتلك العاطفة، وصــار من غير المعقول أن يَطْلُب الله منه، بعد أن خلَقه هذا الــخَلْق، وأودع فيه لحِكمته السامية هذه العاطفة، نزْعَها أو إِمَاتتها أو مكافحتها في أصــلها، وبذلك لا يُمكن أن يكون من أهداف الشرــائع الســماوية، في أيِّ مرحلة من مراحل الإنسانية، طلبُ القضاء على هذه الغريزة الطبيعية التي لابد منها في هذه الحياة. نعم للشرـائع السـماوية بإزاءِ هذه العاطفة مَطلب آخر يتلخص في كبْح الجماح. ومعناه: مكافحة الغريزة عن الحدِّ الذي ينســى به الإنســان واجباتِه، أو يُفْسِــد عليه أخلاقه، أو يَحُول بينه وبين أعمال هي له في الحياة أَلْزمُ، وعليه أوجب.

ذلك هو موقفُ الشرائع السماوية مِن الغريزة. وهو موقف الاعتدال والقَصْد لا موقف الإفْراط ولا مَوقف التفريط. هو موقف التنظيم لا موقف الإماتة والانتزاع. هذا أَصْلٌ يجب أن يُفْهَم، ويجب أن تُوزَن به أهداف الشريعة السماوية. وقد أشار إليه القرآن في كثير من الجُزئيات ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾. ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾. وإذنْ فالشريعة تُوجِّه الإنسان في مُقتضيات الغريزة إلى الحدِّ الوسَط، فهي لم تنزل لانتزاع غريزة حُبِّ المال. إنما نزلت بتَعديلها على الوجه الذي لا جشَع فيه ولا إسراف. وهي لم تنزل لانتزاع الغريزة في حُبِّ المناظر الطيبة ولا المسموعات المستلذة، وإنما نزلت بتهذيبها وتعديلها على ما لا ضرر فيه ولا شر. وهي لم تنزل لانتزاع غريزة الحُزْن، وإنما نزلت بتعديلها على الوجه الذي لا هلَع فيه ولا جزَع. وهكذا وقفت الشريعة السماوية بالنسبة لسائر الغرائز. وقد كلَّف الله العقل، الذي هو حُجته على عباده، بتنظيمها على الوجه الذي جاء به شرْعه ودينه. فإذا مال الإنسان إلى سماع الصوت الحسن أو النغم المستلذ من حيوان أو إنسان أو آلة كيفما كانت أو مالَ إلى تعلُّم شيء من ذلك فقد أدَّى للعاطفة حقَّها. وإذا ما وقف بها مع هذا عند الحدِّ الذي لا يصرفه عن الواجبات الدينية أو الأخلاق الكريمة

أو المكانة التي تتَّفِق ومركزه كان بذلك مُنظِّمًا لغريزته، سائرًا بها في الطريق السوي، وكان مَرْضِيًّا عند الله وعند الناس. بهذا البيان يتَّضِح أن موقف الشاب في تعلُّم الموسيقى، مع حرصه الشديد على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وعلى أعماله المكلف بها، موقف (كما قلنا) نابعٌ من الغريزة التي حكَمها العقل بشرع الله وحكمه، فنزلت على إرادته. وهذا هو أسمى ما تطلبه الشرائع السماوية من الناس في هذه الحياة.

ولقد كنتُ أرى أن هذا القدْر كافٍ في معرفة حكم الشرع في الموسيقى وفي سائر ما يُحب الإنسان ويهوَى بمقتضى غريزته لولا أن كثيرًا من الناس لا يكتفون، بل ربما لا يؤمنون بهذا النوع من التوجيه في معرفة الحلال والحرام، وإنما يقنعهم عرض ما قيل في الكتب وأُثِر عن الفقهاء. وإذا كان ولا بد فليعلموا أن الفقهاء اتفقوا على إباحة السماع في إثارة الشوق إلى الحج، وفي تحريض الغُزَاة على القتال، وفي مناسبات السرور المألوفة كالعيد والعُرْس وقدوم الغائب وما إليها. ورأيناهم فيما وراء ذلك على رأيينِ: يُقَرّر أحدهما الحُرْمة، ويستند إلى أحاديث وآثار. ويُقرر الآخر الحِلّ، ويستند كذلك إلى أحاديث وآثار. وكان من قول القائلين بالحِلِّ: «إنه ليس في كتاب الله ولا سُنة رسوله ولا في معقولهما من القياس والاستدلال ما يقتضي- تحريم مُجرَّد سماع الأصوات الطيبة الموزونة مع آلة من الآلات». وقد تعقَّبوا جميع أدلة القائلين بالحُرمة، وقالوا: إنه لم يصحَّ منها شيء.

وقد قرأت في هذا الموضوع لأحد فقهاء القرن الحادي عشر ـ المعروفين بالورَع والتقوى رسالة هي: «إيضاح الدلالات في سماع الآلات» للشيخ عبد الغني النابلسي ـ الحنفي قرر فيها أن الأحاديث التي استدل بها القائلون بالتحريم، على فرض صحتها، مُقَيَّدة بذِكْر الملاهي وبذكر الخمر والقيْنات والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك. وعليه كان الحُكْم عنده في سماع الأصوات والآلات المُطرِبة أنه إذا اقترن بشيء من المُحرَّمات، أو اتُّخذ وسيلةً للمُحرَّمات، أو أَوْقعَ في المحرمات كان حرامًا، وأنه إذا سلِم من كل ذلك كان مباحًا في حضوره وسماعه وتعلُّمه. و قد نُقل عن النبي ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء، أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والـمُحَرَّم. وذهب إلى مثل هذا كثير من الفقهاء. وهو يُوافق تمامًا في المغزى والنتيجة الأصل الذي قرَّرناهُ في موقف الشريعة بالنسبة للغرائز الطبيعية.

وإذن فسماع الآلات ذات النغمات أو الأصوات الجميلة لا يُمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان أو صوت حيوان. وإنما يُحَرَّم إذا استُعِين به على محرَّم أو اتُّخِذ وسيلةً إلى محرَّم أو ألْهَى عن واجب. وهكذا يجب أن يعلم الناس حُكْم الله في مثل هذه الشؤون. ونرجو بعد ذلك ألا نسمع القول يُلْقَى جزافًا في التحليل والتحريم، فإن تحريم ما لم يُحَرّمه الله أو تحليل ما حرَّمه الله كلاهما افتراءٌ وقوْلٌ على الله بغير علم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 33].

ومن الفقهاء المعاصرين كذلك د. القرضاوى، الذى عالج هذه المسألة فى كتابه: «الإسلام والفن»، والذى ننقل كلامه هنا أيضا بشىء من التصرف. قال: «ما حكم الإسلام في الغناء والموسيقي؟ سؤالٌ يتردد على ألسنة كثيرين في مجالات مختلفة وأحيان شتى، سؤالٌ اختلف جمهور المسلمين اليوم في الإجابة عليه، واختلف سلوكهم تبعًا لاختلاف أجوبتهم: فمنهم من يفتح أذنيه لكل نوع من أنواع الغناء ولكل لون من ألوان الموسيقي مدعيًا أن ذلك حلال طيب من طيبات الحياة أباحه الله لعباده. ومنهم من يغلق الراديو أو يغلق أذنيه عند سماع أية أغنية قائلا: إن الغناء مزمار الشيطان ولهو الحديث، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وخاصة إذا كان المغني امرأة. فالمرأة عندهم صوتها عورة بغير الغناء، فكيف بالغناء؟ ويستدلون لذلك بآيات وأحاديث وأقوال. ومن هؤلاء من يرفض أي نوع من أنواع الموسيقى حتى المصاحِبة لمقدمات نشرات الأخبار. ووقف فريق ثالث مترددًا بين الفريقين: ينحاز إلى هؤلاء تارة، وإلى أولئك طورًا، ينتظر القول الفصل والجواب الشافي من علماء الإسلام في هذا الموضوع الخطير الذي يتعلق بعواطف الناس وحياتهم اليومية، وخصوصًا بعد أن دخلت الإذاعة: المسموعة والمرئية على الناس بيوتهم بِجِدّها وهَزْلها، وجذبت إليها أسماعهم بأغانيها وموسيقاها طوعًا وكرهًا.

والغناء بآلة، أي مع الموسيقى، وبغير آلةٍ مسألةٌ ثار فيها الجدل والكلام بين علماء الإسلام منذ العصور الأولى، فاتفقوا في مواضع واختلفوا في أخرى: اتفقوا على تحريم كل غناء يشتمل على فحش أو فسق أو تحريض على معصية، إذ الغناء ليس إلا كلامًا: فحَسَنُه حَسَنٌ، وقبيحه قبيح. وكل قول يشتمل على فحشٍ حرامٌ، فما بالك إذ اجتمع له الوزن والنغم والتأثير؟ واتفقوا على إباحة ما خلا من ذلك من الغناء الفطري الخالي من الآلات و الإثارة، وذلك في مواطن السرور المشروعة كالعرس وقدوم الغائب وأيام الأعياد ونحوها بشرط ألا يكون المغني امرأة في حضرة أجانب منها. وقد وردت في ذلك نصوص صريحة سنذكرها فيما بعد. واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافًا بيّنًا: فمنهم من أجاز كل غناء بآلة وبغير آلة، ومنهم من منعه منعًا باتًّا بآلة وبغير آلة، وعده حرامًا، بل ربما ارتقي به إلى درجة «الكبيرة». ولأهمية الموضوع نرى لزامًا علينا أن نفصل فيه بعض التفصيل، ونلقي عليه أضواء كاشفة لجوانبه المختلفة حتى يتبين المسلم الحلال فيه من الحرام، مُتّبِعًا للدليل الناصع، لا مقلدًا قول قائل. وبذلك يكون على بينة من أمره، وبصيرة من دينه.

قرر علماء الإسلام أن الأصل في الأشياء الإباحة لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ، و لا تحريم إلا بنص صحيح صريح من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله صلي الله عليه و آله و سلم، أو إجماع ثابت متيقن. فإذا لم يرد نص و لا إجماع، أو ورد نص صريح غير صحيح، أو صحيح غير صريح، بتحريم شيء من الأشياء لم يؤثر ذلك في حله، وبقي في دائرة العفو الواسعة. قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو. فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا»، وتلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾. وقال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحَدَّ حدودًا فلا تَعْتَدُوها، وسكت عن أشياءَ رحمةً بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها». وإذا كانت هذه هي القاعدة، فما هي النصوص و الأدلة التي استند إليها القائلون بتحريم الغناء؟ وما موقف المجيزين منها؟

استدل المحرِّمون بما رُوِيَ عن ابن مسعود وابن عباس وبعض التابعين: أنهم حرموا الغناء محتجين بقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

وفسروا لهو الحديث بـ«الغناء». قال ابن حزم: «ولا حجة في هذا لوجوه: أحدها أنه لا حجة لأحد دون رسول الله صلي الله عليه و آله وسلم. والثاني أنه قد خالف غيرهم من الصحابة والتابعين. والثالث أن نص الآية يبطل احتجاجهم بها لأن فيها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾. وهذه صفةٌ مَنْ فَعَلها كان كافرًا بلا خلاف، إذ اتخذ سبيل الله هزوًا. قال: «ولو أن امرءًا اشترى مصحفًا ليضل به عن سبيل الله ويتخذه هزوًا لكان كافرًا! فهذا هو الذي ذم اللهُ تعالى، وما ذَمَّ قَطُّ عز و جل مَنْ اشترى لهو الحديث ليتلهى به ويروّح نفسه لا ليضل عن سبيل الله تعالى. فبطل تعلقهم بقول هؤلاء. وكذلك من ا شتغل عامدًا عن الصلاة بقراءة القرآن أو بقراءة السنن أو بحديث يتحدث به أو بغناء أو بغير ذلك فهو فاسقٌ عاصٍ لله تعالى. ومن لم يضيع شيئًا من الفرائض اشتغالا بما ذكرنا فهو محسن».

واستدلوا بقوله تعالى في مدح المؤمنين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ ﴾، والغناء من اللغو، فوجب الإعراض عنه. ويجاب بأن الظاهر من الآية أن اللغو سفه القول من السب والشتم ونحو ذلك، وبقية الآية تنطق بذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾. فهي شبيهة بقوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾.

ولو سلّمنا أن اللغو في الآية يشمل الغناء لوجدنا الآية تستحب الإعراض عن سماعه، وليس فيها ما يوجب ذلك. وكلمة «اللغو»، ككلمة «الباطل»، تعني ما لا فائدة فيه. وسماعُ ما لا فائدة فيه ليس محرّمًا ما لم يضيّع حقا أو يشغل عن واجب. رُوِيَ عن ابن جريج أنه كان يرخِّص في السماع، فقيل له: أيؤتى به يوم القيمة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبيه باللغو. قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ . قال الإمام الغزالي: «إذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القَسَم من غير عقد عليه ولا تصميم، والمخالفة فيه، مع أنه لا فائدة فيه، لا يؤاخَذ به، فكيف يؤاخَذ بالشعر والرقص؟».

على أننا نقول: ليس كل غناءٍ لغوًا. إنه يأخذ حكمه وفق نية صاحبه: فالنية الصالحة تحيل اللهو قربة، والمزح طاعة. والنية الخبيثة تحبط العمل الذي ظاهره العبادة، وباطنه الرياء: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». و ننقل هنا كلمة جيدة قالها ابن حزم في «المحلَّى» ردا على الذين يمنعون الغناء. قال: «احتجوا فقالوا: من الحق الغناء أم من غير الحق؟ ولا سبيل إلى قسم ثالث. وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

فجوابنا، وبالله التوفيق، أن رسول الله صلي الله عليه و آله وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى». فمن نوى باستماع الغناء ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل، وينشط نفسه بذلك على البر، فهو مطيع محسن، وفِعْله هذا من الحق. ومن لم ينو طاعة ولا معصية فهو لغوٌ معفوٌّ عنه كخروج الإنسان إلى بستانه، وقعوده على باب داره متفرجًا، وصبغه ثوبه لا زورديًّا أو أخضر أو غير ذلك، ومدّ ساقه وقبضها، وسائر أفعاله.

واستدلوا بحديث «كل لهو يلهو به المؤمن فهو باطل إلا ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله، و تأديبه فرسه، و رميه عن قوسه»، والغناء خارج عن هذه الثلاثة. وأجاب المجوِّزون بضعف الحديث، ولو صح لما كان فيه حجة، فإن قوله: «فهو باطل» لا يدل على التحريم، بل يدل على عدم الفائدة. فقد ورد عن أبي الدرداء قوله: «إني لأستجمّ نفسي بالشيء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق». على أن الحصر في الثلاثة غير مراد، فإن التلهي بالنظر إلى الحبشة وهم يرقصون في المسجد النبوي خارج عن تلك الأمور الثلاثة، وقد ثبت في الصحيح. ولا شك أن التفرج في البساتين و سماع أصوات الطيور، وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل، لا يحرم عليه شيء منها، وإن جاز وصفه بأنه باطل.

واستدلوا بالحديث الذي رواه البخاري معلقًا عن أبي مالك أو أبي عامر الأشعري (شكٌّ من الراوي) عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «ليكونن قوم من أمتي يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف». والمعازف: الملاهي أو آلات العزف. والحديث، وإن كان في صحيح البخاري، إلا أنه من «المعلَّقات» لا من «المسندات المتصلة». ولذلك رده ابن حزم لانقطاع سنده. ومع التعليق فقد قالوا: إن سنده ومتنه لم يسلما من الاضطراب. وقد اجتهد الحافظ ابن حجر لوصل الحديث، ووصله بالفعل من تسعة طرق، ولكنها جميعًا تدور على راوٍ تكلم فيه عدد من الأئمة النقاد، ألا وهو هشام بن عمار. وهو، وإن كان خطيب دمشق ومقرئها ومحدِّثها وعالمها، ووثَّقه ابن معين و العجلي، فقد قال عنه أبو داود: حدَّث بأربعمائة حديث لا أصل لها. وقال أبو حاتم: صدوقٌ، وقد تغير. فكان كل ما دُفِع إليه قرأه، وكل ما لُقِّنَه تلقَّن. وكذلك قال ابن سيار. وقال الإمام أحمد: طياش خفيف. وقال النسائي: لا بأس به (وهذا ليس بتوثيق مطلق). ورغم دفاع الحافظ الذهبي عنه قال: صدوقٌ مُكْثِرٌ له ما يُنْكَر. وأنكروا عليه أنه لم يكن يحدّث إلا بأجر! ومثل هذا لا يُقْبَل حديثه في مواطن النزاع، وخصوصًا في أمر عمت به البلوى. ورغم ما في ثبوته من الكلام ففي دلالة كلام آخر، فكلمة «المعازف» لم يُتَّفَق على معناها بالتحديد: ما هو؟

فقد قيل: الملاهي، وهذه مجملة. وقيل: آلات العزف. ولو سلّمنا بأن معناها آلات الطرب المعروفة بآلات الموسيقى، فلفظ الحديث المعلّق في البخاري غير صحيح في إفادة حرمة «المعازف» لأن عبارة «يستحلون»، كما ذكر ابن العربي، لها معنيان: أحدهما يعتقدون أن ذلك حلال، والثاني أن تكون مجازًا عن الاسترسال في استعمال تلك الأمور، إذ لو كان المقصود بالاستحلال المعني الحقيقي لكان كفرًا، فإن استحلال الحرام المقطوع به، مثل الخمر والزنى المعبر عنه بـ«الحِرِ»، كفر بالإجمال.

ولو سَلَّمْنا بدلالتها على الحرمة، فهل يستفاد منها تحريم المجموع المذكور من الحِرِ والحرير والخمر والمعازف، أو كل فرد منها على حدة؟ والأول هو الراجح. فإن الحديث في الواقع ينعى على أخلاق طائفة من الناس انغمسوا في الترف والليالي الحمراء وشرب الخمور، فهم بين خمر ونساء، ولهو وغناء، وخَزٍّ و حرير. ولذا روى ابن ماجه هذا الحديث عن أبي مالك الأشعري باللفظ: «ليشربنّ أناسٌ من أمتي الخمر يسمّونها بغير اسمها، يُعْزَف على رؤوسهم بالمعازف و المغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة و الخنازير». وكذلك رواه ابن حبان في «صحيحه»، والبخاري في «تاريخه». وكل من روى الحديث من طريق غير هشام بن عمار جعل الوعيد على شرب الخمر، وما المعازف إلا مكملة وتابعة.

واستدلوا بحديث عائشة: «إن الله تعالى حرّم القينة (أي الجارية) وبيعها وثمنها وتعليمه». والجواب عن ذلك: أولا أن الحديث ضعيف، وكل ما جاء في تحريم بيع القيان ضعيف. ثانيًا، قال الغزالي: «المراد بالقينة الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب. وغناء الأجنبية للفسّاق ومن يُخَاف عليهم الفتنة حرام. وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محذور. فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث. بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة بدليل ما رُوِيَ في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها، وسيأتي. ثالثًا، كان هؤلاء القيان المغنيات يُكَوِّنَّ عنصرًا هامًّا من نظام الرقيق، الذي جاء الإسلام بتصفيته تدريجيًا، فلم يكن يتفق وهذه الحكمة إقرار بقاء هذه الطبقة في المجتمع الإسلامي. فإذا جاء حديث بالنعي على امتلاك «القينة» وبيعها والمنع منه، فذلك لهدم ركن من بناء «نظام الرق» العتيد.

وا ستدلوا بما روى نافع: أن ابن عمر سمع صوت زمارة راعٍ فو ضع أ صبعيه في أذنيه و عدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع، أتسمع؟ فأقول: «نعم»، فيمضي حتى قلت: «لا»، فرفع يده وعدل راحلته إلى الطريق، وقال: «رأيت ر سول الله صلي الله عليه وآله و سلم يسمع زمارة راعٍ فصنع مثل هذا». والحديث قال عنه أبو داود: حديثٌ مُنْكَرٌ.

ولو صح لكان حجة على المحرِّمين لا لهم، فلو كان سماع المزمار حرامًا ما أباح النبي صلي الله عليه و آله وسلم لا بن عمر سماعه، ولو كان عند ابن عمر حرامًا ما أباح لنافعٍ سماعه ولأَمَرَ عليه السلام بمنع وتغيير هذا المنكر. فإقرار النبي صلي الله عليه وآله و سلم لابن عمر دليل على أنه من الحلال. وإنما تجنب عليه السلام سماعه كتجنبه أكثر المباح من أمور الدنيا، كتجنبه الأكل متكئًا، وأن يبيت عنده دينار أو درهم... إلخ.

واستدلوا أيضًا بما روي: «إن الغناء يُنْبِت النفاق في القلب». ولم يثبت هذا حديثًا عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم، و إنما ثبت قولا لبعض الصحابة أو التابعين، فهو رأي لغير معصوم خالفه فيه غيره. فمن الناس من قال، وبخاصة الصوفية: إن الغناء يرقق القلب، ويبعث الحزن والندم علي المعصية، ويهيج الشوق إلى الله تعالى. ولهذا اتخذوه وسيلة لتجديد نفوسهم، وتنشيط عزائمهم، وإثارة أشوقهم. قالوا: وهذا أمر لا يُعْرَف إلا بالذوق والتجربة والممارسة. ومن ذاق عرف، وليس الخبر كالعِيَان! على أن الإمام الغزالي جعل حكم هذه الكلمة بالنسبة للمغنى لا للسامع، إذ كان غرض المغنى أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه. ومع هذا قال الغزالي: وذلك لا يوجب تحريما، فإن لبس الثياب الجميلة، وركوب الخيل المهملجة، وسائر أنواع الزينة، والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك، ينبت النفاق في القلب، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله. فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا.

واستدلوا على تحريم غناء المرأة خاصة بما شاع عند الناس من أن صوت المرأة عورة. وليس هناك دليل ولا شبه دليل من دين الله على أن صوت المرأة عورة. وقد كان النساء يسألن رسول الله ﷺ في ملإ من أصحابه، وكان الصحابة يذهبون إلى أمهات المؤمنين ويستفتونهن ويفتينهم ويحدثنهم، ولم يقل أحد إن هذا من عائشة أو غيرها كشفٌ لعورةٍ يجب أن تُسْتَرَ. فإن قالوا: هذا في الحديث العاديّ لا في الغناء، قلنا: روى «الصحيحان» أن النبي سمع غناء الجاريتين ولم ينكر عليهما، وقال لأبي بكر: دعهما. وقد سمع ابن جعفر وغيره من الصحابة والتابعين الجواري يغنين.

تلك هي أدلة المحرّمين، وقد سقطت واحدا بعد الآخر، ولم يقف دليل منها على قدميه. وإذا انتفت أدلة التحريم بقى حكم الغناء على أصل الإباحة بلا شك، ولو لم يكن معنا نص أو دليل واحد على ذلك غير سقوط أدلة التحريم، فكيف ومعنا نصوص الإسلام الصحيحة الصريحة، وروحه السمحة، وقواعده العامة، ومبادئه الكلية؟ وهاك بيانها: أولا من حيث النصوص: استدلوا بعدد من الأحاديث الصحيحة منها حديث غناء الجاريتين في بيت النبي ﷺ عند عائشة، وانتهار أبي بكر لهما، وقوله: «مزمور الشيطان في بيت النبي ﷺ؟». وهذا يدل على أنهما لم تكونا صغيرتين كما زعم بعضهم،

فلو صح ذلك لم تستحقا غضب أبي بكر إلى هذا الحد. والمعوَّل عليه هنا هو رد النبي ﷺ على أبي بكر رضى الله عنه وتعليله أنه يريد أن يعلم اليهود أن في ديننا فسحة، وأنه بُعِث بحنيفيةٍ سمحة. وهو يدل على وجوب رعاية تحسين صورة الإسلام لدى الآخرين، وإظهار جانب اليسر والسماحة فيه. وقد روى البخاري وأحمد عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «يا عائشة، ما كان معهم من لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو». وروى النسائي والحاكم، وصححه عن عامر بن سعد، قال: دخلتُ على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس، وإذا جوارٍ يغنين. فقلت: أيْ صاحَبْى رسول الله أهلَ بدر، يُفْعَل هذا عندكم؟ فقالا: اجلس. إن شئت فاستمع معنا، وإن شئت فاذهب، فإنه قد رُخِّص لنا اللهو عند العرس. وروى ابن حزم بسنده عن ابن سيرين أن رجلا قدم المدينة بجَوَارٍ، فأتى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه، فأمر جارية منهن فغنت، وابن عمر يسمع، فاشتراها ابن جعفر بعد مساومة. ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن، غُبِنْتُ بسبعمائة درهم! فأتى ابن عمر إلى عبد الله بن جعفر فقال له: إنه غُبِن بسبعمائة درهم، فإما أن تعطيها إياه، وإما أن ترد عليه بيعه. فقال: بل نعطيه إياها. قال ابن حزم: فهذا ابن عمر قد سمع الغناء وسعى في بيع المغنية.

وهذا إسناد صحيح لا تلك الأسانيد الملفقة الموضوعة. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾. فقرن اللهو بالتجارة، ولم يذمّهما إلا من حيث شُغْل الصحابة بهما، بمناسبة قدوم القافلة وضرب الدفوف فرحا بها، عن خطبة النبي ﷺ وتَرْكه قائما. واستدلوا بما جاء عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم أنهم باشروا السماع بالفعل أو أقروه، وهم القوم يُقْتَدَى بهم فيُهْتَدَى. واستدلوا بما نقله غير واحد من الإجماع على إباحة السماع كما سنذكره بعد.

وثانيا من حيث روح الإسلام وقواعده: أ-لا شيء في الغناء إلا أنه من طيبات الدنيا التي تستلذها الأنفس، وتستطيبها العقول، وتستحسنها الفِطَر، وتشتهيها الأسماع، فهو لذة الأذن، كما أن الطعام الهنيء لذة المعدة، والمنظر الجميل لذة العين، والرائحة الذكية لذة الشم... إلخ. فهل الطيبات، أي المستلذات، حرام في الإسلام أم حلال؟ من المعروف أن الله تعالى كان قد حرم على بني إسرائيل بعض طيبات الدنيا عقوبة لهم على سوء ما صنعوا، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾، فلما بعث الله محمدا ﷺ جعل عنوان رسالته في كتب الأولين: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

. فلم يبق في الإسلام شئ طيب، أي تستطيبه الأنفس والعقول السليمة، إلا أحله الله رحمة بهذه الأمة لعموم رسالتها وخلودها. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾. ولم يبح الله لواحد من الناس أن يحرم على نفسه أو على غيره شيئا من الطيبات مما رزق الله مهما يكن صلاح نيته أو ابتغاء وجه الله فيه، فإن التحليل والتحريم من حق الله وحده، وليس من شأن عباده. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾، وجعل سبحانه تحريم ما أحله من الطيبات كإحلال ما حرّم من المنكرات، كلاهما يجلب سخط الله وعذابه، ويُرْدِي صاحبه في هاوية الخسران المبين والضلال البعيد. قال جل شأنه يَنْعَى على من فعل ذلك من أهل الجاهلية: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾.

ب-ولو تأملنا لوجدنا أن الغناء والطرب للصوت الحسن يكاد يكون غريزة إنسانية وفطرة بشرية حتى إننا لنشاهد الصبي الرضيع في مهده يسكته الصوت الطيب عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه. ولذا تعودت الأمهات والمرضعات والمربيات الغناء للأطفال منذ زمن قديم. بل نقول: إن الطيور والبهائم تتأثر بحسن الصوت والنغمات الموزونة حتى قال الغزالي في الإحياء:

«من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجِمَال والطيور وجميع البهائم، إذ الجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يُسْكِره ويُوَلِّهه. فنرى الإبل إذا سمعت الحادي تمد أعناقها، وتصغي إليه ناصبة آذانها، وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها». وإذا كان حب الغناء غريزة وفطرة، فهل جاء الدين لمحاربة الغرائز والفطر والتنكيل بها؟ كلا، إنما جاء لتهذيبها والسمو بها وتوجيهها التوجيه القويم. قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: إن الأنبياء قد بُعِثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها. ومصداق ذلك أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟». قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال عليه السلام: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر». وقالت عائشة: «لقد رأيت النبي يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأمه، أي اللعب. فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو». وإذا كان الغناء لهوا ولعبا فليس اللهو واللعب حراما، فالإنسان لا صبر له على الجِدّ المطلق والصرامة الدائمة. قال النبي ﷺ لحنظلة حين ظن نفسه قد نافق لمداعبته زوجه وولده وتغير حاله في بيته عن حاله مع رسول الله ﷺ:

«يا حنظلة، ساعة وساعة». وقال علي بن أبي طالب: رَوِّحُوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا أُكْرِهَتْ عَمِيَتْ. وقال كرم الله وجهه: إن القلوب تَمَلُّ كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة. وقال أبو الدرداء: إني لأستجمّ نفسي بالشيء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق. وقد أجاب الإمام الغزالي عمن قال: «إن الغناء لهو ولعب» بقوله: هو كذلك، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب... وجميع المداعبة مع النساء لهو، إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد، وكذلك المزح الذي لا فحش فيه، حلال. نُقِل ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة.

تلك هي الأدلة المبيحة للغناء من نصوص الإسلام وقواعده، فيها الكفاية كل الكفاية ولو لم يقل بموجبها قائل، ولم يذهب إلى ذلك فقيه. فكيف، وقد قال بموجبها الكثيرون من صحابة وتابعين وأتباع وفقهاء؟ وحسبنا أن أهل المدينة على ورعهم، والظاهرية على حَرْفِيّتهم وتمسكهم بظواهر النصوص، والصوفية على تشددهم وأخذهم بالعزائم دون الرُّخَص، رُوِيَ عنهم إباحة الغناء. قال الإمام الشوكانى في «نيل الأوطار»: «ذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعة الصوفية إلى الترخيص في الغناء ولو مع العود واليراع. وحكى الأستاذ أبو منصور البغدادي الشافعي في مؤلفه في السماع أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأسا، ويصوغ الألحان لجواريه، ويسمعها منهن على أوتاره. وكان ذلك في زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

وحكى الأستاذ المذكور مثل ذلك أيضا عن القاضي شريح وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والزهري والشعبي». وقال إمام الحرمين في «النهاية» وابن أبي الدنيا: «نَقَل الأثباتُ من المؤرخين أن عبد الله بن الزبير كان له جَوَارٍ عوَّادات، وأن ابن عمر دخل إليه وإلى جنبه عود، فقال: ما هذا يا صاحب ر سول الله؟ فناوله إياه، فتأمله ابن عمر فقال: هذا ميزان شامي؟ قال ابن الزبير: يوزن به العقول!». وروى الحافظ أبو محمد بن حزم في رسالة في السماع بسنده إلى ابن سيرين قال: «إن رجلا قدم المدينة بجَوارٍ، فنزل على ابن عمر، وفيهن جارية تضرب. فجاء رجل فساومه، فلم يَهْوَ فيهن شيئا. قال: انطلقْ إلى رجل هو أمثل لك بيعًا من هذا. قال: من هو؟ قال: عبد الله بن جعفر... فعرضهن عليه، فأمر جارية منهن فقال لها: خذي العود، فأخذته، فغنت، فبايعه ثم جاء إلى ابن عمر... إلخ القصة». وروى صاحب «العِقْد» العلامة الأديب أبو عمر الأندلسي- أن عبد الله بن عمر دخل على ابن جعفر فوجد عنده جارية في حجرها عود، ثم قال لابن عمر: هل ترى بذلك بأسا؟ قال: لا بأس بهذا. وحكى الماوردي عن معاوية وعمرو بن العاص أنهما سمعا العود عند ابن جعفر. وروى أبو الفرج الأصبهاني أن حسان بن ثابت سمع من عزة الميلاء الغناء بالمِزْهَر بشعر من شعره. وذكر أبو العباس المبرّد نحو ذلك.

والمزهر عند أهل اللغة: العود. وذكر الأدفوي أن عمر بن عبد العزيز كان يسمع جواريه قبل الخلافة. ونقل ابن السمعاني الترخيص عن طاووس، ونقله ابن قتيبة وصاحب «الإمتاع» عن قاضي المدينة سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الزهري من التابعين. ونقله أبو يعلى الخليلي في «الإرشاد» عن عبد العزيز بن سملة الماجشون مفتى المدينة. هؤلاء جميعا قالوا بتحليل السماع مع آلة من الآلآت المعروفة، أي آلات موسيقى. وأما مجرد الغناء من غير آلة فقال الإدفوى في «الإمتاع»: إن الغزالي في بعض تآليفه الفقهية نقل الاتفاق على حله، ونقل ابن طاهر إجماع الصحابة والتابعين عليه، ونقل التاج الفزاري وابن قتيبة إجماع أهل الحرمين عليه، ونقل ابن طاهر وابن قتيبة أيضا إجماع أهل المدينة عليه، وقال الماوردي: لم يزل أهل الحجاز يرخِّصون فيه في أفضل أيام السنة المأمور فيها بالعبادة والذكر. وقال ابن النحوي في «العمدة»: وقد رُوِيَ الغناءُ وسماعُه عن جماعة من الصحابة والتابعين: فمن الصحابة عمر كما رواه ابن عبد البر وغيره، وعثمان كما نقله الماوردي وصاحب «البيان» والرافعي، وعبد الرحمن بن عوف كما رواه ابن أبي شيبة، وأبو عبيدة بن الجراح كما أخرجه البيهقي، وسعد بن أبي وقاص كما أخرجه ابن قتيبة، وأبو مسعود الأنصاري كما أخرجه البيهقي، وبلال وعبد الله بن الأرقم وأسامة بن زيد كما أخرجه البيهقي أيضا، وحمزة كما في «الصحيح»، وابن عمر

كما أخرجه ابن طاهر، والبراء بن مالك كما أخرجه أبو نعيم، وعبد الله بن جعفر كما رواه ابن عبد البر، وعبد الله بن الزبير كما نقل أبو طالب المكي، وحسان كما رواه أبو الفرج الأصبهاني، وعبد الله بن عمرو كما رواه الزبير بن بكار، وقرظة بن كعب كما رواه ابن قتيبة، وخَوّات بن جبير ورباح المعترف كما أخرجه صاحب «الأغاني»، والمغيرة بن شعبة كما حكاه أبو طالب المكي، وعمرو بن العاص: حكاه الماوردي، وعائشة والرُّبيّع كما في « صحيح البخاري» وغيره. وأما التابعون فسعيد بن المسيب و سالم بن عبد الله بن عمر وابن حسان وخارجة بن زيد وشريح القاضي و سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الله بن أبي عتيق وعطاء بن أبي رباح ومحمد بن شهاب الزهري وعمر بن عبد العزيز وسعد بن إبراهيم الزهري. وأما تابعوهم فخَلْقٌ لا يُحْصَوْن منهم الأئمة الأربعة وابن عيينة وجمهور الشافعية». انتهى كلام ابن النحوي. هذا كله ذكره الشوكاني في «نيل الأوطار».

ولا ننسى أن نضيف إلى هذه الفتوى قيودا لا بد من مراعاتها في سماع الغناء:

1- فقد أشرنا في أول البحث إلى أنه ليس كل غناء مباحا، فلا بد أن يكون موضوعه متفقا مع أدب الإسلام وتعاليمه. فالأغنية التي تقول: «الدنيا سيجارة وكاس» مخالفة لتعاليم الإسلام، الذي يجعل الخمر رجسا من عمل الشيطان، ويلعن شارب «الكاس» وعاصرها وبائعها وحاملها وكل من أعان فيها بعمل. والتدخين أيضا آفة ليس وراءها إلا ضرر الجسم والنفس والمال.

والأغاني التي تمدح الظلمة والطغاة والفسقة من الحكام الذين ابتليت بهم أمتنا مخالفة لتعاليم الإسلام، الذي يلعن الظالمين وكل من يعينهم بل من يسكت عليهم، فكيف بمن يمجدهم؟ والأغنية التي تمجد صاحب العيون الجريئة أو صاحبة العيون الجريئة أغنية تخالف أدب الإسلام، الذي ينادي كتابه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾. ويقول ﷺ: «يا عليّ، لا تُتْبِع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة».

2-ثم إن طريقة الأداء لها أهميتها، فقد يكون الموضوع لا بأس به ولا غبار عليه، ولكن طريقة المغني أو المغنية في أدائه بالتكسر في القول وتعمد الإثارة والقصد إلى إيقاظ الغرائز الهاجعة وإغراء القلوب المريضة ينقل الأغنية من دائرة الإباحة إلى دائرة الحرمة أو الشبهة أو الكراهة من مثل ما يذاع على الناس ويطلبه المستمعون والمستمعات من الأغاني التي تلح على جانب واحد هو جانب الغريزة الجنسية وما يتصل بها من الحب والغرام وإشعالها بكل أساليب الإثارة والتهيج، وخصوصا لدى الشباب والشابات. إن القرآن يخاطب نساء النبي فيقول: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. فكيف إذا كان مع الخضوع في القول الوزن والنغم والتطريب والتأثير؟

3-ومن ناحية ثالثة يجب ألا يقترن الغناء بشيء محرم كشرب الخمر أو التبرج أو الاختلاط الماجن بين الرجال والنساء بلا قيود ولا حدود. وهذا هو المألوف في مجالس الغناء والطرب من قديم، وهي الصورة الماثلة في الأذهان عندما يُذْكَر الغناء، وبخاصة غناء الجواري والنساء. وهذا ما يدل عليه الحديث الذي رواه ابن ماجة وغيره: «ليشربنّ ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُعْزَف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير». وأود أن أنبه هنا على قضية مهمة، وهي أن الاستماع إلى الغناء في الأزمنة الماضية كان يقتضي حضور مجلس الغناء ومخالطة المغنين والمغنيات وحواشيهم. وقلما كانت تسلم هذه المجالس من أشياء ينكرها الشرع ويكرهها الدين. أما اليوم فيستطيع المرء أن يستمع إلى الأغاني وهو بعيد عن أهلها ومجالسها. وهذا لا ريب عنصر مخفف في القضية، ويميل بها إلى جانب الإذن والتيسير.

4-هذا إلى أن الإنسان ليس عاطفة فحسب، والعاطفة ليست حبا فقط، والحب لا يختص بالمرأة وحدها، والمرأة ليست جسدا و شهوة لا غير. لهذا يجب أن نقلّل من هذا السيل الغامر من الأغاني العاطفية الغرامية وأن يكون لدينا من أغانينا وبرامجنا وحياتنا كلها توزيع عادل، وموازنة مقسطة بين الدين والدنيا، وفي الدنيا بين حقّ الفرد وحقوق المجتمع، وفي الفرد بين عقله وعاطفته، وفي مجال العاطفة بين عواطف الإنسانية كلها من حب وكره وغيرة وحماسة وأبوة وأمومة وبنوة وأخوة وصداقة... إلخ،

فلكل عاطفة حقها. أما الغلو والإسراف والمبالغة في إبراز عاطفة خاصة فذلك على حساب العواطف الأخرى، وعلى حساب عقل الفرد وروحه وإرادته، وعلى حساب المجتمع وخصائصه ومقوماته، وعلى حساب الدين ومثله وتوجيهاته. إن الدين حرّم الغُلُوّ والإسراف في كل شيء حتى في العبادة، فما بالك بالإسراف في اللهو وشغل الوقت به ولو كان مباحا؟ إن هذا دليل على فراغ العقل والقلب من الواجبات الكبيرة والأهداف العظيمة، ودليل على إهدار حقوق كثيرة كان يجب أن تأخذ حظها من وقت الإنسان المحدود وعمره القصير. وما أصدق وأعمق ما قال ابن المقفع: «ما رأيت إسرافا إلا وبجانبه حق مضيَّع»! وفي الحديث: «لا يكون العاقل ظاعنًا إلا لثلاث: مَرَمَّة لمعاش، أو تزوُّد لمعاد، أو لذة في غير محرم». فلنقسم أوقاتنا بين هذه الثلاثة بالقسط، ولنعلم أن الله سائل كل إنسان عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه؟

5-وبعد هذا الإيضاح تبقى أشياء يكون كل مستمع فيها فقيه نفسه ومفتيها. فإذا كان الغناء أو نوع خاص منه يستثير غريزته، ويغريه بالفتنة، ويسبح به في شطحات الخيال، ويطغى فيه الجانب الحيواني على الجانب الروحاني، فعليه أن يتجنبه حينئذ، ويسد الباب الذي تهب منه رياح الفتنة على قلبه ودينه وخلقه فيستريح ويريح.

ونختم بحثنا هذا بكلمة أخيرة نوجهها إلى السادة العلماء الذين يستخفّون بكلمة «حرام» ويطلقون لها العِنَان في فتاواهم إذا أَفْتَوْا، وفي بحوثهم إذا كتبوا: عليهم أن يراقبوا الله في قولهم ويعلموا أن هذه الكلمة: «حرام» كلمة خطيرة. إنها تعني عقوبة الله على الفعل، وهذا أمر لا يُعْرَف بالتخمين ولا بموافقة المزاج، ولا بالأحاديث الضعيفة، ولا بمجرد النص عليه في كتاب قديم. إنما يعرف من نص ثابت صريح أو إجماع معتبر صحيح، وإلا فدائرة العفو والإباحة واسعة، ولهم في السلف الصالح أسوة حسنة. قال الإمام مالك رضي الله عنه: «ما شيءٌ أشدَّ عليّ من أن أُسْأَل عن مسألة من الحلال والحرام لأن هذا هو القطع في حكم الله. ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا، وإن أحدهم إذا سُئِل عن مسألة كأن الموت أشرف عليه. ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام في الفتيا، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غدا لقللوا من هذا. وإن عمر بن الخطاب وعليًّا وعامة خيار الصحابة كانت تَرِدُ عليهم المسائل، وهم خير القرون الذين بُعِث فيهم النبي ﷺ، فكانوا يجمعون أصحاب النبي ﷺ ويسألون، ثم حينئذ يفتون فيها. وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم، فبقدر ذلك يُفْتَح لهم من العلم. قال: ولم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا الذين يُقْتَدَى بهم ومُعَوَّل الإسلام عليهم أن يقولوا: هذا حلال، وهذا حرام، ولكن يقول: أنا أكره كذا، وأرى كذا. وأما «حلال» و«حرام» فهذا الافتراء على الله. أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾؟

لأن الحلال ما حلله الله ورسوله، والحرام ما حرماه. وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

هذا فى الغناء، أما بالنسبة إلى التصوير فإلى القارئ أولا هذه الأحاديث النبوية المشرفة بشأنه وحكمه فى الإسلام: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة. قال بُسْر: فمرض زيد بن خالد، فعدناه، فإذا نحن في بيته بسِتْرٍ فيه تصاوير. فقلت لعبيد الله الخولاني: ألم يحدّثنا في التصاوير؟ قال: إنه قال: إلا رَقْمًا في ثوب. ألم تسمعه؟ قلت: لا. قال: بلى، قد ذكر ذلك».

«كنت عند ابن عباس إذ أتاه رجل فقال: إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير. قال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله ﷺ. سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ صَوَّر صورةً فإن الله عز وجل يعذبه يوم القيامة حتى ينفخ فيها، وليس بنافخ فيها أبدا. قال: فرَبَا لها الرجل ربوةً شديدةً واصفرّ وجهه. قال: ويحك! إنْ أَبَيْتَ إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح».

«(عن صفية بنت شيبة:) رأيت رسول الله ﷺ بَلَّ ثوبا وهو في الكعبة، ثم جعل يضرب التصاوير التي فيها».

«أخبرني أبو طلحة رضي الله عنه، صاحب رسول الله ﷺ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة». يريد صورة التماثيل التي فيها الأرواح».

«(عن جابر:) دخلت مع رسول الله ﷺ مكة، وفي البيت (أو حول البيت) ثلاثمائة وستون صنما تُعْبَد من دون الله تعالى، فأمر رسول الله ﷺ فأُكِبَّتْ لوجهها، ثم قال: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾. ثم دخل رسول الله ﷺ البيت فصلى فيه ركعتين، فرأى فيه تمثال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد جعلوا في يد إبراهيم الأزلام يستقسم بها، فقال رسول الله: «قاتلهم الله! ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام». ثم دعا رسول الله بزعفران فلطخه بتلك التماثيل».

«أشد الناس عذابا يوم القيامة رجلٌ قتل نبيا أو قتله نبي، أو رجل يُضِلّ الناس بغير علم، أو مصور يصور التماثيل».

هذه بعض أحاديث نبوية فى التصوير يفهم من نصوصها أن هذا الفن لا موضع له فى الإسلام. لكن للشيخ محمد عبده مقالا هاما بعنون «الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها» يناقش فيه التصوير والنحت والحكم الدينى فيهما مستندا إلى التحليل العقلى، ومحاولا التعرف إلى ما وراء النصوص الدينية من حكمة، جاء فيه: «إذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه والمبالغة فى تحريره، خصوصا شعر الجاهلية وما عُنِيَ به الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه،

أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم (يقصد الأوربيين) على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل. إن الرسم ضَرْبٌ من الشعر الذي يُرَى ولا يُسْمَع، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسْمَع ولا يُرَى. إن هذه الرسوم حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى: ديوان الهيئات والأحوال البشرية. يصورون الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا، والطمأنينة والتسليم، وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا وباهرا. يصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع، والخوف والخشية. والجزع والفزع مختلفان فى المعنى، ولم أجمعهما هنا طمعا فى جميع عينين فى سطر واحد، بل لأنهما مختلفان حقيقة. ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع، ومتى يكون الجزع، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك. أما إذا نظرت إلى الرسم، وهو ذلك الشعر الساكت، فإنك تجد الحقيقة بادرة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حِسُّك إذا نزعتْ نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك: «رأيت أسدا»، تريد رجلا شجاعا. فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا، أو الرجل أسدا.

فحِفْظ هذه الآثار حِفْظٌ للعلم في الحقيقة، وشكرٌ لصاحب الصنعة على الإبداع فيها. إن كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيتي، أما إذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المُفْلِقين ليوضح لك ما غمض عليك إذا كان ذلك من ذَرْعه.

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي: ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذُكِر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية؟ هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك إن الراسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحِيَ من الأذهان. فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي، وهو يجيبك مشافهة. فإذا أوردت عليه حديث «إن أشدالناس عذابا يوم القيامة المصورون» أو ما في معناه، فالذى يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية، وكانت الصور تُتَّخَذ في ذلك العهد لسببين: الأول اللهو، والثاني التبرك بمثال من تُرْسَم صورته من الصالحين. والأول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه.

والمصور في الحالين شاغلٌ عن الله أو ممهدٌ للإشراك به. فإذا زال هذان العارضان وقُصِـدَت الفائدة كان تصـوير الأشـخاص بمنزلة تصـوير النبات والشـجر في المصنوعات. وقد صُنِع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع.

أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذُكِر. وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صورٌ طمعًا في أن الملَكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلا فيه صُوَرٌ كما ورد، فإياك أن تظن أن ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل، فإن الله رقيب عليك وناظر إليك حتى في البيت الذى فيه صُوَر. ولا أظن أن الملَك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صورا! ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصـورة على كل حال مظنة العبادة، فإني أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضا فيه مظنة الكذب، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب؟ وبالجملة إنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرّم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين: لا من جهة العقيدة، ولا من جهة العمل. على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بـ«الأولياء»، وهم ممن لا نعرف لهم سيرة

ولا يطَّلع لهم أحد على سريرة، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع، وهم يخْشَوْنها كخشية الله أو أشد، ويطلبون منها ما يخْشَوْن ألا يجيبهم الله فيه، ويظنون أنهم أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى؟ ولا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد، ولكن يمكنهم الجمع بين عقيدة التوحيد ورسم صورة الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية» (الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده/ تحقيق د. محمد عمارة/ دار الشروق/ 1414هـ- 1993م/ 2/ 198- 200).

وقد تناول الشيخ الطاهر بن عاشور فى «التحرير والتنوير» هذه القضية فرأى، كما رأى الشيخ محمد عبده، أن التماثيل ليست معيبة فى ذاتها، بل لأن العرب كانت أمعن فى الشرك، فأراد الإسلام أن يجتثّه من أصله. إلا أنه لم يرتب على هذا التوجيه تجويزا لصنعها، بل قال بحرمتها رغم هذا. وإلى القارئ نص كلامه: «التمثال هو الصورة الممثلة، أي المجسمة مثل شيء من الأجسام. فكان النحاتون يعملون لسليمان صورا مختلفة كصور موهومة للملائكة وللحيوان مثل الأسود، فقد كان كرسي سليمان محفوفا بتماثيلِ أُسودٍ أربعة عشر

كما وُصِف في الإِصحاح العاشر من سفر «الملوك الأول». وكان قد جَعَل في الهيكل جابيةً عظيمةً من نحاسٍ مصقولٍ مرفوعةً على اثنتي عشرة صورةَ ثورٍ من نحاس. ولم تكن التماثيل المجسمة محرَّمَة الاستعمال في الشرائع السابقة، وقد حرمها الإِسلام لأن الإِسلام أمعن في قطع دَابر الإِشراك لشدة تمكن الإِشراك من نفوس العرب وغيرهم. وكان معظم الأصنام تماثيل، فحرّم الإسلام اتخاذها لذلك. ولم يكن تحريمها لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها، ولكنْ لكونها كانت ذريعة للإشراك. واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظلّ من تماثيل ذوات الروح إذا كانت مستكملة الأعضاء التي لا يعيش ذو الروح بدونها، وعلى كراهة ما عدا ذلك مثل التماثيل المنصّفة، ومثل الصور التي على الجدران وعلى الأوراق والرقم في الثوب ولا ما يُجْلَس عليه ويُدَاس. وحُكْمُ صُنْعِها يتبع اتخاذَها. ووقعت الرخصة في اتخاذ صور تلعب بها البنات لفائدة اعتيادهن العمل بأمور البيت».

وللدكتور عبد الحليم محمود فتوى فى هذا الشأن قال فيها تحت عنوان «التصوير سواء أكان رقما فى ثوب أم نقشا على الجدار، وسواء أكان رسما على ورق أم تماثيل مجسَّدة»: «إن كل ما يحدث من ذلك مخلا بالآداب مثيرا للشهوة منافيا للفضيلة فهو حرام حرمةً لا شك فيها، وذلك مثل الأجساد العارية والصور الخليعة. وقد ابتُلِينا فى هذه الأيام بالكثير من ذلك، بل أصحبت الإعلانات عن الكباريهات عن طريق الصور العارية تنشر فى الصحف اليومية وغيرها،

ولا تتورع صحيفة عن نشر هذه الإعلانات، ولا تكاد توجد صحيفة إلا وهى تتهالك على نشر ذلك طلبا للمال. وما من شك فى أن كل مال يؤدَّى فى ذلك فهو سُحْتٌ تمتنع عنه النفس الأبية والأخلاق الفاضلة. وأكثر من ذلك فإنه توجد مجلات متخصصة فى نشر الصور العارية المثيرة، وتمر هذه المجلات على الرقابة فلا تعيرها اهتماما وتصرّح بها وتصبح بين أيدى الشبان وطلبة الجامعات وطالباتها. ويكثر الفساد فى المجتمع نتيجة لهذا السوء الذى أصبح مألوفا، وكأن الله تعالى لم يحرمه، وكأن المجتمع لا دين له. ونعود فنقول: إن كل ذلك حرام، وفاعلوه ومبيحو نشره فى المجتمع ملعونون فى عُرْف الفضيلة ومن قِبَل الله سبحانه وتعالى.

ونوع آخر لا شك فى حرمته، وهو هذه الأصنام التى أخذت منذ فترة تنتشر شيئا فشيئا فى العالم الإسلامى. إنها الأصنام التى يقيمونها هنا وهناك تخليدا لذكرى شخص أو رمزا لفكرة معينة أو تعبيرا عن القوة والجمال. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 74]. ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 35- 36].

ويقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: 51- 58]. وحينما دخل رسول الله ﷺ مكة أخذ يحطم الأصنام دون استثناء، وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]. والتحريم، فيما يتعلق بهذه الأصنام، يقين لا شك فيه.

ومما يُذْكَر فى هذا الصدد ما ذكره القرآن الكريم عن بنى إسرائيل مبينا أن فكرتهم عن الإله سبحانه لم تكن فكرة مستنيرة، وإنما كانت فكرة ضالة. وقد صورها القرآن فى صورتين أبرع ما يكون التصوير الساخر الموجِّه المرشِد المعلِّم إحداهما هذه الصورة: لقد أنعم الله على بنى إسرائيل بنعمة النجاة، وما إن تمت النجاة حتى رَأَوْا قوما يعكفون على أصنام لهم. وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: 138- 140].

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: 69- 77]. أما الصورة الثانية فهى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف].

وقد يقول قائل إن علة تحريم الأصنام فى الإسلام أنها كانت تُعْبَد من دون الله، ولكن هذه العلة زالت فى العصر الحاضر، فلا يتأتى أن يصنع الإنسان صنما ويعبده فى عهد هذه الحضارة التى عمّت الشرق والغرب. ونحبّ، إجابةً على ذلك، أن نقول: إن الإسلام قد حرّم ذلك تحريما مطلقا لا يقيده زمان ولا مكان،

وإن حكمة الله فوق كل حكمة، والمبادئ التى أوحاها الله سبحانه لا تنقضها أهواء البشر. ثم إنه فى هذه الحضارة التى عمت الشرق والغرب ما زالت البقر تُعْبَد أو تُقَدَّس، وما زالت تثير المعارك وتُسِيل دماء بنى البشر، دماء أهل وطن واحد. وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت الأصنام تعبد أو تقدس فى معابد لا تحصى من معابد الشرق الأقصى. وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت بعض الأديان فى أكبر الدول تحتفظ بطابع اللامعقول، طابع يتميز بأنه ضد العقل والمنطق والتفكير السليم. ويتغلغل هذا الطابع فى كثير من زواياها، ولكن الإلف والزمن والتكرار والتعود، كل ذلك جعل منها أديانا تستمر فى الماضى، وما زالت مستمرة فى الحاضر مع أنها خرافات وأساطير. وقد أعلن كبار مؤرِّخى الأديان عن الأساطير فيها والخرافة، ومع ذلك ما زالت مستمرة. وأمر الإنسان فى الحاضر أو فى الماضى غريب: إن الإلف يغرس فى شعوره أن المألوف صحيح، وأن ما عليه الآباء والأجداد من عقائدَ حقٌّ. بل إنه يفر ويهرب من التأمل والفحص إذا أداه ذلك إلى إنكار المألوف من العقائد، ويُسْكِت فى نفسه بالقهر صوتَ الإنكار أو النقد. وبقيتْ أساطير، واستمرتْ خرافات، ودام ضلالٌ دهورًا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ .

ونخلص من كل ذلك إلى القول بأمرين هما من البداهة بمكان: أن كل ما يتنافى مع الدين فى التصوير محرَّم. أن الأصنام، على أى وضع كانت: تمثيلا لشخص أو تمثيلا لفكرة، محرَّمةٌ. بقى بعد ذلك أهم جانب من الوجهة العلمية البحتة نحب أن نتحدث عنه، وذلك هو موضوع التصوير العادىّ الذى يستعمل الآن فى شمول عام: هذه الصور التى تستخدم فى البطاقات الشخصية، وفى جوازات السفر، والصور الخاصة بالذكريات، وصور الآباء للأبناء أو صور الأبناء للآباء. وأنا أتحدث الآن عن هذا الموضوع، وأنا أعلم أنه مثار نزاع حاد يبدأ شيئا فشيئا على توالى الأيام، ولكن هدفه لا يرجع إلى اقتناع المانعين، بل إلى طغيان الموجة وقصورهم عن مقاومتها. ونحن لا ننظر فى إعلان رأينا إلى وضع قائم أو إلى طغيان الموج أو العوج أو إلى حا جات فى المجتمع تقتضى ـ التحليل، وإنما نرجع فى رأينا إلى الو ثائق، وإلى آراء أسلافنا. وقد اختلفوا هم الآخرون اختلافا كثيرا محلّلين أو محرّمين.

ونحن نبدأ بحديث صحيح رواه الإمام البخارى فى صحيحه. قال: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن بكير بن بُسْرـ بن سعيد عن زيد بن خالد عن أبى طلحة صاحب رسول الله ﷺ، قال إن رسول الله ﷺ قال: إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صُوَرٌ. قال بسر: ثم اشتكى زيد فعدناه، فإذا على بابه ستر فيه صورة.

فقلت لعبيد الله الخولانى ربيب ميمونة زوج النبى صلى اله عليه وسلم: ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول؟ فقال عبيد الله: ألم تسمعه حين قال: إلا رَقْمًا فى ثوب؟». وقال ابن وهب: أخبرنا عمرو، وهو ابن الحارث، حدثه بكير، حدثه بسر، حدثه زيد، حدثه أبو طلحة عن النبى ﷺ. هذا الحديث الشريف هو الأساس الذى يقوم عليه رأينا. ويقول الإمام النووى: وذهب بعض السلف إلى أن الممنوع ما كان له ظل، وأما ما لا ظل له فلا بأس باتخاذه مطلقا. ثم يعقب الإمام النووى على ذلك بقوله: «وهو مذهب باطل». ولكن الإمام ابن حجر صاحب «فتح البارى» يعقب على ذلك قائلا عن مذهب «بعض السلف» إن «المذهب المذكور نقله ابن أبى شيبة عن القاسم بسند صحيح، ولفظه: عن ابن عون قال: «دخلت على القاسم وهو بأعلى مكة فى بيته، فرأيت فى بيته حَجَلَة فيها تصاوير القندس والعنقاء». ففى إطلاق كونه مذهبا باطلا نَظَرٌ، إذ يحتمل أنه تمسك فى ذلك بعموم قوله: «إلا رقما فى ثوب»، فإنه أعم من أن يكون معلَّقا أو مفروشا، وكأنه جعل إنكار النبى ﷺ على عائشة تعليق الستر المذكور مركَّبا من كونه مصوَّرا، ومن كونه ساترا للجدار. ويؤيده ما ورد فى بعض طرقه عند مسلم، فأخرج من طريق سعيد بن يسار عن زيد بن خالد الجهنى قال: «دخلت على عائشة...»، فذكر نحو حديث الباب، لكن قال: «فجذبه حتى هتكه وقال: إن الله لم يأمرنا بكسوة الحجارة والطين.

قال: فقطعنا منه وسادتين... الحديث». فهذا يدل على أنه ﷺ كره ستر الجدار بالثوب المصوَّر، فلا يساويه الثوب الممتَهن ولو كانت فيه صورة، وكذلك الثوب الذى لا يُسْتَرَ به الجدار. والقاسم بن محمد أحد فقهاء المدينة، وكان من أفضل أهل زمانه، وهو الذى روى حديث النمرقة. فلولا أنه فهم الرخصة فى مثل الحَجَلَة ما استجاز استعمالها.

ويقول الإمام ابن حجر: وقد أخرج ابن أبى شيبة من طريق أيوب عن عكرمة، قال: كانوا يقولون فى التصاوير فى البُسُط والوسائد التى تُوطَأ: ذُلٌّ لها. ومن طريق عاصم عن عكرمة، قال: كانوا يكرهون ما نُصِب من التماثيل نصبا، ولا يرون بأسا بما وطئته الأقدام. وعن طريق ابن سيرين وسالم بن عبد الله وعكرمة بن خال وسعيد بن جبير قولهم إنهم قالوا: لا بأس بالصورة إذا كانت تُوطَأ. ومن طريق عروة أنه كان يتكئ على المرافق فيها تماثيل الطير والرجال. ويلخص الإمام أبو بكر ابن العربى المذاهب فى التصوير فيقول: حاصل ما فى اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسادٍ حَرُمَ بالإجماع، وإن كانت رَقْمًا فى ثوب فأربعة أقوال: الأول، يجوز مطلقا على ظاهر قوله فى حديث الباب: «إلا رقما فى ثوب». الثانى، المنع مطلقا حتى الرَّقْم. الثالث، إن كانت الصورة باقية الهيئة قائمة الشكل حَرُمَ،

وإن قُطِعَت الرأس جاز. قال: وهذا هو الأصح. الرابع، إن كان ما يُمْتَهَن جاز، وإن كان معلَّقًا لم يجز. ولقد حمل أبو على الفارسى لفظ «المصورين» فى الأحاديث التى تتحدث عن عذابهم على «المشبِّهة»، وقال: إنهم المراد بقوله: «المصورون»، أى الذين يعتقدون أن الله صورة كما يقولون. ويقول أبو محمد الجوينى: إن نسج الصورة فى الثوب لا يمتنع لأنه قد يُلْبَس. وقال البعض: إن التصوير على الأرض ونحوها جائز.

وبعد، فإن الآراء فى هذا النوع من الفن لم تُجْمِع على الحل ولا على التحريم. ونحن نميل إلى الحِلّ مستندين إلى الحديث الشريف ومتناسقين مع كل الآراء على الرغم من أن كثيرين يخالفوننا الرأى، وكل مجتهدٍ مخلصٍ مأجورٌ. ولقد كتبت مجلة «المسلم» نقلا عن كتاب «الإسلام والحضارة العربية» للأستاذ محمد كرد على ما يلى: أقر الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ النقود التى كان يستخدمها العرب فى الجاهلية، وكانت تَرِدُ من الممالك المجاورة، وكانت مصوَّرة. وضرب عمرُ الدراهمَ نقش الكسروية وشكلها. وضرب معاوية دنانير عليها تمثالٌ متقلدٌ سيفا. واستعمل زيد ابن خالد سترا فيه صور. وكانت المنسوجات اليمنية فيها تصاوير. وصُنِعَت الصور فى دَارَىْ مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. وهكذا لم يحرّم الإسلام صناعة مفيدة فى كثير من العلوم والفنون« (د. عبد الحليم محمود/ 38- 49).

هذا ما قاله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود، الذى أقدره وأبجّله وأعتز به لأنه كان شيخا محترما للأزهر، وكانت شخصيته مهيبة جليلة. ولكنى أود أن أناقش قوله: «إنه فى هذه الحضارة التى عمت الشرق والغرب ما زالت البقر تُعْبَد أو تُقَدَّس، وما زالت تُثِير المعارك وتُسِيل دماء بنى البشر: دماء أهل وطن واحد. وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت الأصنام تُعْبَد أو تُقَدَّس فى معابد لا تحصى من معابد الشرق الأقصى. وفى هذه الحضارة الحديثة ما زالت بعض الأديان فى أكبر الدول تحتفظ بطابع اللامعقول، طابع يتميز بأنه ضد العقل والمنطق والتفكير السليم، ويتغلغل هذا الطابع فى كثير من زواياها، ولكن الإلف والزمن والتكرار والتعود، كل ذلك جعل منها أديانا تستمر فى الماضى، وما زالت مستمرة فى الحاضر مع أنها خرافات وأساطير. وقد أعلن كبار مؤرِّخى الأديان عن الأساطير فيها والخرافة، ومع ذلك ما زالت مستمرة. وأمر الإنسان فى الحاضر أو فى الماضى غريب: إن الإلف يغرس فى شعوره أن المألوف صحيح، وأن ما عليه الآباء والأجداد من عقائدَ حقٌّ. بل إنه يفرّ ويهرب من التأمل والفحص إذا أداه ذلك إلى إنكار المألوف من العقائد، ويُسْكِت فى نفسه بالقهر صوتَ الإنكار أو النقد. وبقيت أساطير، واستمرت خرافات، ودام ضلالٌ دهورًا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾.

والواقع أنه لا اعتراض عندى على ما قاله فضيلته رحمه الله عن عبادة الأبقار والأصنام والبشر في بعض البلاد حتى الآن. إلا أننا لو جرينا دائما على مبدإ سَدّ الباب الذى يأتى منه الريح حتى نستريح لكان لزاما علينا أن نستأصل مثلا جنس الأبقار مثلا من الأرض ما دامت تشكل فتنة فى الهند. لكن أحدا لا يقول بهذا. ثم إننا لسنا مسؤولين عن الهند ولا عن غير الهند. لا بل إننا لا نملك أن نقول لهم أو لغيرهم: اقتلوا أبقاركم، أو تخلصوا ممن تعبدونهم من البشر حتى لا تفتتنوا بها ولا بهم. أم تراه، رحمه الله رحمة واسعة، سيقول إن حكم الأبقار والأصنام والبشر في هذه الحالة مختلف؟ لكن على أى أساس؟ وعلى كلٍّ فالمسلمون لا يعبدون أبقارا ولا أصناما، بل تتمثل مشكلتهم فى الرهبة من حكامهم رهبة تجاوز حد المعقول. وفى بعض بلادهم قد ينفذون ما يقوله الحاكم ويهملون ما يقوله ربهم. فما العمل؟ إن المشكلة تكمن فى الضمير قبل كل شىء كما هو واضح. وفوق ذلك هناك مَلاَحِظُ علميةٌ وحضاريةٌ جِدُّ هامةٍ سوف نأتى عليها بعد قليل توجب أن نفكر فى أمر التماثيل بمقدار من التروى أكبر. فكنت أحب لو أن د. عبد الحليم محمود، الذى أُجِلّه كثيرا وأحبّه كثيرا رغم أنى لست من المغرمين كثيرا بكتاباته الصوفية، قد أخذها بعين الاعتبار.

وثَمَّ رأى للشيخ جاد الحق على جاد الحق فى ذات المو ضوع يتضمنه كتابه: «بيان للناس» يقول فيه: «الذى تدل عليه الأحاديث النبوية الشريفة والتى رواها البخارى وغيره من أصحاب السُّنَن أن التصوير الضوئى للإنسان والحيوان المعروف الآن، وكذلك الرسم، لا بأس به متى كان لأغراض علمية مفيدة للإنسان». ثم يقول عن التماثيل: «إن هذه التماثيل كانت محرمة، وذلك سَدًّا لذريعة عبادتها واتخاذها وسيلة للتقرب إلى الله». ثم يستطرد إلى الكلام عن تماثيل الآثار القديمة قائلا: «إن هذه التماثيل والصور تسجيل لتاريخ هؤلاء الذين صنعوها، ودراسة تاريخهم تدفع إلى المزيد من التقدم العلمى والحضارى النافع. لهذا كان حتما الحفاظ على الآثار والأخذ منها ما يوافق قواعد الإسلام». وعن المتاحف يقول: «إذا كان التحفظ على الآثار هو الوسيلة الوحيدة لدراستها كانت إقامة المتاحف جائزة، إن لم تكن واجبة، لأنها ضرورة، وللضرورة حكمها كما جاء فى نصوص الشريعة. وتخريجا على ذلك كان الاحتفاظ بالآثار ضرورة من الضرورات الدراسية والتعليمية لا يحرّمها الإسلام لأنها لا تنافيه، بل إنها تخدم غرضا علميا وعقائديا حث عليه القرآن، فكان ذلك جائزا، إن لم يصل إلى مرتبة الواجب» (من كتاب «بيان للناس»/ الأزهر الشريف/ 1989م/ 2/ 166).

أما الدكتور القرضـاوى فقد تناول هذه القضـية على نحو أكثر تفصـيلا فى كتابه: «الإســلام والفن» تحت عنوان «الرســم و التصــوير والزخرفـة»، وأورد معظم النصوص التى تتصل بالمو ضوع ولم ينطلق من الحجج العقلية كالشيخ محمد عبده، بل جعل النصوص تحت بصره طوال الوقت محافظا عليها كما هى فى ظاهرها. وهذا ما كتبه بشىء من التصرف: «عَرَضَ القرآن الكريم للتصوير على أنه عمل من أعمال الله تبارك وتعالى، الذي يبدع الصور الجميلة، وخصوصا صور الكائنات الحية، وفي مقدمتها الإنسان: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾. وذكر القرآن أن من أسـماء الله الحسـنى اسـم «المصـوِّر» كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .كما عرض القرآن للتماثيـل في موضــعين: أحـدهمـا في موضـع الذم و الإنكار، وذلك على لسـان الخليل إبراهيم عليه السـلام حيث اتخذها قومه أصــناما، أي آلهةً تُعْبَد، فأنكر عليهم ذلك قائلاً: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾. والثاني: ذكرها القرآن في معرض الامتنان و الإنعام على سليمان عليه السلام حيث سخر له الريح، وسخر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ .

أما السُّنّة فقد حفلت بأحاديث كثيرة صحيحة معظمها يذم التصوير والمصورين، وبعضها يشدد غاية التشدد في منع التصوير وتحريمه والوعيد عليه. كما ينكر اقتناء الصــور أو تعليقها في البيت، ويعلن أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صــورة. والملائكة هم مظهر رحمة الله تعالى ورضـــاه وبركته، فإذا مُنِعَتْ من الدخول في بيت فمعناه أنه محروم من الرحمة والرضا والبركة. والمتأمل في معاني الأحاديث الواردة في التصـوير أو اقتناء الصــور وفي ســياقاتها وملابســاتها ويقارن بين بعضــها وبعض يتبين له أن النهي والتحريم والوعيد في تلك الأحاديث لم يكن اعتباطا ولا تحكما، بل كان وراءه علل ومقاصد يهدف الشرع إلى رعايتها وتحقيقها.

أ-فبعض التصــوير كان يقصــد به تعظيم المصــوَّر، وهذا التعظيم يتفاوت حتى يصل إلى درجة التقديس. بل العبادة وتاريخ الوثنيات يدل على أنها بدأت بالتصوير للتذكرة، وانتهت بالتقديس والعبادة. ذكر المفسرــون، في قوله تعالى على لســان قوم نوح: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ ، أن أسماء هذه الأصنام المذكورة كانت أسماء رجال صالحين، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أنِ انْصُبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصابا، وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعْبَد. حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِدَتْ. وعن عائشة قالت: لما ا شتكى النبي صـلي الله عليه وآله وسـلم ذكر بعض نسـائه كنيسـة يقال لها: مارية. وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة،

فذكرن من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بَنَوْا على قبره مسجدا، ثم صوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار خلق الله.

ومن المعروف أن الصور والتماثيل أروج ما تكون في رحاب الوثنية، كما عُرِف ذلك عند قوم إبراهيم، وعند المصريين القدماء واليونان والرومان، وعند الهنود إلى اليوم وغيرهم. والنصرانية حينما تروَّمَتْ على يد قسطنطين إمبراطور الروم دخلها كثير مما كان عند الرومان من مظاهر الوثنية. ولعل بعض ما ورد من الوعيد الشديد على التصوير يُقْصَد به الذين ينحتون الآلهة المزعومة والمعبودات المتنوعة عند الأمم المختلفة، وذلك مثل حديث ابن مسعود مرفوعا: «إن أشد الناس عذابا عند الله المصورون». قال النووي: «قيل: هي محمولة على من فعل الصورة لتُعْبَد، وهو صانع الأصنام ونحوها. فهذا كافر، وهو أشد عذابا. و قيل: هي فيمن قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى، واعتقد ذلك. فهذا كافر له من أ شد العذاب ما للكافر، ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره». وإنما ذكر النووي ذلك، وهو من أشد المشددين في تحريم التصوير واتخاذ الصور لأنه لا يُتَصَوَّر، بحسب مقاصد الشرع، أن يكون المصور العاديّ أشد عذابا من القاتل والزاني وشارب الخمر والمرابي وشاهد الزور وغيرهم من مرتكبي الكبائر و الموبقات. وقد روى مسروق حديث ابن مسعود المذكور بمناسبة دخوله هو وصاحب له بيتا فيه تماثيل، فقال مسروق: هذه تماثيل كسرى؟ قال صاحبه: هذه تماثيل مريم. فرَوَى مسروقٌ الحديثَ.

ب-وقريب من هذا اللون من التصوير ما كان يعبر عن شعائر دين معين غير دين الإسلام، وأبرز مثل لذلك الصليب عند النصارى. فما كان من الصور مشتملاً على الصليب فهو محرَّم بلا ريب، ويجب على المسلم نقضه و إزالته. وفي هذا روي البخاري عن عائشة أن النبي صلي الله عليه وآله و سلم لم يكن يترك في بيته شيئا فيه تصاليب إلا نقضه.

ج-مضاهاة خلق الله عز و جل بدعوى أنه يبدع ويخلق كما يخلق الله سبحانه. ويبدو أن هذا أمر يتعلق بقصد المصور ونيته، وإن كان هناك من يرى أن كل مصور مُضَاهٍ لخلق الله. وفي هذا جاء حديث عائشة عن النبي صلي الله عليه و آله وسلم: «أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». فهذا الوعيد الغليظ يوحي بأنهم يقصدون إلى مضاهاة خلق الله، وهو ما نقله الإمام النووي في شرح مسلم، إذ لا يقصد ذلك إلا كافر. ويدل عليه حديث أبي هريرة الصحيح، قال: سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول: «قال الله تعالى: ومَنْ أَظْلَمُ ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة». فقوله: «ذهب يخلق كخلقي» يدل على القصد والتعمد. ولعل هذا هو سر التحدي الإلهي لهم يوم القيامة حيث يقال لهم: «أَحْيُوا ما خلقتم». وهو «أمر تعجيز» كما يقول الأصوليون.

د-أن تكون جزءا من أدوات الترف ومظاهره، و هذا ما يظهر من كراهية النبي صلي الله عليه وآله و سلم لبعض الصور في بيته، فقد روت عائشة أنه عليه الصلاة والسلام خرج في غزالة، قالت: فأخذتُ نمطًا (نوعًا من البُسُط اللطيفة أو الستائر) فسترته على الباب، فلما قدم رأى النمط، فجذبه حتى هتكه، ثم قال: «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين». قالت: فقطعنا منه وسادتين وحشوتهما ليفا، فلم يَعِبْ ذلك عليَّ. والنص بهذه الصيغة: «إن الله لم يأمرنا» يقتضي ــ أنه ليس بواجب و لا مندوب، فهو لا يدل على أكثر من الكراهة التنزيهية كما قال الإمام النووي. ولكن بيت النبوة ينبغي أن يكون أسوة ومثلاً للناس في الترفع على زخرف الدنيا وزينتها.

يؤكد هذا حديث عائشة الآخر. قالت: كان لنا ستر فيه تمثال طائر، و كان الداخل إذا دخل استقبله، فقال لي رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم: «حَوِّلي هذا، فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا». ومثله ما رواه القاسم بن محمد عنها رضي الله عنهما: أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سهوة، فكان النبي صلي الله عليه وآله وسلم يصلي إليه، فقال: «أخِّريه عني». قالت: فأخرته فجعلته وسائد. وفي رواية عند غير مسلم: «أخريه عني، فإن تصاويره تعرض لي في صلاتي». فهذا كله من زيادة الترفه والتنعم، وهو من وادي الكراهية لا من وادي التحريم. ولكن النووي قال: هذا محمول على أنه كان قبل تحريم اتخاذ ما فيه صورة.

فلهذا كان يدخل ويراه ولا ينكره. ومعني هذا أنه يرى الأحاديث التي ظاهرها التحريم ناسخة لهذا الحديث وما في معناه. ولكن النسخ لا يثبت بمجرد الاحتمال. فإثبات مثل هذا النسخ يستلزم أمرين: أولهما التحقق من تعارض النصين بحيث لا يمكن الجمع بينهما، مع أن الجمع ممكن بحمل أحاديث التحريم على قصد مضاهاة خلق الله، أو بقصرها على المجسَّم، أي ما له ظل. وثانيهما معرفة المتأخر من النصين. ولا دليل على أن التحريم هو المتأخر، بل الذي رآه الإمام الطحاوي في «مُشْكِل الآثار» هو العكس، فقد شدد الإسلام في شأن الصور في أول الأمر لقرب عهده بالوثنية، ثم رخص في المسطحات من الصور، أي ما كان رَقْمًا في ثوب ونحوه.

وقد رُوِيَ هذا الحديث عن عائشة بصيغة أخرى تدل على شدة الكراهية من النبي صلي الله عليه وآله وسلم. فعن عائشة أنها اشترت نمرقة (وسادة صغيرة) فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قام على الباب فلم يدخل، فعَرَفَتْ في وجهه الكراهية. قالت: فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله. ما أذنبت؟ فقال: « ما بال هذه النمرقة؟». قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدَها. فقال رسول الله صلي الله عليه وآله و سلم: «إن أصحاب هذه الصور يعذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم». و قال: «إن البيت الذي فيه الصورة لا تدخله الملائكة».

في هذا الجو الذي كان يحيط بفن التصوير والصور في عصر النبوة وَرَدَ معظم الأحاديث المحرمة. ولا غرو أنْ شددت الأحاديث النبوية في هذا الأمر، و إن كان تشديدها في صنعة التصوير أكثر من تشديدها في اقتناء الصورة، فبعض ما يحرم تصويره يجوز اقتناؤه فيما يُمْتَهَن مثل البُسُط و الوسائد ونحوها مما يُبْتَذَل بالاستعمال كما رأينا في حديث عائشة. ومن أشد ما رُوِيَ في منع التصوير ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس مرفوعا: «كل مصور في النار. يجعل الله بكل صورة صورها نَفَسًا فيعذبه في جهنم». وفي رواية للبخاري عن سعيد بن أبي الحسن قال: «كنت عند ابن عباس، إذ جاءه رجل فقال: يا ابن عباس، إني رجل إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. سمعته يقول: «من صَوَّر صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدا». فربا الرجل ربوه شديدة (أي انتفخ غيظا وضيقا)، فقال: ويحك! إنْ أبيتَ إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح». وروى مسلم عن حبان بن حصين قال: «قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم؟ ألاّ تَدَعَ صورة إلا طمستَها، ولا قبرًا مُشْرِفًا إلا سَوَّيْتَه».

وروى مسلم عن عائشة أنها قالت: «واعد رسول الله صلي الله عليه وآله و سلم جبريل عليه السلام في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة، ولم يأته، وفي يده عصا، فألقاها من يده، وقال: «ما يخلف اللهُ وعدَه ولا رسلُه!». ثم التفت فإذا جَرْوُ كلبٍ تحت سريره، فقال: «يا عائشة، متى دخل هذا الكلب ههنا؟». فقالت: والله ما دريت! فأمر به، فأُخْرِج. فجاء جبريل، فقال رسول الله صلي الله عليه و آله وسلم: «واعَدْتَني، فجلستُ لك، فلم تأت!». فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك. إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة».

وبهذا نرى أن عدد الأحاديث التي وردت في شأن التصوير والصور ليس قليلاً كما زعم بعض من كتب في ذلك، فقد رواها جمع من الصحابة منهم ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وعائشة، وعلي، وأبو هريرة، وأبو طلحة، وكلها في الصحاح. وقد اختلفت آراء الفقهاء في قضية التصوير في ضوء هذه الأحاديث، وكان من أشدهم في ذلك الإمام النووي، الذي حرم تصوير كل ما فيه روح من إنسان أو حيوان: مجسَّمًا (له ظل) أو غير مجسَّمٍ، ممتهَنًا أو غير ممتهن، ولكنه أجاز استعمال ما يُمْتَهَن، وإن كان تصويره حراما، كالمصوَّر في البُسُط و الوسائد ونحوها. ولكن بعض فقهاء السلف قصر التحريم على المجسَّم (الذي له ظل)،

وهو ما نطلق عليه عُرْفًا: «التماثيل»، فهي أوغل في مشـابهة الوثنية، وهي التي يظهر فيها مضاهاة خلق الله، لأن خلق الله و تصويره مجسم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ . وفي الحديث القدسي: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟». وخَلْق الله تعالى مجسَّم، وهو الذي يمكن قبول نفخ الروح فيه، إذ المسطَّح ليس قابلاً لذلك، ولأنها أدخل في الترف والسَّرَف، ولا سيما ما كان من المعادن الثمينة. وهذا مذهب بعض السلف. وقد قال النووي: «إن هذا مذهب باطل»، فتعقبه الحافظ ابن حجر بأنه مذهب القاسم بن محمد. ولعله أخذ بعموم قوله صلي الله عليه و آله وسلم: «إلا رَقْمًا في ثوب». وسنذكر نص هذا الحديث.

و القاسم بن محمد بن أبي بكر أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ومن أفضل أهل زمانه، وابن أخي عائشة، وراوي حديث النمرقة عنها، ويحتج له بالحديث التالي: ففي الصحيح عن بُسْر بن سعيد زيد بن خالد الجهني عن أبي طلحة صاحب رسول الله صلي اله عليه و آله و سلم أنه قال: إن رسول الله صلي الله عليه وآله و سلم قال: «إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة». قال بُسْر: ثم اشتكى زيد بَعْدُ، فعدناه، فإذا على بابه ستر فيه صورة.

قال: فقلت لعبيد الله الخولاني ربيب ميمونة زوج النبي صلي الله عليه و آل و سلم: ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول؟ فقال: ألم تسمعه حين قال: إلا رقما في ثوب»؟ وأكد ذلك ما رواه الترمذي أن سهل بن حنيف وافق أبا طلحة على هذا الاستثناء: «إلا رَقْمًا في ثوب». وتأويل هذا بأن المراد به «ما كان لغير ذي روح» يعارضه حديث تمثال الطائر الذي كان في بيت عائشة وقول النبي لها: «حَوِّلي هذا، فإني كلما رأيته ذكرت الدنيا»، أو «فإن تصاويره تعرض لي في صلاتي».

فالأرجح قصر التحريم على المجسَّم، وأما صور اللوحات المسطَّحة على الورق أو الجدران أو الخشب ونحوها فأقصى ــ ما فيها الكراهية التنزيهية كما ذكر الإمام الخطابي، إلا ما كان فيه غلو و إسراف كالصور التي تباع بالملايين ونحوها. ويستثنى من المجسم المحرَّم لُعَب الأطفال من الدمى والعرائس والقطط والكلاب والقرود ونحوها مما يتلهى به الأطفال لأن مثله لا يظهر فيه قصد التعظيم، والأطفال يعبثون بها. ودليل ذلك حديث عائشة أنها كانت تلعب بالبنات (العرائس)، وأن صواحب لها كن يجئن إليها فيلعبن معها. وكان الرسول الكريم يُسَرُّ لمجيئهن إليها. ومثل ذلك التماثيلُ (العرائس) التي تصنع من الحلوى وتباع في بعض المناسبات، ثم لا تلبث أن تؤكل. كما يستثنى من الحظر التماثيل التي تشوه بقطع رأسها أو نحو ذلك منها

كما جاء في الحديث أن جبريل قال للرسول صلي الله عليه وآله وسلم: «مُرْ برأس التمثال فلْيُقْطَع حتى يصير كهيئة الشجرة». وأما التماثيل النصفية التي تنصب في الميادين و نحوها للملوك والزعماء فلا يخرجها من دائرة الحظر لأنها لا تزال تعظَّم. ونهج الإسلام في تخليد العظماء والأبطال يخالف نهج الغربيين، فهو يخلدهم بالذكر الحسن والسيرة الطيبة يتناقلها الخلف عن السلف ويتمثلونها ويأتسون بها. وبهذا خُلِّد الأنبياء والصحابة والأئمة والأبطال والربانيون، فأحبتهم القلوب ودعت لهم الألسنة، وإن لم تُرْسَم لهم صورة ولا نُصِب لهم تمثال. وكم من تماثيل قائمة لا يعرف الناس شيئا عن أصحابها كتمثال لاظوغلى في قلب القاهرة، وكم من تماثيل يمر الناس عليها فيلعنون أصحابها.

ومما لا خفاء فيه أن كل ما ورد في التصوير والصور إنما يعني الصور التي تُنْحَت أو تُرْسَم على حسب ما ذكرنا. أما الصور الشمسية، التي تؤخذ بآلة الفوتوغرافيا، فهي شيء مستحدَث لم يكن في عصر الرسول ولا سلف المسلمين، فهل ينطبق عليه ما ورد في التصوير والمصورين؟ أما الذين يقصرون التحريم على التماثيل المجسمة فلا يَرَوْن شيئا في هذه الصور، وخصوصا إذا لم تكن كاملة. و أما على رأي الآخرين فهل تقاس هذه الصور الشمسية على تلك التي تبدعها ريشة الرسام؟

أم أن العلة التي نصت عليها بعض الأحاديث في عذاب المصورين، وهي أنهم يضاهون خلق الله، لا تتحقق هنا في الصورة الفوتوغرافية، وحيث عدمت العلة عدم المعلول كما يقول الأصوليون؟ إن الواضح هنا ما أفتى به المغفور له الشيخ محمد بخيت مفتي مصر: «إن أخذ الصورة بالفوتوغرافيا، الذي هو عبارة عن حبس الظل بالوسائط المعلومة لأرباب هذه الصناعة، ليس من التصوير المنهي عنه في شيء لأن التصوير المنهي عنه هو إيجاد صورة وصنع صورة لم تكن موجودة ولا مصنوعة من قبل يضاهي بها حيوانا خلقه الله تعالى، وليس هذا المعني موجودا في أخذ الصورة بتلك الآلة. يؤكد هذا تسمية أهل الخليج الصورةَ: عَكْسًا، والمصوِّرَ: عكّاسًا».

هذا، ومن المقرر أن لموضوع الصورة أثرا في الحكم بالحرمة أو غيرها. ولا يخالف مسلم في تحريم الصورة إذا كان موضوعها مخالفا لعقائد الإسلام أو شرائعه و آدابه، فتصوير النساء عاريات أو شبه عاريات، وإبراز مواضع الأنوثة والفتنة منهن، ورسمهن أو تصويرهن في أوضاع مثيرة للشهوات موقظة للغرائز الدنيا، كما نرى ذلك واضحا في بعض المجلات والصحف و دور السينما، كل ذلك مما لا شك في حرمته، وحرمة تصويره، وحرمة نشره على الناس، وحرمة اقتنائه واتخاذه في البيت أو المكاتب والمحلات، وتعليقه على الجدران،

وحرمة القصد إلى رؤيته ومشاهدته. ومثل هذا صور الكفار والظلمة والفساق، الذين يجب على المسلم أن يعاديهم في الله، فلا يحل لمسلم أن يصور أو يقتني صورة لزعيم ملحد ينكر وجود الله، أو وثني يشرك مع الله البقر أو النار أو غيرها، أو يهودي أو نصراني يجحد نبوة محمد صلى الله عليه و آله وسلم، أو مُدَّعٍ للإسلام وهو يحكم بغير ما أنزل الله، أو يشيع الفاحشة والفساد في المجتمع. ومثل هذا الصُّوَرُ التي تعبر عن الوثنية أو شعائر بعض الأديان التي لا يرضاها الإسلام كالأصنام وما شابهها.

ومن المعلوم أن هناك بعض العلماء حاولوا أن يؤولوا الأحاديث الصحاح الواردة في تحريم التصوير واقتناء الصور ليقولوا بإباحة الصور كلها حتى المجسمة منها: مثل ما حكاه أبو علي الفارسي في «تفسيره» عمن حَمَل كلمة «المصورين» في الحديث على من جعل الله صورة، يعني المجسِّمة والمشبِّهة، الذين شبهوا الله تعالى، الذى ليس كمثله شيء. ذكر هذا أبو علي فارسي في كتابه: «الحجّة». وهو تكلف واعتساف لا تساعده الألفاظ الثابتة في الأحاديث. ومثل من استند إلى ما أبيح لسليمان عليه السلام وذَكَره القرآن في سورة سبأ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ ، ولم يقولوا بنسخه في شريعتنا. وهذا الرأي ذكره أبو جعفر النحاس، وحكاه بعده مكي في تفسيره: «الهداية إلى بلوغ النهاية».

ومثل من حمل المنع على مجرد الكراهة وأن هذا التشديد كان في ذلك الزمان لقرب عهد الناس بعبادة الأوثان، وقد تغير الحال في العصـور التالية. هذا مع أن الوثنية لا زال يدين بها آلاف الملايين. وهذا ما قاله بعضـهم من قبل، ورد عليهم الإمام ابن دقيق العيد بأن «هذا القول باطل قطعا لأن هذا منافٍ للعلة التي ذكرها الشـارع، وهي أنهم يضاهون أو يشبهون بخلق الله». قال: «وهذه علة عامة مستقيمة مناسبة لا تخص زمانا دون زمان. وليس لنا أن نتصرف في النصـوص المتظاهرة المتضـافرة بمعنًى خياليٍّ».

و الثابت الواضـح أن هذه الأقوال لم تقنع العقل المسـلم، وبالتالي لم تؤثر في المجرى العام للحضارة الإسلامية والحياة الإسلامية، وإنْ عَمِل بها بعض الناس في بعض البلدان، كما رأينا في أسود قصر الحمراء بغرناطة في الأندلس، وبعض ما حكاه شـمعدانٌ وُضِع للملك الكامل: كلما مضى من الليل سـاعة انفتح باب منه، وخرج منه شـخص في خدمة الملك... إلخ، وأن القرافي نفسـه عمل شـمعدانا زاد فيه أن الشمعة يتغير لونها كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، ويسقط حصانان من طائرين،

ويدخل شخص، ويخرج شخص غيره، ويغلق باب ويفتح باب، في كل ساعة لها لون، وإذا طلع الفجر طلع الشخص على أعلى الشمعدان، وأصبعه في أذنه يشير إلى الأذان. قال القرافي: غير أني عجزت عن صـــنعة الكلام. وقريب من ذلك ما حكاه ابن جُبَيْر في رحلته عن وصــف الســاعة التي كانت بجامع دمشــق، وفيها تمثال صقور... إلخ.

ولكن المؤكد أن المزاج العام للحضــارة الإســلامية لم يرحب بصــور الإنســان والحيوان، وخصوصا المجسمة منها، وغلب عليه التجريد اللائق بعقيدة التوحيد لا التجســيم اللائق بالوثنيات علي اختلاف درجاتها. ومن هنا اتجه الفن التشــكيلي في حضارتنا إلى أمور أخري فيها إبداع، وترك فيها آثارا رائعة الجمال تجلت في الزخارف التي تفنن فيها عقل الفنان المسلم ويده وريشته. وتجلي ذلك في المساجد والمصاحف والقصــور والمنازل وغيرها: علي الجدران والســقوف والأبواب والنوافذ، وعلي الأرضــيات أحيانا، وفي الأدوات المنزلية، وفي الأثاث والتحف والبُسُــط والثياب والســيوف، واســتخدمت المواد المختلفة من الحجارة والرخام والخشــب والخزف والجلد والنحاس والمعادن المتنوعة. ودخل في الزخرفة الخط العربي بأنواعه المختلفة من الثلث والنسخ والرقعة والفارسي والديواني والكوفي وغيرها،

وافتن الخطاطون في ذلك كل الافتنان، وخلفوا لنا لوحات في غاية الحسن والإبداع. وأكثر ما تجلي الفَنَّانِ: «الخط والزخرفة» في المصاحف والجوامع. أما الجوامع فلا زلنا نشهد منها آيات في الجمال كما في المسجد النبوي، ومسجد قبة الصخرة، والجامع الأموي بدمشق، وجامع السلطان أحمد والسليمانية بإستانبول، وجامع السلطان حسن وجامع محمد علي بالقاهرة، وغيرها وغيرها في أنحاء العالم الإسلامي.

وأبرز ما تجلي فيه الفن الإسلامي إنما كان في العمارة، وقد قال مؤرخو الحضارة: إن فن البناء أحسن معبر عن الفن الإسلامي. وقد ظهر ذلك في روائع كثيرة في أقطار عدة لعل أبرزها في الهند إحدى عجائب الدنيا المتمثلة في تلك الرائعة الهندسية الجمالية: تاج محل. وهكذا كان منع التصوير والنحت سببا لفتح أبواب أخري في عالم الفنون جعلت للعالم الإسلامي تميزه الخاص، ومثاليته المتفردة».

هذا ما قاله د. القرضاوى، ولعل السياق يتسع لى فأضيف بدورى شيئا قد يكون له بعض من الجدوى. لقد ورد فى كلام فضيلته أن «الملائكة هم مظهر رحمة الله تعالى ورضاه وبركته، فإذا مُنِعَتْ من الدخول في بيت فمعناه أنه محروم من الرحمة الرضا والبركة».

وكان ينبغى أن يتحرز فضــيلته هنا قليلا، إذ إن جبريل كان، طبقا لنص حديث الكلب الذى كان مختبئا تحت سرير الرسول، ممنوعا من دخول بيته ﷺ، مما يُفْهَم منه أنه كان محروما طوال ذلك الوقت من الخير والبركة. فهل يليق أن نقول هذا؟ ثم هل كلمة «سرير» بالنســبة إلى الرســول تعنى سريرا كسريرنا الذى يعلو عادة عن الأرض بما يسمح بدخول كلب تحته؟ الذى أفهمه من كلمة «سرير» فى هذا السياق هو الفراش المبســوط على الأرض لا أكثر. فكيف يتســنى للكلب أن يدخل تحته؟ كذلك وردت فى كلام الأستاذ الدكتور الإشارة إلى أن «بعض فقهاء السلف قصر التحريم على المجسَّــم (الذي له ظل)، وهو ما نطلق عليه عُرْفًا: التماثيل، فهي أوغل في مشابهة الوثنية، وهي التي يظهر فيها مضاهاة خلق الله، لأن خلق الله وتصويره مجســم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾. وفي الحديث القدسي: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟»». وخلق الله تعالى مجسَّــم، وهو الذي يمكن قبول نفخ الروح فيه، إذ المسطَّح ليس قابلاً لذلك». وإنى لأتســاءل: هل خلق الله وتصويره لا يكون فعلا إلا مجسما؟ فمَنْ خَلَقَ السطوح والمسطَّحات فى الدنيا إذن؟ الحق أنه ليس ثَمَّ خالق إلا الله سبحانه وتعالى، ســواء كان هذا الخلق مجســما أو مسطحا. فكل شىء فى الكون: مجسما أو مسطحا هو من خلق الله لا خلق أى كائن آخر. أليس كذلك؟

كذلك أحب أن أقول كلمة عن مضاهاة خلق الله، إذ الفنانون إنما يضاهون دائما ما حولهم من الأشياء والأشخاص: كما هى، أو بعد إدخال شىء من التحوير عليها طبقا للمدرسة الفنية التى يتبعها كل منهم، فلم كانت مضاهاتهم للإنسان والحيوان بالذات هى العلة فى التحريم؟ أليست مضاهاتهم للنباتات أو الشجر أو الجبال أو السحاب أو البحر أو النهر هى كذلك مضاهاة لخلق الله؟ فلماذا لا يُعْتَرَض عليهم فى ذلك أيضا؟ بل ألا يضاهى الأدباء أيضا بأقلامهم خلق الله من حيوان وإنسان ونبات وجمادات حين يكتبون رواية أو مقالا مثلا فى وصف ما يريدون وصفه من بشر وغير بشر؟ ثم إن المصورين، حتى الكافرين منهم، لا يضعون فى اعتبارهم أبدا أنهم يخلقون كخلق الله. إنهم يعرفون أن كل ما يصنعون هو تصوير ما حولهم. ولا أعلم أحدا من المصورين قال شيئا آخر سوى هذا. الواقع أن الذين قد تدور فى أذهانهم مضاهاة خلق الله بخلق مثله ليسوا هم المصورين، بل الأطباء والعلماء، الذين سول الغرور لبعضهم فى وقتٍ من الأوقات الزعم بأنه لو توفرت لهم المواد التى خُلِق منها الإنسان وأُعْطُوا الوقت الكافى لاستطاعوا هم أيضا أن يخلقوا الإنسان، على أساس أن العملية لا تزيد على أن تكون تركيبة كيميائية تخلو من المعجزة، ولا تحتاج من ثم إلى إله.

ثم إن فى مؤسسة الشُّرْطة فى كثير من البلاد المتقدمة قسما يصورون فيه، على السماع لا على المشاهدة، المجرمين الفارين من العدالة ممن لم يتمكن أحد من تصويرهم بالآلة الفوتوغرافية، إذ يُؤْتَى بجميع الشهود الذى رَأَوُا المجرم الهارب فيصفون ملامحه، ومن جُمّاع كلامهم يتم رسم صورة له تعلَّق فى الأماكن العامة كى يقبض الناس عليه أو يبلغوا السلطات بموضعه فتمسكه هى. فهل يعدّ الفقهاء هذا اللون من التصوير، وهو ليس تصويرا ظِلِّيا بل تصويرا باليد، حراما أيضا؟ ثم ماذا عن التماثيل فى عهد سليمان؟ هل كانت تخلو من فتنة الناس فى عقيدتهم؟ لكن لم؟ أهى تماثيل من نوع خاص؟ وإذا كانت التماثيل المنحوتة للمشاهير يمكن أن تفتن، فماذا عن تماثيل غير المشاهير؟ ثم لو تركنا التماثيل البشرية جانبا، هل يجوز نحت صور الأسماك والطيور والحيوانات مثلا؟ أو على الأقل: هل يصح نحت الجمادات والنباتات، التى ليس فيها روح؟

وفى عصرنا الحالى، كما يؤكد بحقٍّ د. أحمد شوقى الفنجرى، لا يخلو أى كتاب يدرَّس فى الكليات العملية من الرسوم التوضيحية لتبسيط المادة وشرحها للطلاب، وليس من المعقول ولا من الممكن طبعا أن يرفقوا كل كتاب بالأشياء والبشر المراد تصويرهم. ويشير الباحثون إلى أن المسلمين هم أول من قام بهذا فى التاريخ حينما ابتدعوا فن المنمنمات فى بعض كتبهم التى تحتوى على صور الإنسان والحيوان والطيور.

كما يستعان بفن النحت فى العلميات التجميلية للوجوه التى شُوِّهت فى حادثة من الحوادث. وهناك الصور والتماثيل التى يستعان بها فى دراسة الطب لتطبيق المعلومات التشريحية أو تعليم الصغار، وبخاصة إذا كانت التماثيل خاصة بحيوانات بادت منذ وقت طويل أو لشخصيات تاريخية لا نعرف عنها شيئا من ناحية الملامح إلا من خلال هذه التماثيل. وكنت أظن إلى وقت قريب أن صور بعض علمائنا القدامى كابن سينا مثلا والرازى وابن الهيثم وابن النفيس هى صور اجتهادية من وحى الخيال إلى أن قرأت، عند د.الفنجرى، أنها صور دقيقة قامت على أساس علمى. وإلى جانب هذا فإن الشركات الصناعية تستعين بالتماثيل للوصول بمنتجاتها إلى أحسن وضع ممكن، كما فى صناعة السيارات والقطارات، إذ يضعون تمثالا من مادة بلاستيكية تشابه جسم الإنسان فى المتانة والاحتمال، ثم يضعونها فى السيارة أو القاطرة التى يطلقونها بسرعة معينة لتصطدم عمدا بأحد الحواجز كى يعرفوا المواضع التى تتعرض أكثر من سواها فى جسد الإنسان للكسر أو التلف، ومن ثم يراعون ذلك فى تصميم السيارة أو القطار توفيرا لأكبر قدر من السلامة والأمان للسائقين (انظر ما كتبه د. أحمد شوقى الفنجرى فى هذا الموضوع فى كتابه: «الإسلام والفنون»/ دار الأمين/ 1418هـ- 1998م/ 101- 108).

ويؤسفنا أن العلماء الكرام الذين تشددوا فى الأمر لم يتنبهوا إلى هذه الملاحظ فأَفْتَوْا فتاواهم دون أن يضعوا السياق الذى وردت فيه النصوص فى الاعتبار ولم يلحظوا ما فى صنع التماثيل أحيانا كثيرة من فوائد لا يمكن نكرانها أو الغض منها بحال، مع ملاحظة أننا لا نقول بإطلاق التصوير والنحت على مصراعيه، بل لا نقول به حتى فى مجال الأدب، فكيف بالتصوير، الذى يُرِى المشاهدَ الأمرَ عيانا بيانا؟ فمن الطبيعى أننا لا نوافق ولا يمكن أن يُتَصَوَّر أننا نوافق على اتخاذ الأصنام للعبادة. كما أننا لسنا ممن يَرَوْن إقامة تماثيل للحكام المسلمين القائمين فى الحكم، إن لم يكن من أجل شىء فمن أجل أنهم فى الغالب حكام مستبدون ساقوا البلاد إلى الضياع على ما هو معروف، وإن كانت الشعوب فى رأيى، وبخاصة ذوو الرأى والتأثير فيهم، تتحمل النصيب الأعظم من المسؤولية لأن البلاد بلادهم، والمصلحة مصلحتهم قبل أن تكون مصلحة الحكام، لكنهم سكتوا بل خنعوا للحكام الفاشلين، بل هتفوا لهم حتى بُحَّتْ منهم الحناجر، و مجّدوا القمع والغطرسة والاستبداد، فحقت عليهم كلمة الذل والتخلف والهوان. كذلك فنحن بكل قوة ضد التماثيل العارية التى تثير الشهوات مهما تكلف المتكلفون فى محاولة تزيين نحتها ونصبها فى المتاحف أو الميادين العامة أو حتى فى البيوت.

وبالمناسبة فإن المسلمين القدماء لم يلتزموا دائما بالامتناع عن رسم البشر والحيوان: لقد ظهرت صور بعض الخلفاء على قطع النقود. وثَمَّ أبسطة و سجاجيد خلَّفوها وراءهم منقوش عليها صور لرجال من الحاشية ومقاتلين ومغنيات وطيور... وتحتوى كثير من المخطوطات على صور توضيحية، كـ«مقامات الحريرى» مثلا، التى تحتوى إحدى مخطوطاتها على أربعين صورة لحكامٍ عرب وفُرْس وملكات وقادة ومشاهير. كما أن سقف قاعة الحكم فى الحمراء يشتمل على صور مختلفة منها مجلس بعض الأمراء ومطاردة أحد الفرسان المسلمين لنظير له إسبانى وغير ذلك. وهناك صور آدمية وحيوانية رسمها خطاطون مسلمون من خلال تشكيل العبارات المكتوبة تشكيلا معينا. وقد أعطى الفرس بالذات لأنفسهم حرية كبيرة نسبيا فى مجال تصوير الأحياء. أما بالنسبة للتماثيل فقد أقام بعض الخلفاء فى قصورهم تماثيل لنسائهم، كما نصب بعضٌ آخرُ تماثيلَ حيوانات وطيور كما فى الأسود المنصوبة حول نوافير بعض القصور التى أنشئت على نحو ينبثق معه الماء من أفواهها عائدا إلى النافورة من جديد (انظر، على سبيل المثال، كتاب جوستاف لوبون: «حضارةالعرب»/ ترجمة عادل زعيتر/ 507- 511). وقد سبق أن أشار د. يوسف القرضاوى إلى أن المسلمين لم يمتنعوا تماما عن النحت والتصوير اللذين يستقيان موضوعاتهما من عالم الإنسان والحيوان، وإن ظل ذلك فى نطاق محدود.

وعلى كل حال فها هى ذى أبرز النصوص التى تعرض فيها القرآن إلى تلك القضية: فقد تعرض لها فى موضع من مواضعه على سبيل الامتنان على سليمان ـ عليه السلام ـ حين ذكر أنه قد سخر له الجن تصنع له محاريبَ وتماثيلَ وجِفَانًا كالجوابى وقُدُورًا راسياتٍ.

فلم ذكرها سبحانه وتعالى فى سياق الامتنان بالنعمة، وهى فى الإسلام حرام؟ أما قوله على لسان إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه فى الآية 52 من سورة «الأنبياء»: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فهو إنكار لعبادتهم إياها لا لصناعة التماثيل فى ذاتها. وفى ضوء هذا ينبغى أن نفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 138– 140]. فمن الواضح الذى لا يحتاج إلى أى شرح أن الأصنام هنا للعبادة، إذ اتخذها أصحابها «آلهة» بنص القرآن. ومثله قوله جل جلاله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: 148– 152]،

«فَأَخْرَجَ لَهُمْ (أى أخرج السامريُّ لبنى إسرائيل)﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 88- 98].

ولقد يُسْتَحَبّ أن ننقل هنا كلام النحاس ومكى بن أبى طالب فى هذا المو ضوع، وهو الكلام الذى أشار إليه د. القر ضاوى، إذ قال النحاس عند تناوله للآية 13 من سورة «سبأ» فى كتابه: «إعراب القرآن»: «قال قوم: عمل الصور جائز لهذه الآية ولِمَا أخبر الله عن المسيح. وقال قوم: قد صح النهى عن النبى ﷺ عنها والتوعد لمن عملها أو اتخذها، فنسخ الله بها ما كان مباحا قبله. وكانت الحكمة فى ذلك لأنه بُعِث عليه السلام، والصور تُعْبَد، فكان الأصلح إزالتها». وفى تفسير مكى بن أبى طالب المسمى: «الهداية إلى بلوغ النهاية»: «قال مجاهد: تماثيل من نحاس.

وقال الضحاك: «تماثيل»: تماثيل الصور. وهذا عند أكثر العلماء منسوخ بنهى النبى ﷺ عن عمل الصورة وتوعُّده لمن عملها أو اتخذها. وكان فى ذلك صلاح الدين، إذ بعثه الله عز وجل، والصور تُعْبَد، فكان الأصلح إزالتها. وقد قال قوم: عمل الصور جائز بهذه الآية وبما صح عن المسيح عليه السلام». يقصد ما جاء فى القرآن من أنه كان عليه السلام يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله.

على أن هناك مسألة سبق أن لمستها لمسا سريعا قبل قليل، وأحب أن أعود إليها بشىء من التفصيل فى هذا المقام، وهى العلاقة بين الفن (أو الجمال) والأخلاق. ذلك أن قولنا بأن فى الإسلام مكانا فسيحا للفنون شىء، والتصور الذى يظن أصحابه أن الفن عندنا ينبغى أن يكون مُعْفًى تماما من الكوابح كما هو الحال فى الدول الغربية شىء آخر. وفى هذا الصدد يوضح المرحوم مالك بن نبى وضع العلا قة بين الجمال والأخلاق قائلا: «إن هناك على الخصوص صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة، إذ إنها تحدد طابع الثقافة كله واتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه. فالحياة في مجتمع معين قبل أن تتأثر بالفنون والصناعات، أي بالجانب المادي أو الاقتصادي من الحضارة، تتخذ لها اتجاها عاما

ولونا شـــاملا يجعلان جميع تفاصـــيلها مرتبطة بالمبدإ الأخلاقي وبذوق الجمال الشـــائعين في هذا المجتمع. وبعبارة أدق إنها تكون مرتبطة بالعلاقة الخاصـــة القائمة بينهما. ونتيجة هذه العلاقة تأتي أولا في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في «ســـلم» القيم الثقـافيـة حتى يتكون نموذج معين من المجتمع بسـبب هذا الترتيب. ويمكننا أن نصـوغ هذه العلاقة في صـورة جبرية هكذا: «مبدأ أخلاقي+ ذوق جمـالي= اتجـاه حضـــارة». وتُعَـدّ إذن هـذه المعـادلـةُ مقيـاســـا عاما يدل على اتجاه الحضـــارة كما يدل ما يســـميه علماء الرياضـيات: الدال (Le discriminant) في المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية.

كذلك شـــأن الحضـــارة: تتغير ميزاتها وتتجه بوجه خاص طبقا لعلاقة المبدإ الأخلاقي وذوق الجمال في المعادلة الحضـارية، أي طبقا لترتيب هذين العنصرـين في تلك المعادلة. وعليه فإنه يمكننا القول إن هناك، بصـــورة عامة، نموذجين من المجتمع: نموذجا يقوم فيه النشاط أساسا على الدوافع الجمالية، و نموذجا يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية أوّلاً. وهذا الاختلاف الأساسي ليس مجرد اختلاف شـــكلي. إنه يؤدي إلى نتائج تاريخية ذات أهمية كبيرة. فالنموذجان اللذان يختلفان هكذا بسبب اختلافهما في ترتيب عناصر الثقافة لا يتطوران في اتجاه واحد. بل إنه في بعض الظروف تنشـأ بينهما متناقضـات جذرية حتى إن الأمر الذي لا يريد أحدهما، بل لا يمكنه أن يريد، تحقيقه بسبب أخلاقي نرى الآخر يحققه بسبب جمالي.

ولنتخذ دليلا على هذا من حضارتين:

1-إن المجتمع الغربي قد مارس، من بين فنونه، فن التصوير و تصوير المرأة العارية بخاصة بسبب الدافع الجمالي، بينما لا نرى الفن الإسلامي قد خلف آثارا في التصوير كذلك الذي نشاهده في متاحف الحضارة الغربية لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يطلق العِنَان للفنان أن يعبر عن كل ألوان الجمال، وعلى وجه الخصوص المرأة العارية.

2-إن تطور الملابس في المجتمع الغربي قد انطلق من نقطة معينة هو إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره، بينما نجد أن تطور الملابس في المجتمع الإسلامي قد اتخذ اتجاها مخالفا تمام الاختلاف، إذ هو يهدف أساسا بوسائل مثل «ملاية اللف» أن يخفي جمال المرأة في الشارع.

وليس الأمر في هذين الاتجاهين أمر تفكير واختيار، و إنما هو أمر تقليد يخضع للوراثة الاجتماعية وللعادات والتقاليد. وليس يعني أن الثقافة الإسلامية تفقد عنصر الجمال، وإنما تضعه في مكان آخر في سُلَّم القيم. فكل ثقافة تتضمن عنصر «الجمال» وعنصر «الحقيقة»، غير أن عبقرية إحداهما تجعل محورها الجمال، بينما الأخرى تفضل أن يكون محورها الحقيقة. والاختلاف هذا يعود إلى الأصول البعيدة: فالثقافة الغربية قد ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني الروماني،

أما الثقافة الإسـلامية فقد ورثت الشـغف بـــ«الحقيقة» من بين ميزات الفكر السـامي. فكان رواد الأولى وحملة لوائها زعماء الفن من فيدياس (Phidias) إلى مخائيل أنجلو (Michel Angelo)، بينما قادة الأخرى أنبياء مثل إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ومن هنا لم يكن من محض الصدفة أو من لغو الحديث أن مؤرخي النهضة الأوربية يحددونها بأنها «رجوع إلى الحضارة الرومانية اليونانية».

ولقد كان لهذا الاختلاف في الأصول البعيدة للحضارتين أثر فيما ينتجه الفكر في كل واحدة منهما: فالعبقرية الأوروبية أنتجت مناهج أدبية كتبت على رايتها خلال القرون أسماء لامعة منذ أسشيل (Aschyle) وسوفوكل (Sophocle) إلى راسين وبلزاك ودستويفسكى حتى برنارد شو. غير أن هذه العبقرية بعيدة عن وحي التوراة والإنجيل والفرقان. وعلى العكس من ذلك فإن الأدب العربي، والأدب الإسلامي بصفة عامة، لم ينتج التراجيديا ولا القصة، بل لم يحاول أن ينتجهما إلا في القرن العشرين، و في صورة تدعو أحيانا للأسف. وعليه فإن كل ثقافة تتضمن علاقة «مبدأ أخلاقي- ذوق جمالي» تكون ذات دلالة من نوع عبقرية مجتمع معين. وهي ليست تطبع إنتاجه الأدبي بطابع خاص فحسب، وإنما تحدد اتجاهه في التاريخ أيضا».

وهذا كلام طيب إلى حد بعيد. وإذا كان هناك من ينكر الاعتراض من هذا الوجه على الفنون والآداب فاعتراضـــه خاطئ من أســـاســـه، إذ لا يُعْقَل أن يبنى الدينُ المجتمعَ الصالحَ بيدٍ ليستدير فيهدم باليد الأخرى ما كان قد بناه. لقد جاء الإسلام لتصحيح العقيدة وتتميم مكارم الأخلاق، فيكف يُتَصَوَّر أنه يمكن أن يقف صامتا إزاء أى عمل يهدد العقيدة أو يضرب الأخلاق فى الصميم؟ إن هذا هو ما يسمونه: «انفصام الشخصية»، ودين الله أَقْوَمُ وأَطْهَرُ من أن يُظَنّ به ظنُّ السَّوْء. لكننى أود أن أبين أن الإســلام، حينما يرى أن القيمة العقيدية أو الخلقية يجب أن تظل نصــب عين الفنان، فهو لا يدعو إلى التحامل على «الجميل»، وإلا لرأيناه يعمل على تشويه «الجميل» وإظهاره فى صــورة قبيحة، وهو ما لم يحدث قط، بل هو يعمل دائما على الموازنة بين «الجميل» وبين «الأخلاقى» من خلال إبراز «الجميل» فى صورة كريمة، أى الحفاظ على الجانبين معا. أما الحضارة الغربية فإنها، حسب هذا التحليل، هى التى تغلِّب «الجميل» (أو بالأحرى: تغلّب «المثير للشهوة») على «الأخلاقى». ذلك أن ما يعمل الإسلام على ســتره فى هذا الســياق ليس هو الجميل، بل المثير للشــهوة الجنســية. كذلك ليس شرطا إلزام الأديب أو الفنان بالدعوة إلى القيم الدينية والأخلاقية، بَلْهَ أن يكون الدعاء إليها فِجًّا لا فن فيه ولا إبداع، بل يكفيه ألا يصادمها.

كذلك فقول ابن نبى إن الأديب المسلم لم يستطع أن يبدع المسرحية والقصة إلا فى القرن العشرين، وفى صورة تدعو للأسف، هو قول لا أستطيع أن أشاطره إياه فيما يخص القصة، إذ عُرِف الفن القصصى ـ فى أدبنا العربى وغيره من الآداب الإسلامية منذ أزمان طويلة. والواقع أنه لم يحدث أنْ خلا أى أدب من هذا الفن يوما، إذ الفن القصصى يجرى فى عروق البشر، ولا علاقة له بنوع الحضارة، بل هو شىء إنسانى لا يقتصر على قوم دون غيرهم من الأقوام. ففى التراث الأدبى الذى خلّفه لنا أسلافنا قَصَصٌ كثير منه الدينى، ومنه السياسى، ومنه الاجتماعى، ومنه الفلسفى، ومنه الوعظى، ومنه الأدبى، ومنه ما وُضِع للتسلية ليس إلا. ومنه الواقعى، ومنه الرمزى. ومنه المسجوع المجنَّس، ومنه المترسِّل. ومنه المحتفَى بلغته، والبسيط المنساب. ومنه الطويل مثل «رسالة النمر والثعلب» لسهل بن هارون (ت215هـ)، و«رسالة التوابع والزوابع» لابن شُهَيْد (382- 426هـ)، و«رسالة الغفران» و«رسالة الصاهل والشاحج» للمعرى (363- 449هـ)، و«سلامان وأبسال» و«رسالة الطير» لابن سينا (370- 427هـ)، و«رسالة حَىّ بن يقظان» لكل من ابن سينا وابن الطُّفَيْل (ت581هـ) والسهروَرْدِىّ (549- 587هـ)، وقصص «ألف ليلة وليلة»، و«سيرة عنترة»،

و«سيرة سيف بن ذى يزن»، ومنه القصير كالحكايات التى تَغَصّ بها كتب الأدب والتاريخ المختلفة وجَمَعَ طائفةً كبيرةً منها محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ومحمد أحمد جاد المولى فى أربعة مجلدات كبار، و«كليلة ودمنة» لابن المقفع (ت146هـ)، و«البخلاء» للجاحظ (163- 255هـ)، و«الفرج بعد الشدة»، و«نشوار المحاضرة» للقاضى التنوخى (327- 384هـ)، و«المقامات»، و«عرائس المجالس» للثعالبى (350- 429هـ)، و«مصارع العشاق» للسراج القارى (417- 500هـ)، و«سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» لابن ظَفَر الصِّقِلِّىّ (ت565هـ)، و«المكافأة» لابن الداية (ت340هـ)، و«غُرَر الخصائص الواضحة وعُرَر النقائض الفاضحة» للوطواط (632- 719هـ)، و«المستطرَف من كل فنٍّ مستظرَف» للأبشيهى (790- 852هـ)، و«عجائب المقدور فى أخبار تيمور» و«فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» لابن عربشاه (791- 854هـ)، وبعض قصص «ألف ليلة وليلة» أيضا، وما ذكره ابن النديم فى «الفهرست» من كتب الأسمار الخرافية التى تُرْجِمَتْ عن الفارسية والهندية واليونانية، أو رُوِيَتْ عن ملوك بابل، أو أُلِّفَتْ بالعربية، فكانت حوالى مائة وأربعين كتابا: المؤلَّف منها بلسان العرب فقط نحو ثمانين كتابا كلها فى أخبار العشاق فى الجاهلية والإسلام، ودعنا مما أُلِّفَ بعد ذلك...

ومنه النثرىّ كالأمثلة السـابقة، والشِّـعْرِىّ كشـعر الشَّـنْفَرَى عن لقائه بالغول، وقصيدة الحُطَيْئة: «وطاوِى ثلاثٍ عاصبِ البطن مُرْمِلٍ»، وكثير من قصائد عمر بن أبى ربيعة، وأبيات الفرزدق عن الذئب، ورائية بشـار، ومغامرات أبى نواس الخمرية، وقصيدة المتنبى عن مصارعة بدر بن عمار للأسد... وهلم جرا.

على أن ليس معنى ذكر الكتب والمؤلفات فى هذا السياق أن الفن القصصى لم يُعْرَف عند العرب إلا فى عصر التدوين بعد أن انتشر نور الإسلام وتخلص العرب من الأمية وأصبحوا أمة كاتبة قارئة مثقفة كأحسن ما تكون الأمم ثقافة وتحضرا، بل كان هذا الفن معروفا قبل ذلك فى الجاهلية. وهذا الحكم يستند أولا إلى أن حب القصص نزعة فطرية لا يمكن أن يخلو منها إنسان، فضلا عن مجتمع كامل كالمجتمع العربى قبل الإسلام. وفى الفقرة التالية يؤكد كاتب مادة «Storytelling» فى «الويكيبيديا» عن حقٍّ أن جميع المجتمعات البشرية، قديما وحديثا، قد عرفت رواية القصص. وهذه هى عبارته نصا: People in all times and places have told stories

وثانيا إلى أن لدينا قصصا كثيرا تدور وقائعه فى الجاهلية وينتسب أبطاله إليها. وقد اقتصر دور الكتاب الأمويين والعباسيين على تسجيل ذلك القصص، وقد يكونون تدخلوا بأسلوبهم فى صياغته، وهذا أبعد ما يمكن أن تكون أقلامهم قد وصلت إليه. ومن الواضح أن هذا القصص يصوّر المجتمع العربى قبل الإسلام تصويرا لا يستطيعه إلا أصحابه.

وثمة خبر أورده المسعودى فى «مروج الذهب» عن معاوية يدل على أنه كان هناك منذ خلافته على الأقل تدوينٌ كتابيٌّ لما كان الجاهليون يروونه من قصص وحكايات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثَمَّ لم ينتظر حتى مجيء العصر العباسى. وهذا هو النص المذكور، وقد ورد فى سياق كلام المسعودى عن المنهج الذى كان معاوية يتبعه فى إنفاق ساعات يومه نهارا وليلا، وهو خاص بسماع العاهل الأموى أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية: «ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطُّرَفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتَّبون، و قد وُكِّلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسَمْعه كلَّ ليلة جُمَلٌ من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم». ولدينا أيضا كتاب «أخبار عَبِيد بن شَرِيّة الجُرْهُمِيّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها»، الذى سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن.

ويذكر ابن النديم أن عَبِيدًا وَفَد على معاوية فسأله العاهل الأموى عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم و سبب تبلبل الألسنة وأَمْر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يُدَوَّن ذلك ويُنْسَب إلى عبيد. وهو الكتاب الذى يؤكد المسعودى أن صاحبه هو الوحيد الذى صح وفوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية.

واللافت للنظر أن الأغلبية من كتّاب القصة ونقادها فى بدايات العصر الحديث بأرض الكنانة مثلا لم ينظروا إلى القصة على أنها شىء جديد، بل على أنها امتداد للقصص العربى القديم، إن لم تكن هى هو. وهذا واضح مما كتبه رفاعة الطهطاوى فى مقدمة ترجمته لرواية فنلون التى عنونها بـ«مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك»، إذ قال إنها موضوعة على هيئة مقامات الحريرى فى صورة مقالات. كما يقارن عبد الله النديم فى مقال له بمجلة «الأستاذ» بتاريخ 10 يناير 1893م، الأسلوب الذى كُتِبَتْ به رواية سعيد البستانى: «ذات الخدر» بأسلوب السِّيَر الشعبية ويدافع عنها على هذا الأساس. كذلك كان حافظ إبراهيم، حين ترجم رواية هوجو: «البؤساء»، ينظر إلى عمله على أنه امتداد لما كان العرب يعملونه فى العصر العباسى من نقل القصص الأجنبى القديم إلى لسانهم.

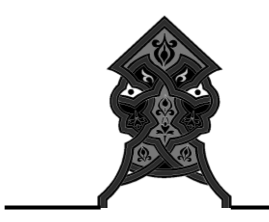
وهذا الكلام متاح لمن يطلبه فى مقدمة الترجمة المذكورة. وهو نفســه ما قاله تقريبا جرجى زيدان فى الجزء الرابع من كتابه: «تاريخ آداب اللغة العربية»، وإن أضاف أن القصص العصرى ينحو نحو الواقعية التى تلائم روح العصر.

أما الاعتراض بأن شكل القصة العربية القديمة يختلف عنه فى القَصَص الحديث فليس بشىء لأن الفن القصصى تتغير أشكاله مع الزمن، والقصص الغربى نفسه فى بدايته يختلف عنه الآن من هذه الناحية اختلافا شديدا، وليس هذا بمسوغ عند أحد للقول بأن الغرب لم يكن يعرف القصــة من قبل. بل إن عددا كبيرا مما تركه العرب من قَصَــص ليصــمد لمحكّ الشــكل الفنى الحديث رغم أن هذا ليس بشرـط أبدا، فلكل زمان ولكل مكان دولة ورجال، وكثير من النقاد العرب الكبار فى عصرـنا قد أثبتوا هذا وأطالوا القول فيه. والمهم أن يتألف العمل القصــصىـ من أحداث تقع فى زمان ومكان معينين وشخصيات وحوار وسرد وموضوع تدور عليه القصة وشكل فنى محكم يتكون من بداية وعقدة ونهاية. أما التفصــيلات فتختلف من زمن إلى زمن، ومن أمة إلى أمة، تبعا للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والذوقية،

وما إلى ذلك. وما يعجبنا اليوم ربما لا يعجب أبناءنا وأحفادنا غدا، مثلما لا يعجبنا بعض ما خلفه لنا أســلافنا. وهل تجرى الحياة على وتيرة واحدة؟ إن هذا لهو المستحيل بعينه، فلماذا يشذ الفن القصصى عن هذه السُّنّة

وتكون القصة الغربية فى العصر الحديث هى «القصة» بـ«أل» الماهية، وما سواها ليس بقصــة؟ وإذا كنا قد ترجمنا ولا نزال نترجم الأعمال القصــصــية التى يبدعها الغربيون فقد ترجموا هم بدورهم كثيرا من الأعمال القصــصــية التى أبدعها أجدادنا وتأثروا بها مثلما تأثرنا نحن بهم. ترجموها إلى اللغات الأوربية المختلفة، وكثيرا ما ترجموا هذا العمل أو ذاك إلى اللغة الواحدة عدة مرات. وهى ســنة كونية لا تتخلف أبدا: كل أمة تأخذ من غيرها وتعطيها.





الحضارة الإسلامية في عز مجدها : «لمحة طائر»



تبدأ الحضارة الإسلامية مع بداية الإسلام عام 622م. ذلك أن النبي ﷺ وضع أُسس دولة حضارية متينة مستمدة من روح القرآن الكريم وتعاليمه. ومع الدعوة الجديدة اتجه الناس نحو عبادة الإله الواحد، والانتظام في قوانين ودساتير مدنية نظمها القرآن الكريم. فبدأ العرب ينضوون تحت لواء الإسلام، وينتظمون فيما أخذ يشكل دولة حقيقية. وفى تلك الرقعة الشاسعة التى بلغ بها الإسلام أقصى أنحاء العالم ترسخت أسس حضارة إسلامية في عقل الإنسان الفرد وقلبه، وفي ضمير الجماعة.

ومن أبرز الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في العهد النبوي عقيدة التوحيد. وترتَّب على هذا التوحيد آثار إيجابية في بناء المسلمين لأن الناس عندما تُقْبِل على الخضوع لله وحده تُحِلّ الحلال وتُحَرِّم الحرام وتجاهد في سبيل الله لإرساء قيم الحق والعدل والمساواة والكرامة والعلم النافع. ويخبرنا التاريخ الإسلامي أن العقيدة الإسلامية هي التي أفرزت بطولات نادرة، وجعلت المسلمين ينتصرون على شهواتهم، ثم يصمدون أمام قوى البغي والعدوان في مكة، وينتصرون في الغزوات والسرايا التي انطلقت من المدينة المنَّورة. ومن يتابع أبحاث المستشرقين المنصفين يلحظ أنهم يقفون مندهشين أمام هذه الظاهرة العجيبة في الحضارة الإسلامية.

ومن هذه الأسس أيضا وحدة الأمَّة ورَفْض كل العصبيات الطبقية والقومية والعنصرية والقبلية وما شابه ذلك، إذ جعل الإسلام رابطة العقيدة هي الأصل الذي يجتمع ويتفرق عليه الناس. والحق أن إلحاح الإسلام على وحدة الأصل البشري وبناء علاقات الناس على هذا الأساس يمثل سمة إنسانية حضارية بارزة في تشريعات الإسلام المختلفة. فمثلاً يقف الناس جميعًا في الصلاة بين يدي الله متراصين دون أى تفرقة بين غنى وفقير أو حاكم ومحكوم، ويلبسون زيا واحدا في الحج، ويؤدون المناسك جميعها بعضهم مع بعض. كذلك عبرت نصوص القرآن والسنة عن العدل، وطبّقه الرسول والصحابة تطبيقا صارما. وهناك أيضا العِلْم، فقد جاء الإسلام ليعيد ترتيب العقل الإنساني ثم يُطلقه ليعرف ربَّه من خلال آياته في الكون والنفس بقصد البناء. وكان أول ما نزل من الوحي يختص بالعلم، وهو قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]. وامتن الله على رسوله عليه السلام بالعلم في مواضع كثيرة من القرآن، وامتن على المسلمين بأنه قد بعثه فيهم رسولاً كما في قوله تعالى :﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]،

وفضَّــل الله العلماء على غيرهم. ومن دلائل اهتمام الرســول بالعلم أنه جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم الواحد منهم عشرــة من أبناء الأنصــار القراءة والكتابة. ووردت أحاديث كثيرة في الحث على تحصيل العلم النافع، مما كان له الأثر الفعال في بناء حضارة إسلامية رائدة.

وبالمثل كان الجهاد بجميع ميادينه ومعانيه أعظم و سيلة لتحقيق العمل بالدين بما في ذلك نشرـ مبادئ العدل والمســاواة والإخاء والحرية وحماية الدين بالنفس والمال. ولذا رغَّب فيه الإسلام ترغيبًا شديدًا حين جعل ثواب المجاهدين الشهداء في المرتبة الأولى من مراتب الأعمال الصــالحة. والتزم النبي بالعهود والمواثيق في جهاده ضــد المشرــكين في حالتي الحرب والســلم مهما كلّفه ذلك. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها أن جماعة من المســلمين المســتخْفِين بإســلامهم خرجوا من مكة للّحاق بالمســلمين بالمدينة أثناء حصــار الأحزاب لها، ولكن لم يســمح لهم كفار قريش بدخولها، إلا إذا التزموا بعدم الحرب مع المسلمين. فلما أخبروا الرسول قال: نَفِي بعهدهم ونستعين بالله عليهم. وعندما هاجر إلى المدينة خلَّف وراءه عليًا ليؤدي عنه أمانات الكفار التي كانت بيده، ولم يستحل لنفسه الاستيلاء عليها.

كذلك تمثل آيات القرآن دستورا شاملا لتربية الأفراد والجماعات تربية صحيحة في شتى مجالات الحياة. والحق أن كل القيم التي أسست لقيام الحضارة الإسلامية في العهد النبوي هي من آثار تلك التربية الإسلامية الصحيحة للفرد والجماعة. وتميزت هذه التربية التي بدأت بدار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة بأنها تربية أخلاقية شمولية تتناول كل شأن من شؤون المسلم، وبأنها قرنت القول بالعمل. وكان لُحْمَتها وسَدَاها الأخلاق الإنسانية الراقية التي يلحظها الإنسان في جميع أحكام الإسلام من فروض وسنن ومندوبات ومستحَبّات. وتمثل ذلك كله في شمائل الرسول و صحابته. ويدرك الناظر في كتاب «الأنوار في شمائل النبي المختار» للإمام البغوي هذه الحقيقة، إذ يكفي دلالة أن تعلم أنه أورد (1257) حديثًا وأثرًا معظمها في الأخلاق.

ومعروف أن العمل هو الذي يشيّد صرح الحضارة، ومن ثم قد علّم الإسلام المؤمنين المثابرة على العمل، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتعوّذ من العجز والكسل، موضحا أن الذي يخرج لطلب الرزق لأبويه الشيخين أو لذريته الضعاف أو ليُعِفّ نفسه من مذلة السؤال هو في سبيل الله. وارتقى الإسلام بالعمل، أيا كان نوعه، إلى مرتبة العبادة ما دام يُبْتَغَى به وجه الله.

وحثّ الإسلام الناس على العمل لعمارة الأرض في شتّى الميادين الاقتصادية، مثل استصلاح الأرض الموات انطلاقا من قول الرسولﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له». ولذا شهدت وقائع التاريخ الإسلامي حركة عظيمة لاستصلاح الأرض وتحسين أساليب الزراعة وتنويع المزروعات، ومثل التعدين والإنتاج الصناعي انطلاقا من توجيه القرآن أنظار المؤمنين إلى أهمية المعادن، وفي مقدمتها الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 2]، ومثل النشاط التجاري الذي انطلق من حث الله الناس للضرب في الأرض ابتغاء فضله.

ومن جهة الوعي بالزمن لا يختلف اثنان مع المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي، يرحمه الله، في تحليله لشروط النهضة الحضارية عمومًا حين قال: إن مشكلة الحضارة تنحلّ إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت. فالإسلام يربّي الإنسان المؤمن به على محاسبة نفسه على كل لحظة يعيشها واستغلال كل لحظة للصالح العام والخاص. قال عليه الصلاة والسلام: «من أحس قيام الساعة وبيده فسيلة فليغرسها». ومن أول ما يُسأل عنه المرء يوم القيامة عمره فيم أبلاه.

وإذا أردنا أن نلم بعصور الحضارة الإسلامية فى عجالة فنستطيع أن نقول: في السنة الحادية عشرة للهجرة توفي النبي بعد أن حج حجة الوداع. وجاء بعده الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر الصديق فعمر بن الخطاب فعثمان بن عفان فعلي بن أبي طالب، فوجهُّوا اهتمامهم إلى نشر رسالة الإسلام على هدي الرسول واتسعوا في الفتوح.

وفي عام 41هـ انتقلت الخلافة إلى دمشق مع الخلفاء الأمويين الأربعة عشر، الذين ركز معظمهم على إرساء معالم الحضارة الإسلامية. وفي عصرهم تطور الشعر والنثر بأنواعهما المختلفة، كما ازدهرت بعض نواحي العلوم والموسيقى والغناء. ومع الأمويين اتسع العالم الإسلامي صوب مشارق الأرض ومغاربها، وبلغت فتوحهم إفريقيا الشمالية والمغرب، ثم عبروا إلى أسبانيا (الأندلس)، فأنشأوا فيها حضارة إسلامية راسخة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

وفي عام 132هـ انتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد مع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين، الذين انقسم عصرهم إلى أربع حقب زاخرة، إذ بلغت الخلافة الإسلامية أوانئذ أقصى مداها. ففي العصر العباسي اتخذت الدولة شكلاً متطورًا، وعرف المجتمع الإسلامي عصره الذهبي. وكان من أواصر هذا التقدم الحضاري قيام المجتمع الإسلامي على ثلاث وحدات: وحدة الدين، ووحدة الاقتصاد، ووحدة اللغة.

وفي ذلك العصر قامت المذاهب الفكرية التي تعالج قضايا الشريعة والعقل مستمدة مواقفها من روح القرآن الكريم. ومن أبرز مآثر العصر العباسي تأسيس «بيت الحكمة» على عهد المأمون، وكان تجمعًا لكبار المفكرين والمترجمين والعلماء. وفيه بدأت عمليات الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية حيث تمت ترجمة الكثير من كتب الفكر والعلوم وتأليفها، مما أهَّل المسلمين لاستقبال الفكر الإنساني في أبلغ مصادره. وإلى جانب الشعر والنثر الفني برز أدب السيرة والرواية والتصنيف الأدبي وفقه اللغة والمعاجم والنحو والعلوم الدينية والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية والغناء والموسيقى. ويمكن القول إن العصر العباسي رفد الحضارة الإسلامية بالعلوم وشتى مجالات المعرفة، وهو ما ظهر أثره لاحقًا على الفكر العالمي والإنتاج الغربي. ثم أصيب العصر العباسي للأسف بنكبة حضارية كبرى حين اجتاح المغول البلاد الإسلامية وأشاعوا الرعب والقتل ودمروا، ضمن ما دمروا، مكتبة بغداد، فدخلت الحضارة العربية عصرًا أطلق عليه بعض الدارسين: عصر الانحطاط، بعد أن أقام المسلمون بين القرنين السابع والثالث عشر الميلاديين حضارة عالمية جعلتهم في طليعة الشعوب المتحضرة. وقد شملت هذه الحضارة العظيمة أسبانيا وإفريقيا الشمالية في الغرب، وشعوب العالم القديم من مصر إلى سوريا إلى بلاد ما بين النهرين في الشرق. وكان واضحًا أن سرعة انتشار الإسلام هي التي عجّلت بربط أجزاء الخلافة الإسلامية. وهكذا كان الإسلام هو المحرِّك، وكانت اللغة العربية هي الصلة.

وقد حققت الحضارة الإسلامية العربية في فترة ازدهارها الكثير من الإنجازات في ميادين المعرفة المختلفة، خصوصًا في مجالات الرياضيات والفلك والطب والعمارة والجغرافيا والفيزياء والهندسة: ففي الرياضيات اخترع الخوارزمي، أحد علماء المأمون، علم الجبر وانتشر العلم بفضله في العالم. وأخذت أوروبا في الرياضيات عن العرب مفهوم «الصفر» ونظام التقويم والنظام العشري، الذي دفع بعلم الرياضيات خطوات إلى الأمام، وكذلك الأرقام العربية التي هي اليوم أوسع الأرقام انتشارًا في العالم. وفي علم الفلك شهدنا ظهور الأسطرلاب العربي، الذي أوجده العلماء المسلمون لتحديد أوقات الفجر والمغرب والصوم، ثم طوّروه فاكتشفوا خطوط الطول والعرض وسرعة الصوت والضوء حتى أصبح ذلك مرجعًا لعلماء الغرب. وتمكن البيروني من اكتشاف دوران الأرض حول الشمس، وهو ما أثبته جاليليو بعد ستة قرون. وترجم الفلكيون العرب كالزرقالي والفرغاني والفزاري مؤلفات بطليموس في الفلك وأضافوا إليها ثم تركوا ذلك كله مرجعًا للفلكيين الغربيين. وفي ميدان الطب تفوق العرب في فنون العلاج التي كانت معروفة في مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين. وكانت مؤلفات الرازي المتقدمة في الطب مرجعًا للأوربيين

حتى وقت متأخر من القرن السادس عشر الميلادي. كما ظل الأوروبيون حتى القرن السابع عشر يتعلمون من نظريات ابن سينا الطبية ككلامه فى الطب العقلي، الذى أصبح فيما بعد أساسًا لعلم النفس. واشتهر عند العرب أيضًا أمر التداوي بالأعشاب والمواد الطبيعية من ثوم ومُرّ وعصير جُلاّب وماء زهر... إلخ، ومنهم انتشرت إلى الشرق الأوسط فأوروبا. وفي علوم الفيزياء أفاد الأوروبيون من علماء الإسلام فوائد جمة، وبخاصة فى حقل البصر والبصريات، من مؤلفات الكندي وابن الهيثم. وفي الفلسفة ترجم العرب أهم مصادرها المشرقية واليونانية القديمة مع تطويرها، فاشتهر الكندي بتطوير فلسفة أفلاطون وأرسطو، والفارابي بفكرة «المدينة الفاضلة»، وابن سينا بفلسفته العقلية، وابن خلدون بنظرياته الاجتماعية التي لا تزال حتى اليوم أصل مؤلفات الكثيرين من الفلاسفة الاجتماعيين الغربيين. وبرز ابن رشد بفلسفته التي ارتكز عليها بعده فلاسفة غربيون كبار.

كذلك كان للعرب فى مجال الملاحة والجغرافيا تأثير كبير على الغرب. وقد أخذ العرب من الكنعانيين و قدامى المصريين ما أعانهم على تطوير البوصلة. وبرع الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي بابتكاراته ومكتشفاته، إذ وضع أول أطلس في العالم، حاويًا سبعين خريطة بعضها لمناطق لم تكن معروفة من قبل. وكانت رحلات ابن بطوطة خير معين للأوروبيين على معرفة مناطق جغرافية لم يكونوا يعرفونها. وفي القرن السادس عشر تمكن حسن الوزان

(وهو يُعْرَف عندهم باسم «ليون الإفريقي») من كشف مجاهل إفريقيا، مما استفاد منه الغربيون استفادة هائلة. وفي رحلات فاسكو دي جاما الشهيرة كان الملاح العربي أحمد بن ماجد هو البحار الرئيسي في القيادة. ويقال إن كريستوفر كولمبوس كان يتكل على بحار عربي في توجيه حملته البحرية التي أدت إلى اكتشاف أمريكا.

وفي العمارة عرف المسلمون طرازًا معماريًّا متميزا تجسد في بناء المساجد. ويعترف علماء الغرب أن الجامع الأموي في دمشق وجامع ابن طولون في القاهرة كانا أساسًا لبناء عدة كاتدرائيات ضخمة في أوروبا. وقد تأثر فن البناء الغربي كثيرًا ببناء المآذن والأقواس والقناطر والأهِلّة والأطراف والمثلثات والمنحنيات المعكوسة وهندسة القباب والمكعبات، مما أخذه الأوروبيون عن مساجد مكة والقدس والقاهرة ودمشق. وكان لفن الزخرفة والخط والنقوش تأثير كبير على الأوروبيين، خاصة ما تركه العرب في الأندلس كقصر الحمراء والجامع الكبير في قرطبة. وعلى نفس المنوال برع العرب في الحرفيات الدقيقة والمنمنمات والزجاجيات والخزف والحفر والبلَّور ومزج الألوان وصباغة الحرير والأقمشة والجلود والدباغة وصقل الحديد. ومازالت بعض هذه الخامات والحِرَف تحمل في الغرب اسمها الأصلي: دمقس، حرير دمشقي، دباغة مغربية، أزرق محمدي. ويرددها بعض الغربيين كما هي في أصلها العربي تقريبا.

ولم يتوقف إبداع المسلمين الحضاري عند هذا الحد، بل كانت لهم تطويراتهم في الموسيقى وآلاتها أيضا، وما زالت هناك حتى اليوم آلات عديدة كالقيثارة والطبلة والناي والمزمار ومزمار القربة... إلخ.. معروفة على أنها تطوير غربي للآلات الموسيقية العربية. كما أخذ الأوروبيون الكثير من الألحان العربية التي كانت شائعة في غناء القصائد العربية في قصور الملوك. وعلى ذات الشاكلة أخذ الغربيون جماليات اللسان العربي فدخلت كلمات وعبارات عربية كثيرة إلى عدة لغات أوروبية، ولا تزال حتى اليوم جزءا من نسيج هذه اللغات كالإنجليزية والفرنسية والأسبانية والإيطالية والألمانية. وأثرت مؤلفات عربية مثل «حي بن يقظان» لابن طفيل و«ألف ليلة وليلة» و«مقدمة ابن خلدون» وغيرها في الفكر والأدب الغربي تأثيرا عظيما. كما اشتهر العرب أيضا بفن الجنائن والحدائق، وبات كتاب «الفِلاَحة الأندلسية» لابن العوام مرجعًا أوروبيًّا في علم النبات لأنه وصف فيه نحو خمسمائة نبتة، وبيَّن طريقة زراعتها والاعتناء بها وبالأرض والتربة. وكذلك ظل الأوروبيون لوقت طويل يستفيدون من العرب، خاصة الأندلسيين، في فنون حفظ الخضراوات والفواكه والأزهار، ومواد التجميل ومساحيق الوجه والعطور والتطيب والجواهر والحُلِيّ.

هكذا نجد أن المســلمين ســاهموا في إعلاء الحضــارة العالمية وتقدمها وتطورها بفضــل أعلامهم في العلوم والفنون والتربية والفلســفة والشــعر والموســيقى. وفي مكتبات العالم اليوم آلاف الوثائق التي تشهد بفضل المنجزات الحضارية الإسلامية في حقول الفلك والرياضــيات والفيزياء والكيمياء والطب والصــيدلة والجغرافيا والعمارة والموســيقى، وما كان لهم من تأثير في تصــنيع النســيج والورق والدهان والصــابون والحبر والشــمع والســكر والنشــاء والزيوت النباتية والعطور والبارود، وكذلك في اكتشــاف أو تطوير الميزان ورقاص الســاعة والســاعة المائية والطاحونة المائية والهوائية والآلات الفلكية وأجهزة ســكب المعادن وصــك النقود والمعدات الحربية والأدوات الطبية والجراحية، وبناء الجســور والقنوات المكشــوفة وجر المياه والتدفئة والتبريد وأنظمة الري والحمامات العامة وأبراج المراقبة والتحصــينات العسكرية و سواها من الإنشاءات والابتكارات والاكتشافات التي يعترف الغرب اليوم بفضــلها للعرب وحضــارتهم. وبهذا تكون الحضــارة العربية الإســلامية قد قدمت للحضارة العالمية إسهامات رئيسية ما يزال العالم يستخدمها اليوم، مديناً بها للعرب بالسبق والابتكار.

أما بالنسبة للأندلس فقد فَتَحَ المسلمون شبه جزيرة أيبرية بقيادة طارق بن زياد في رمضان عام 92هـ- 711م بعد أن انتصروا على جيوش القُوط، وأسّسوا دولة إسلامية حكمت ثمانية قرون من الزمان تمتد من نهاية القرن الأول حتى نهاية القرن الثامن الهجري (92- 798هـ)، الموافق للفترة من القرن الثامن حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (711- 1492م). وقد أدّت الأندلس، في عهود ولاتها الذين شجّعوا العلم ورَعَوْا حقوق العلماء، دورًا مهمًا في نقل الحضارة العربية الإسلامية من المشرق إلى المغرب، فقامت بحمل مشاعل الفكر والمعرفة مبددة ما حولها من ظلام الغرب وتخلّفه قبل أن يبدأ ما عُرف بـ«عصر النهضة»، الذي كانت أوروبا تعيش قبله في جهل وظلام فكري وروحي. وتميّزت الحضارة الإسلامية بالأندلس بمقومات عدّة أهمها: العقيدة، أى الدين الإسلامي، واللّسان، وهو اللغة العربية، فاختلفت بذلك عن كل الحضارات التي سبقتها أو لحقت بها فى شبه جزيرة أيبريا، إذ إن هويتها إسلامية عربية، فهي تَحْمِل قيم الإسلام وعزّته مع فصاحة اللّسان العربي وبيانه.

وقد أدّى تاريخ الأندلس السياسي دورًا كبيرًا، سواء في ازدهار هذه الحضارة ونموّها أو في تقلصها وانكماشها. وعرفت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة من القوة والضعف وصلت بها إلى ذروة قوتها ونضجها في عهد الخلافة الأُموية أيام حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر (300- 350هـ/ 912- 961م) وابنه الحَكَم (350- 366هـ/ 961-976م). لقد عرفت الاندلس في هذا العصر شعراءَ كبارًا كابن عبد ربه وابن هانئ، ومؤرخين مشهورين كالرازي وابن القوطية، وعرفت كذلك فن التأليف الموسوعي كما هو الحال فى «العِقْد الفريد» لابن عبد ربه، وظهرت في هذا العصر المُؤَلَّفات الفلسفية على يد ابن مسَّرة. وفوق هذا فقد حظيت الدراسات العلمية في مجال الفلك والرياضيات باهتمام طيب، وإن كان أقل شأنًا من الاهتمام بالدراسات الأدبية. وبلغ الاهتمام بالعلوم الدينية والشرعية مدى عاليا، فظهر محدِّثون وفقهاءُ ومفسرون أعلام. ولعل ما بلغته مكتبة الخليفة الناصر من ثراء وغنى يُعَدُّ دليلاً على تلك النهضة الحضارية الشاملة التي عاشتها الأندلس في هذا العصر.

ولما انهارت الخلافة الأموية انقسمت الأندلس إلى إمارات وطوائف تتطاحن فيما بينها، ولكنْ ظلت شمس الأدب والفكر ساطعة رغم تطاحن هذه الدول. وعرفت الأندلس في هذه الفترة المضطربة طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها، فقد كان أكثر حكام الطوائف وأمرائها من رجال الفكر والأدب، ومن ثمّ حظيت الحركة الثقافية بتشجيعهم وحَفْزهم لها. ومن أشهرهم حاكم أشبيلية الشاعر المعتمِد بن عباد، وكذلك المُظَفَّر وابنه المتوكل، ثم المعتصم بن صُمَادح أمير ألمرِيّة، والمقتدر والمؤتمن من بني هود في سَرَقُسْطة. كما برز الفقيه العالم ابن حزم (ت456هـ) وابن حيَّان مؤرخ الأندلس (ت469هـ) وابن زيدون دُرّة الشعر والشعراء (ت469هـ)، وغير هؤلاء كثيرون.

وعندما استولى المرابطون على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين (493-541هـ) تألقت بعض الأسماء اللامعة في مختلف مجالات المعرفة، ووصلت الأندلس في هذا العصر- أعلى درجات الازدهار الأدبي والفكري والحضاري. فقد كان الأندلسيون، كما يقول المستشرق الأسباني خوليان ريبرا، «هم الشعب الأوروبي الوحيد الذي ازدهرت عنده الفنون بشْتَّى صنوفها والآداب والفلسفة وغيرها ازدهارًا عظيمًا». وحينما نهضت أوروبا نهضتها الفلسفية والفنية والعلمية والأدبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

كانت الأندلس من أكبر شعوب أوروبا تأثيرًا في الفلسفة والفلك والطب والقصص وشعر الملاحم. ومن أعلام هذا العصر الفيلسوف ابن ماجه (ت523هـ) والفتح بن خاقان صاحب «قلائد العِقْيان» (ت535هـ) وابن بسام (ت542هـ) صاحب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة». وفي مجال الطب كان أبو القاسم خلف بن عباس القرطبي (ت516هـ) علمًا لا ينكر.

ولما حَلَّ الموحِّدون حكامًا للأندلس (541- 668هـ/ 1146-1269م) انطلقت حركة الفنون والعلوم بقوة أكبر في مجالات التأليف والبحث والبناء والعمران، فازدهرت على عهدهم الدُّور العلمية في مختلف المدن الأندلسية في قرطبة وأشبيلية وبلنسية وغرناطة ومرسية، ونشط التأليف في مختلف العلوم والفنون. ومن الأسماء اللامعة لهذا العصر- ابن طفيل صاحب رسالة حيّ بن يقظان (ت571هـ) والفيلسوف ابن رشد (ت594هـ) وابن بشكوال صاحب كتاب «الصلة» (ت578هـ) وغيرهم وغيرهم.

ولما اضمحلّ شأن الموحدين وضعف أمرهم بالأندلس والمغرب في أوائل القرن السابع الهجري بعد أن دام ملكهم نحو مائة وثلاثين سنة انحصرت الدولة الأندلسية منزوية في الركن الجنوبي الغربي في مملكة صغيرة هي غرناطة تحت حكم بني الأحمر (668- 798هـ/ 1269- 1395م)،

الذين امتاز عصرهم بنصرة العلوم والآداب. وقد نبغ في هذا العصر شعراءُ وكتابٌ ومفكرون ومؤرخون كبارٌ رغم سوء الأحوال السياسية وعدم استقرارها. ومن هؤلاء العالم النباتي والطبيب المشهور ابن البيطار المالقي، الذي رحل من الأندلس إلى المغرب ثم إلى مصر والشام، وتُوُفِّيَ بدمشق سنة 646هـ، وشيخ المتصوفة بالأندلس محيي الدين بن عربي، الذي نزح إلى المشرق وتوفي بالشام سنة 638هـ. وعن هذه الفترة قال ابن الأَبَّار القُضَاعِي صاحب المرثية المشهورة في سقوط بَلَنْسِيه:

أدرك بخيلك خيلِ الله أَنْدَلُسَا　　　إنَّ الطريق إلى مَنْجَاتِها دَرَسَا

وقد هاجر بدوره إلى تونس وتوفي بها سنة 659هـ، مثلما رحل ابن سعيد الأندلسي صاحب «المُغْرب في حُلَي المَغْرب» إلى دمشق وتوفي بها سنة 673هـ. ومن أعلام ذلك العصر أيضا الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ) وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع (ت808هـ). وبحلول عام 798هـ/ 1395م وصل المدّ الصليبي مداه وسقطت غرناطة وانهد آخر معقل للإسلام في أوروبا.

وقد شملت الحضارة الإسلامية في الأندلس مجالات متعددة تركت بصماتها على الحياة والأحياء من حولها. وكان من ثمار هذه الحركة أنْ تحولت قرطبة حقًّا إلى عاصمة للحضارة، ليس في أسبانيا وحدها، ولكن في المغرب قاطبة. ويذكر المؤرخون مثلا أن قصور قرطبة تجاوزت 20000 قصر، وأن مساجدها تجاوزت 900 مسجد، وأن حَمَّاماتها تجاوزت 700 حَمَّام. وكانت بها مدارس للطب والهندسة والعلوم والفنون ومستشفيات ومعامل للكيمياء ومراصد للفلك. وكانت جامعة قرطبة منارة شامخة للفكر والثقافة وحاملة لواء الحضارة العربية الإسلامية الشاملة.

ويمكن أن نتعرف أوجه هذه الحضارة في المجالات الآتية: فعلى سبيل المثال يَتَجلَّى فن البناء والمعمار في بناء المساجد والقصور وإنشاء المدن كمدينة الزهراء، التي بناها عبدالرحمن الناصر بما فيها من الحدائق والنّوافير والحَمَّامات العامة والخاصة، فكانت الأنموذج والمثال لما بلغه فن البناء والعمران للحضارة العربية الإسلامية. وفي المجال الأدبي واللغوي اهتم حكام الأندلس على مرّ العصور برعاية العلوم والآداب، واستقطبوا الأدباء والمفكرين ووفروا لهم المناخ الطيّب المناسب لإبداعهم، فظهرت طائفة من الشعراء والعلماء والأدباء أنتجوا أعمالاً متألقةً في مختلف مجالات المعرفة، وازدهر فن الشّعر والرسائل الأدبية

والتأليف في علوم اللغة والنحو والمعاجم والطبقات والتراجم. وعندنا كذلك المجال الديني والشرعي. ولما كان الإسلام هو أساس هذه الحضارة كان الاهتمام بعلومه جزءًا من شخصية الأندلس، فظهر عدد وفير من المؤلَّفات التي عُنِيَتْ بالقرآن الكريم وعلومه، وبالحديث الشريف في روايته وشروحه، وبالدراسات المنوعة في مجال الفقه والعقيدة والفلسفة وتاريخ الأديان.

وفى مجال العلوم التطبيقية نجد أنه قد ازدهر علم الطب، خاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، وبرع أطباء الأندلس في الجراحة وتحضير العقاقير، وأُنْشِئت المستشفيات، ووُضعت عشرات المؤلَّفات الطبية مثل كتاب «الأدوية المُفْرَدَة» للكتَّاني المُتَوَفَّى سنة 420هـ، و«التعريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي المتوفَّى سنة 403هـ. أما علم الرياضيات فتعد المدرسة التي ظهرت على يد الفلكي مسلمة المجريطي المتوفَّى سنة 394هـ من أولى مدارسه في الأندلس. وقد أدى تلاميذه من بعده خدمةً جليلةً لهذا العلم. وفي ميدان الفلك ظهر ابن برغوث (433هـ) وأبو إبراهيم بن يحيى الزرقالي القرطبي وغيرهما

.

وهكذا مرت الحضــارة العربية الإســلامية في الأندلس بمراحلَ وأطوارٍ مختلفة تبعًا للعصور السياسية التي تواترت على الأندلس، لكن الذي لا يقبل الشك هو أن هذه الحضارة كانت نتاجًا لعقلية عربية إسلامية استطاعت بوعي واقتدار أن تزاوج بين فكرها وتلك الأنماط التي كانت سائدة في شبه الجزيرة الأيبيرية (الأسبانية) قبل الفتح العربي الإســلامي، فكانت الأقوى والأشــد تأثيرًا بفضــل العقيدة واللغة، مما أدى إلى انصرـاف الناس عما سـواها حتى شـكا القسـيسـون من ضـياع اللاتينية بين النصــارى، وانصرــاف بني جلدتهم إلى كتابات المســلمين باللغة العربية. وقد أدى المناخ الحضاري الذي تنسّمته الأندلس إلى العناية بجوانب العلم والفكر، فشُيِّدت المدارس، وافتُتحت المكتبات، واقتُنِيَت الكتب حتى أصــبح معظم الناس قادرين على الكتابة والقراءة، فازدهرت الآداب والفنون، وارتقت العمارة بفنّ إســلامي أصيل.

والملاحظ أن الفتوح الإســلامية في الأندلس لم تكن، كما هو الحال في المشرــق، قائمة فقط على أكتاف العرب المترابطين بينهم لغة وعقيدة وإيمانًا بالرسالة الإسلامية تحت قيادة فاتحين من الصــحابة والتابعين، بل قامت على أكتاف شــعوب مختلفة اللغات والعادات شغلتهم الصراعات الداخلية بينهم، إذ تأجج الخلاف بين القيسية واليمنية والشامية والحجازية، وبين العرب والفرس،

وكذلك بين العرب والبربر، الذين فرقتهم الخلافات القبائلية بدورهم بين الصنهاجيين والزناتيين. كما حَمِيَ صراع الفاتحين على ولاية الأندلس حتى تعاقب عليها أربعة وعشرون واليًا في خمس وأربعين سنة بمعدل والٍ لكل سنتين. وما كاد الفتح يتم وتُغْمَد السيوف حتى تدفق السكان الأسبان يدخلون في دين الإسلام أفواجًا لما ألفوا من الفاتحين من حسن المعاملة و سمو الأخلاق، ولما في الإسلام من سماحة ساعدتهم على تحسين ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية فسارعوا إلى التودد بالمصاهرة والمساكنة.

ويعدّ عبد الرحمن الداخل الملقب بـ«صقر قريش» هو مرسي التلاحم بين أهل الأندلس، وواضع الأسس الأولى للحضارة الإسلامية فيها، فقد حدَّ من غُلَواء الصراعات وأخمد الثورات، وتسامح مع المذاهب الفقهية التي وصلت إلى الأندلس من مالكية وشافعية وأوزاعية، حتى إذا جاء خلفه هشام (172- 180هـ/ 788- 796م) اختار القضاةَ من أتباع مذهب مالك، فانتشر بين الناس وتشدد الفقهاء في الالتزام به، فلما جاء الحكم بن هشام (180- 206هـ/ 796- 821م) وجد في تشدد الفقهاء ما جعلهم يثورون ضد حكمه، فكانت فتنة النصارى بقرطبة ووقعة الحفرة في طليطلة وهيج الربض في قرطبة، فأخمد هذه الانتفاضات والثورات، واستمر في بناء الحضارة الإسلامية في الأندلس مطبوعة بالتفتح والتسامح والتعاون.

إن الثقافة الإسـلامية وما تضـمنته الشريـعة من عقيدة ومعاملة وسـلوك، وما تستلزمه لغتها من معرفة بلاغية ولغوية، وما في كلماتها من جرس موسيقي، وما في السلوك الإسلامي من حسن معاملة ومن تشريعات وقوانين وأحكام سامية، وما في الأعراف البربرية من هيام بالحرية، إضـافة إلى الفنون المعمارية التي ورثها الأسـبان عن الرومان في بناء الكنائس والقصـور والأبراج والقناطر، ثم ما أضـفاه الفاتحون المسـلمون الجدد على ذلك من رقة الفن الشـامي وجمال الخط والزخرفة، وما جلبوه من رياش الروم والفرس، وما نقلوه عن الرومان من فنون الصـناعات البحرية والحربية، كل ذلك طبع الحضارة الأندلسية بطابع جديد. واستقرت أصول الحضارة الإسـلامية في عهد عبدالرحمن الأوسـط، فخلصـت الأندلس للمذهب المالكي على يد يحيى بن يحيى، وشـاركت المرأة في بلورة الحضـارة على يد زوجة الخليفة الأميرة طروب، وارتقى الذوق الحضـاري بدخول المغنّي زرياب إلى الأندلس. ذلك أن المذهب المالكي المحافظ ساعد على استقرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وزرياب سـما بالذوق الأدبي والفني، وكان للأميرة طروب أثر في حياة المرأة الأندلسـية وإسـهامها في بناء مرافق الحياة الجديدة. وباجتماع العناصر الثلاثة تهيأت الحضـارة الإسلامية في الأندلس لتسمو وتتعالى،

فاستبحر العمران وتطورت فنون البناء في المساجد والقصور والمستشفيات وهندسة الري والنقش على الجص والخشب والنحاس وإتقان الوِرَاقة ورياش المنازل، فسادَ الرخاء وطاب العيش وازدهرت الفلاحة وهندسة الحدائق وتنميق الزهور. وانعكس أثر ذلك على الحياة الحضارية والثقافية في الأندلس، فتقدمت المعرفة وانتشر العلم وبرز علماءُ كبارٌ في التفسير والقراءات والحديث والفقه وأصوله واللغة والأدب والطب والحكمة والفلك والتصوف مما يعسر تقصيه.

وقد تطورت الفلسفة في الأندلس على يد الأندلسيين الذين ذهبوا إلى المشرق كمحمود بن عبدون (347هـ)، الذي درس المنطق على سليمان السجلماسي، ورجع إلى بلاده ليكون طبيب الحكم الثاني وهشام الثاني الأمويين، وكان له تأثير في الفكر الفلسفي في الأندلس كما ظهر في الفلسفة الرشدية. ومما لا شك فيه أن ابن رشد في طليعة فلاسفة المغرب الإسلامي، وكان ذا تأثير عظيم في المحيط المغربي وفى أوروبا أيضا، التى تدين له بفهم الفلسفة الإغريقية الأرسطية. واستمر أثره إلى عصر كانط في بداية القرن التاسع عشر. ولم يقتصر التأثير الأندلسي في أوربا على الفلسفة فقط، بل امتد كذلك إلى الرياضيات وغيرها.

وبالمثل شهدت الأندلس الإسلامية ولعًا بالشعر والغناء قل نظيره في حقب التاريخ المختلفة، إذ شاع إنشاد الشعر في كل المناسبات الدينية والسياسية والاجتماعية، وظهر شعراء سجلوا بمدائحهم أعمال الخلفاء والوزراء والولاة كابن عبد ربه وابن زمرك وابن الخطيب، وكذلك شعراء الطغرائيات الذين يكتبون قصائدهم في حنايا أبواب المساجد والقصور كابن زمرك، وشعراء الحماسة الذين يمثلون الفروسية العربية مثل سعيد بن جودي، وشعراء التصوف... إلخ. وضاقت بالشعراء أوزان الشعر العربي وأعاريضه فأقبلوا على شعر الزجل والموشحات ومقطوعات الغناء، وأصبح معظم أهل الأندلس شعراء حتى قال القزويني إن الفلاح الذي يحرث بالثور في شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات. وكان كبار القوم لا يتراسلون إلا شعرًا ويتهادَوْن بطاقات الدعوات والاعتذارت والأهاجي والتعريف شعرًا. وكان أهل الأندلس يغنون ويطربون بأسلوب الغناء المسيحي الأندلسي- أو بطريقة الحداء العربي كما هو الحال عند التيفاشي، ثم تطور الغناء بعد ذلك على يد ابن ماجة ثم أبي الحسن المرسي، الذي أرسى قواعد الموسيقى، وكذلك على يد العباس بن فرناس ومسلمة المجريطي وأبي الصلت الداني (ت529هـ)

وابن سبعين الصوفي مؤلف كتاب «الأدوار» ويحيى الخدوج المرسي مؤلف الأغاني الأندلسية على نهج الأغاني الأصبهانية. وتأسست في الأندلس مدرسة للغناء وتعليم الجواري جاء وصفها في «الذخيرة» لابن بسام، وكان يعلَّم فيها الغناء والكتابة والخط والعزف على الآلات، والرقص والخيال (التمثيل) والفروسية. أما الآلات فكثيرةٌ، وقد ذَكَرَها الشقندي مثل العود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والجيتار والمزمار والبوق وغير ذلك. ومع هذا كان الفقهاء ينكرون الطرب والغناء ولايقبلون شهادة المغني، ولم يسمحوا أن تباع كتب الموسيقى علنًا لأن الموسيقيين المغنين كانوا يَغْشَوْن مجالس الشراب.

وبعد انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس تحول المورسكيون (أى المسلمون) قسرا بعد نشاط محاكم التفتيش ضدهم إلى مزارعين يعملون في الإقطاعيات التي يملكها النبلاء. ونظرًا لخبرتهم ونشاطهم فقد أصبحوا عمدة الفلاحة والغراسة والاقتصاد بصفة عامة مما جعل النبلاء يقاومون الكنيسة في حملتها التنصيرية لما يُفْقِدها ذلك من مزايا اليد العاملة. وعندما ظهرت حركة العمال لمقاومة النبلاء كانت دعوتهم إلى تنصير المسلمين بقصد إضعاف النبلاء، لكن المسلمين آثروا العبودية وخدمة النبلاء بدل التنصير المفروض عليهم. وبعد سنة 1521م عادت الكنيسة من جديد إلى الحملة التنصيرية عن طريق محكمة التفتيش،

وأنهت فظائعها بإجلاء الموريسكيين عن الأندلس، ولم يمنع ذلك من بقاء كثير من المسلمين بأسبانيا تنصروا ظاهريا فقط كما حدث عنهم الغساني في رحلته المسماة: «افتكاك الأسير». وبعد انتصار الجمهوريين بأسبانيا جاهر كثير من الموريسكيين الأسبان بأصلهم، فتفوقوا بأوروبا، وكانوا من أعلام الفكر بجامعاتها، وكذلك في أمريكا الجنوبية، و بالأخص في الأرجنتين والبرازيل، وفي أرخبيل الفلبين حيث ماتزال بقية منهم في جزيرة مور. كما استوطنوا إفريقيا الشمالية والسنغال، التي ماتزال تحتفظ ببقايا منهم. و يذكر شكيب أرسلان في كتابه: « حاضر العالم الإسلامي» أن ظهور كراهية النبلاء والرهبان بين هؤلاء ليست نتيجة رواج المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية، بل ثمة عِرْق عربي عاد فنزع في الأندلس بعد إعلان الحكم الجمهوري. وقد حمل العلماء الأندلسيون إلى الغرب عددا من المصطلحات العربية، إذ كانوا يلتحقون بالعمل في الجامعات الأوروبية، وكذلك الجامعات الأسبانية في أمريكا اللاتينية عندما هاجر إليها الأسبان، فنقلوا معطيات الحضارة الإسلامية إلى أوروبا (اعتمدنا فى الفقرات السابقة على ما يخص الحضارة الإسلامية من مادة «الحضارة» فى «الموسوعة العربية العالمية» مع شىء كثير من التصرف حذفا واختصارا وتقديما وتأخيرا وإعادة صياغة).

وفى تقويم هذه الحضارة الإسلامية يقول جوستاف لوبون فى كتابه: «حضارة العرب» (ترجمة عادل زعيتر/ 614): «إذا قابلنا بين العرب والأمم الأوربية... أمكننا أن نقول إنهم أرقى من جميع أمم العرب التى عاشت قبل عصر النهضة أخلاقا وثقافة، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى فى قرون كثيرة مصدرا غير مؤلفاتهم العلمية ومناهجهم، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل. وكان العرب قد توارَوْا عن التاريخ حوالَىْ عصر النهضة، ولا نقدر أن نقول شيئا عما يمكن أن يصلوا إليه لو لم يتوارَوْا، ولكننا لا نعتقد أنهم كانوا يبلغون مستوى أفضل مما بلغوا لما كان يُسْفِر نقص نظمهم عنه من الموانع. وتمكن المقابلة بين مختلف الأدوار كالدور الذى غاب فيه العرب والدور الحاضر كما هو واضح. ولكننا إذا حُمِلْنا على المقابلة بين هذين الدورين قلنا إن أكابر العرب السابقين دون أكابر الحاضر، وإن عرب الطبقات الوسطى السابقة مساوون لأبناء طبقاتنا الوسطى المتمدنة الحاضرة على الأقل، وأرقى منها فى الغالب». وهذا هو النص الفرنسى لهذا الاقتباس:

Avec ces explications préalables, nous pouvons porter un jugement suffisamment exact sur la place qui revient aux Arabes dans l'histoire. Ils eurent des hommes supérieurs, leurs découvertes le prouvent assez ; mais des grands hommes comparables aux génies que j'ai nommés, je ne crois pas que l'on puisse dire qu'ils en aient possédés jamais. Inférieurs aux Grecs sur beaucoup de points, égaux certainement aux Romains par l'intelligence, ils ne possédèrent pas, ou au moins ne possédèrent que pour quelque temps, les qualités de caractère qui firent le long succès de ces derniers.

Si, au lieu de comparer les Arabes aux peuples qui ont disparu de la scène du monde, nous essayons de les mettre en parallèle avec les nations européennes, nous pouvons dire, qu'au double point de vue intellectuel et moral ils sont supérieurs à toutes celles qui vécurent avant la renaissance. Les universités du moyen âge n'eurent d'autre aliment, pendant des siècles, que leurs ouvrages et leurs doctrines ; et par leurs qualités morales ils surpassèrent beaucoup nos ancêtres.

Vers l'époque de la Renaissance, les Arabes disparurent de l'histoire, et nous ne pouvons dire ce qu'ils fussent devenus un jour. Nous ne croyons pas cependant qu'ils eussent jamais dépassé beaucoup le niveau déjà atteint. L'infériorité de leurs institutions leur créait de trop sérieux obstacles.

On ne peut comparer évidemment des époques aussi différentes que celle où disparurent les Arabes et les temps modernes. Si l'on exigeait cependant que cette comparaison fût faite, nous dirions que chez les Arabes les hommes supérieurs furent notablement au-dessous des hommes correspondants de l'âge actuel, mais que les individus moyens de leur race furent au moins égaux, et le plus souvent supérieurs, à la couche moyenne des populations civilisées d'aujourd'hui».

ويقول بريفولت: «لقد طورت الحضارة الإسلامية فى ظرف أعوامٍ قلائلَ ثقافةً كان لها أثرها على كل التطورات اللاحقة التى شـــهدتها أوربا. ولســـوف تظل هذه الثقافة، حتى عندما نضـع فى اعتبارنا الدفعة التى أخذتها من الفرس، تبعث على الانبهار بسـبب السرعة التى نمت بها. أما حضارتنا الحديثة فقد استغرقت فى الخروج من ظلام البربرية حالك الســـواد ثلاثةَ أو أربعةَ قرونٍ كاملة». وهذا نص كلامه بالإنجليزية (وهو موجود فى The Making of Humanity, P. 70):

The Islamic Arabs developed in the course of a few years a culture which has influenced all the subsequent developments of Europe, and which, even when we allow for the cultural impulse which it inherited from Persia, was marvellous in the rapidity of its growth. Our own modern civilization has risen out of darkest barbarism in the course of three or four centuries.

وفى «قصــة الحضــارة» يكتب ول ديورانت عن هذه المســألة فيقول: «إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى في التاريخ. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام 700 إلى عام 1200 يتزعم العالم كله في القوة، والنظام، وبسطة الملك، وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتســامح الـديني، والآداب، والبحـث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة. وفي العمارة أسلم مكانته الأولى في القرن الثاني عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية، ولم يجد فن النحت القوطي منافسـا له في بلاد الإســلام، التي كانت تحرّم صنع التماثيل. أما الفن الإسلامي فقد أفنى قوته في الزخرفة، وعانى الشيء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة. ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على نفسه لم يَفُقْه حتى الآن فن سواه. وكان الفن والثقافة في بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشارا بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى، فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين، وتجارا، وكانوا أطباء، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة...

غير أن المسلمين، كما يلوح، كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما اسْتَوْلَوْا على بيت المقدس في عام 1099.

ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء أو النار، في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنيرون. واحتفظ الدين الإسلامي، وهو أقل غموضا في عقائده من الدين المسيحي، بشعائرهِ أبسط، وأنقى، وأقل اعتمادا على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي، وأقل منه قبولاً لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك. وهو شبيه بالمذهب البروتستنتي في احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لهما من عِنَان... وقد ظل هذا الدين بعيدا كل البعد تقريبا عن النظم الكهنوتية، ولكنه قُيِّد في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية.

ويكاد تأثير العالم المسيحي في الإسلام يكون مقصورا على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب. فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامي من نماذج مسيحية، ومن الرهبنة وعبادة القديسين. ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت في الشعر والفن الإسلاميين، وكانت فيهما موضع العطف الكبير. أما العالم الإسلامي فقد كان له في العالم المسيحي أثر بالغ مختلف الأنواع.

لقد تلقت أوربا من بلاد الإســلام الطعام، والشراب، والعقاقير، والأدوية، والأسلحة، وشارات الدروع ونقوشها، والدوافع الفنية، والتحف، والمصنوعات، والسلع التجارية، وكثيرا من الصناعات، والتشريعات والأساليب البحرية. وكثيرا ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها:

Orange. Lemon, Sugar, Syrup, Sherbet Julep. elixir, Jar Azure, arabesque, Mattress. Sofa Muslin, satin, Fustian, bazaar, Caravan, Check Mate, Tariff, douane, magazine, Risk. sloop Barge. cable, Admiral .

ويقابل هذه في العربية: البرتقال، والليمون، والسكر، والشراب، والشربات، والجُلاَّب، والإكسير، والإبريق، والأوراق، والنقش العربي، والحشية - المَرْتَبَه mattress (واللفظ الإنجليزي مشتق من «المطرح») والأريكة sofa (اللفظ الإنجليزي مشتق من الصُّفّة)، والموصلين، والساتان، والفستان والسوق، والقافلة، والشاه مات، والتعريفة، وحركة المرور، والديوان، والمخزن، والخطر، والقلوب بنوعيه، والحبل، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar، وبعضها الآخر عن العربية).

وقد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوربا من الهند عن طريق بلاد الفرس، واتخذت لها في طريقها أسماء فارسية وعربية، فلفظ «Check Mate» مثلاً مأخوذ من عبارة «الشاه مات». وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية، ومن هذه الألفاظ «Lute» من «العود»، و«Rebeck» من الربابة، و«Guitar» من «القيثارة»، و«tambourine» من «الطنبور». وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزليون (Troubadours) وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى بروفانس (Provence) في فرنسا، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا. ولعل الأوصاف العربية للرحلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب من المسلاة الإلهية (The Divine Comedy) لدانتي.

وقد دخلت القصص الخرافية، والأعداد الهندية إلى أوربا في زيها العربي أو صورتها العربية. والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة، والطبيعة، والكيمياء، والفلك، والطب، وارْتَقَوْا بها، ونقلوا هذا التراث اليوناني بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوربا. ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية. ونذكر منها على سبيل المثال «Algebra» للجبر، و«Zero» و«Cipher»

للصــفر، و«Azimuth» للسُّــمُوت، و«Alembic» للأنبيق، و«Zenith» للســمت، و«Almanac» للتقويم، وهي مشــتقة من لفظ «المناخ». وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب في العالم خمسمائة عام كاملة، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوربا بمؤلفات أرسطو وشرحوا لها هذه المؤلفات. وكان ابن سينا وابن رشــد نجمين لاحا من الشرــق للفلاســفة المدرســيين الذين كانوا ينقلون عنهما، ويعتمدون على كتبهما، ويثقون بهما ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية.

والقباب المضلعة أقدم في بلاد المسلمين منها في أوربا، وإن لم يكن في مقدورنا أن نتتبع الطريق الذي وصــلت منه إلى الفن القوطي. وأبراج الكنائس المســيحية المستدقة، وأبراج نواقيسـها مدينة بالشيء الكثير إلى مآذن المساجد. ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصــنوعة من الحجارة قد أوحت بها بوائك برج الخِرَلْدَة ذات الأقواس المقترنة. ويُعْزَى انتعاش فن الخزف الرفيع في إيطاليا وفرنســا إلى انتقال صــناع الخزف المســلمين في القرن الثاني عشرــ إلى هذين البلدين، وإلى زيارة صناع الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية. ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج في البندقية، ومجلدو الكتب في إيطاليا، و صانعوا الدروع والسلاح في أسبانيا، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصــناع المســلمين. وكان النســاجون في جميع أنحاء أوربا تقريبا يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم. وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية.

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التي جاء منها هذا التأثير الإسلامي إلى بلاد الغرب، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه قد جاء عن طريق التجارة، والحروب الصليبية، وعن آلاف الكتب التي تُرْجِمَتْ من اللغة العربية إلى اللاتينية، وعن الزيارات التي قام بها العلماء أمثال جربرت (Gerbert)، وميخائيل أسكت (Michael Scot) وأدلارد (Adelard) من أهل باث (Bath) إلى الأندلس الإسلامية، ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليُرَبَّوْا فيها ويتعلموا الفروسية. ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يُعَدُّون: «فرسانا وسادة مهذبين كاملين، وإن كانوا مسلمين»!!، ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام، ومصر، وصقلية، وأسبانيا. وكان كل تقدم للمسيحيين في أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين وعلومهم وفلسفتهم وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية. وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة في عام 1085 قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية، وأبقى على الاعتقاد بكروية الأرض.

ولكن نار الحقد لم تطفئ لظاها هذه الاســتدانةُ العلمية. ذلك ألاّ شيءَ بعد الخبز أعزُّ على بني الإنسان من عقائدهم الدينية، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده، بل يحيا معه بالإيمان الذي يبعث في قلبه الأمل. ومن أجل هذا فإن قلب الإنســان يتلظى غيظا على من يهدده في قُوتَه أو عقيدته. ولقد ظل المسـيحيون ثلاثة قرون يشــهدون زحف المسـلمين، ويبصرـونهم يسـتولون على قطر مسـيحي في إثر قطر، ويمتصـون شعبا مسيحيا بعد شعب، وكانوا يحسون بأيدي المسلمين القوية تقبض على التجارة المسـيحية، ويسـتمعون إليهم وهم يســمون المسـيحيين: «كفرة»، وأمســت المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية، فاصطدمت الحضارتان في الحروب الصليبية، وقَتَل خَيْرُ ما في الشرــق أو الغرب خَيْرَ ما في الغرب أو الشرــق، وكان هذا العداء المتبادل عاملاً فعّالاً في تاريخ العصور الوسطى كله، مضافا إليه دين ثالث هو الدين اليهودي قائما بين الطائفتين المتحاربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كلتيهما.

وخسرــ الغرب الحروب الصــليبية، ولكنه ربح معركة الأديان. فقد طُرِد كل مسـيحي محارب من الأرض المقدسـة، ولكن المسـلمين، وقد استنزف النصرـ البطيء دماءهم، وخرّب المغول بلادهم، مرت بهم فترة من العصــور المظلمة ســاد فيها الجهل والفقر، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضـجه ما بذل من جهود، فنسيـ هزائمه، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرقي. فأقام الكنائس عالية تناطح الســحاب، وأخذ يجوب ميادين العقل، وحوّل لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتي وتشوسر (Chaucer) وفيلون (Villon)، وسار تحدوه العزة إلى النهضة.

وبعد، فإن القارئ العادي ستعتريه الدهشة من طول هذه الإلمامة بحضارة المسلمين، وسيأسف الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها. إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هي التي أنجب فيها المجتمع، في مثل هذا الزمن القصير، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الحكم، والتعليم، والآداب، واللغة، والجغرافية، والتاريخ، والرياضة. والفلك، والكيمياء، والفلسفة، والطب كما أنجب الإسلام في الأربعة قرون الفاصلة بين هارون الرشيد وابن رشد. وقد استمد بعضُ هذا النشاط المتلألئ مادّتَه من تراث اليونان، ولكن الكثير منه، وبخاصة في الحُكم، والشعر، والفن كان نشاطا مبتكرا لا تقدَّر قيمته.

ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريرا للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية. ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيمينية (Achaemenid) فحسب، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان، وإلى أشور بلاد أشور هانيبال، وإلى بابل حمورابي (Hammurabi)، وأكاد سرجون (Sargon)، و سومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم. وهكذا يَثْبُت مرة أخرى اتصالُ حلقات التاريخ بعضها ببعض: ذلك أن الأسس الجوهرية في الحضارة لا تضيع أبدا مهما حل بها من زلازل وأوبئة، وجدب،

وهجرات مدمرة، وحروب مخربة مهلكة. بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأســس فتنتشــلها من هذا اللهب، و تمد حياتها بالتقليد والمحاكاة، ثم بالخلق والابتكار حتى ينبعث في الشعب الناشئ شباب جديد وروح وثابة جديدة. وكما أن الناس أعضــاء في مجتمع، والأجيال لحظات في تســلســل الأُسَر، فإن الحضــارات وحدات في كُلٍّ أكبرَ منها وأعظمَ اسمُه التاريخ، فهي مراحل في حياة الإنسانية.

إن الحضـارة متعددة الأصـول، وهي نتاجٌ تعاونيٌّ لكثير من الشـعوب والطبقات والأديان. وليس في وسـع من يدرس تاريخها أن يتعصــب لشـعب أو لعقيدة. ومن أجل هذا فإن العالــــم، وإن كان مواطنا في بلدهِ يحبه لما يربطه به من صـلات وثيقة، يحس أيضــا بأنه مواطن في بلد العقل، الذي لا يعرف عداوات ولا حدودا. وهو لا يكاد يكون خليقا باسـمه إذا ما حمل معه في أثناء دراسـته أهواء سياسـية، أو نزعات عنصريـة، أو عداوات دينية. وهو يقدم لكل شـعبٍ حَمَل مشـعل الحضــارة وأغنى تراثها شُكْره وإجلاله (من كتاب «قصة الحضارة» لديورانت/ ترجمة محمد بدران/ عصر الإيمان/ المجلد الرابع/ الكتاب الثانى/ الباب الرابع عشر: «عــظــمــة المســلمين واضـمـحـــلالـهم»/ الفصل العاشر: «الإسلام والعالم المسيحى»).

والآن إلى الأصل الإنجليزى لهذا الكلام:

»The rise and decline of Islamic civilization is one of the major phenomena of history. For five centuries, from 700 to 1200, Islam led the world in power, order, and extent of government, in refinement of manners, in standards of living, in humane legislation and religious toleration, in literature, scholarship, science, medicine, and philosophy. In architecture it yielded the palm, in the twelfth century, to the cathedrals of Europe; and Gothic sculpture found no rival in inhibited Islam. Moslem art exhausted itself in decoration, and suffered from narrowness of range and monotony of style; but within its self-imposed limits it has never been surpassed. In Islam art and culture were more widely shared than in medieval Christendom; kings were calligraphers, and merchants, like physicians, might be philosophers…

The Moslems seem to have been better gentlemen than their Christian peers; they kept their word more frequently, showed more mercy to the defeated, and were seldom guilty of such brutality as marked the Christian capture of Jerusalem in 1099. Christian law continued to use ordeal by battle, water, or fire while Moslem law was developing an advanced jurisprudence and an enlightened judiciary. The Mohammedan religion, ism than the Christian, kept its creed and ritual simpler and purer, less dramatic and colorful, than the Christian, and made less concession to the natural polytheism of mankind. It resembled Protestantism in scorning the aid

and play that Mediterranean religion offered to the imagination and the senses; but it bowed to popular sensualism in its picture of paradise. It kept itself almost free from sacerdotalism, but fell into a narrow and dulling orthodoxy just when Christianity was entering into the most exuberant period of Catholic philosophy.

The influence of Christendom on Islam was almost limited to religion and war. Probably from Christian exemplars came Mohammedan mysticism, monasticism, and the worship of the saints. The figure ouched the Moslem soul, and appeared sympathetically in Moslem poetry and art. The influence of Islam upon Christendom was varied and immense. From Islam Christian Europe received foods, drinks, drugs, medicaments, armor, heraldry, art motives and tastes, industrial and commercial articles and techniques, maritime codes and ways, and often the words for these things- orange, lemon, sugar, syrup, sherbet, julep, elixir, jar, azure, arabesque, mattress, sofa, muslin, satin, fustian, bazaar, caravan, check, tariff, traffic, douane, magazine, risk, sloop, barge, cable, admiral. The game of chess came to Europe from India via Islam, and picked up Persian terms on the way; checkmate is from the Persian shah mat - »the king is dead.« Some of our musical instruments bear in their names evidence of their Semitic origin- lute, rebeck, guitar, tambourine. The poetry and music of the troubadours came from Moslem Spain into Provence, and from Moslem Sicily into Italy; and Arabic descriptions of trips to heaven and hell may have shared in forming The Divine Comedy. Hindu fables and numerals entered Europe in Arabic dress or form.

Moslem science preserved and developed Greek mathematics, physics, chemistry, astronomy, and medicine, and transmitted this Greek heritage, considerably enriched, to Europe; and Arabic scientific terms- algebra, zero, cipher, azimuth, alembic, zenith, almanac -still lie imbedded in European speech. Moslem medicine led the world for half a millennium. Moslem philosophy preserved and corrupted Aristotle for Christian Europe. Avicenna and Averroes were lights from the East for the Schoolmen, who cited them as next to the Greeks in authority.

The ribbed vault is older in Islam than in Europe, though we cannot trace the route by which it came into Gothic art. Christian spire and belfry owed much to the minaret, and perhaps Gothic window tracery took a lead from the cusped arcading of the Giralda tower. The rejuvenation of the ceramic art in Italy and France has been attributed to the importation of Moslem potters in the twelfth century, and to the visits of Italian potters to Moslem Spain. Venetian workers in metal and glass, Italian bookbinders, Spanish armorers, learned their techniques from Moslem artisans; and almost everywhere in Europe weavers looked to Islam for models and designs. Even gardens received a Persian influence.

We shall see later by what avenues these influences came: through commerce and the Crusades; through a thousand translations from Arabic into Latin; through the visits of scholars like Gerbert, Michael Scot, and Adelard of Bath to Moslem Spain; through the sending of Christian youths by their Spanish parents to Moslem courts to receive a knightly education- for the Moslem aristocrats were accounted »knights and gentlemen, albeit Moors«; through the daily contact of Christians with Moslems in Syria, Egypt, Sicily, and Spain. Every advance of the Christians in Spain admitted a wave of Islamic literature, science, philosophy, and art into Christendom. So the capture of Toledo in 1085 immensely furthered Christian knowledge of astronomy, and kept alive the doctrine of the sphericity of the earth. Behind this borrowing smoldered an undying hate. Nothing, save bread, is so precious to mankind as its religious beliefs; for man lives not by bread alone, but also by the faith that lets him hope. Therefore his deepest hatred greets those who challenge his sustenance or his creed. For three centuries Christianity saw Islam advance, saw it capture and absorb one Christian land and people after another, felt its constricting hand upon Christian trade, and heard it call Christians infidels. At last the potential conflict became actual: the rival civilizations clashed in the Crusades; and the best of the East or West slew the best of the West or East. Back of all medieval history lay this mutual hostility, with a third faith, the Jewish, caught between the main combatants, and cut by both swords.

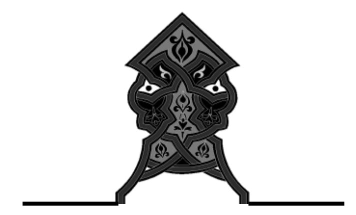
The West lost the Crusades, but won the war of creeds. Every Christian warrior was expelled from the Holy Land of Judaism and Christianity; but Islam, bled by its tardy victory, and ravaged by Mongols, fell in turn into a Dark Age of obscurantism and poverty; while the beaten West, matured by its effort and forgetting its defeat, learned avidly from its enemy, lifted cathedrals into the sky, wandered out on the high seas of reason, transformed its crude new languages into Dante, Chaucer, and Villon, and moved with high spirit into the Renaissance.

The general reader will marvel at the length of this survey of Islamic civilization, and the scholar will mourn its inadequate brevity. Only at the peaks of history has a society produced, in an equal period, so many illustrious men- in government, education, literature, philology, geography, history, mathematics, astronomy, chemistry, philosophy, and medicine- as Islam in the four centuries between Harun al-Rashid and Averroes. Part of this brilliant activity fed on Greek leavings; but much of it, above all in statesmanship, poetry, and art, was original and invaluable. In one sense this zenith of Islam was a recovery of the Near East from Greek domination; it reached back not only to Sasanian and Achaemenid Persia, but to the Judea of Solomon, the Assyria of Ashurbanipal, the Babylonia of Hammurabi, the Akkad of Sargon, the Sumeria of unknown kings.

So the continuity of history reasserts itself: despite earthquakes, epidemics, famines, eruptive migrations, and catastrophic wars, the essential processes of civilization are not lost; some younger culture takes them up, snatches them from the conflagration, carries them on imitatively, then creatively, until fresh youth and spirit can enter the race.

As men are members of one another, and generations are moments in a family line, so civilizations are units in a larger whole whose name is history; they are stages in the life of man. Civilization is polygenetic- it is the co-operative product of many peoples, ranks, and faiths; and no one who studies its history can be a bigot of race or creed. Therefore the scholar, though he belongs to his country through affectionate kinship, feels himself also a citizen of that Country of the Mind which knows no hatreds and no frontiers; he hardly deserves his name if he carries into his study political prejudices, or racial discriminations, or religious animosities; and he accords his grateful homage to any people that has borne the torch and enriched his heritage».





ضعف الحضارة الإسلامية وانهيارها



كانت الحضــارة الإســلامية فى إبّانها ملء الســمع والبصرـ والفؤاد، وكانت لها إنجازاتها الهائلة، ثم ككل شــىء فى الوجود طرأ عليها الضــعف والانهيار. لكن ما الســبب فى هذا الانهيار يا ترى؟ أول ما يخطر على البال فى هذا الســياق هو عامل اســتطالة الزمن، فقد بدأ المســلمون بداية عبقرية، واســتمروا أقوياء فترة من الزمن طويلة جدا بالنسبة إلى الحضارات التى سبقتهم أو أتت بعدهم رغم كل ما واجههم من تحديات وعوائق ومتاعب ليســت بالهينة ولا القليلة. وكانت الشــعوب التى يحكمونها أســعد حظا من ســواها، وإن لم يَعْنِ هذا أنهم كانوا فى إدارتهم لدولتهم ومعاملتهم لرعاياهم ملائكة مبرئين من كل عيب أو أن العلاقة بينهم وبين الشعوب التى حكموها كانت (سـمنًا على عسـلٍ) على الدوام، فهذه ليست طبيعة البشرـ ولا طبيعة الحياة على الأرض، ولا أظنها ستكون أفضل من هذا لو قُدِّر للبشر أن يهاجر منهم ناس يستوطنون القمر، أو يستوطنون المريخ وغير المريخ بعد القمر، اللهم إلا إذا كُتِب عليهم أن تتغير طبيعتهم التى نعرفها منهم ومن أنفســنا، وهيهات قبل أن تقوم القيامة ويُعَاد سَـبْكُ العالم والأشـياء والأحياء سَـبْكًا جديدا ليس لهم به عهد. لكنْ من غير الطبيعى مع ذلك أن يظل المتحمس لمبدإ أو دين أو مذهب من المذاهب متحمسا له بنفس القوة والحرارة والاندفاع والتجرد إلى أبد الآبدين دون أن يعتريه ضـعف أو فتور أو تراجع أو كسل أو خوف على مصلحة ضيقة أو إعادة نظر، أو حتى ثقة زائدة بالنفس تعميه عن اتخاذ الاحتياطات تجاه عدوه الضعيف الذى كان ينتصر عليه دون جهد كبير،

ثم إذا بهذا العدو يكمن بعيدا عن أنظاره مجتهدا فى تقوية نفسه وإصلاح أحواله، حتى إذا شام من نفسه قوة وقدرة بعد ضعف وعجز هَبَّ يهاجمه وقد استعد له خير استعداد، بينما هو مغمور فى غروره وثقته الزائدة بالنفس، يتصور أن خصمه «لن يأخذ فى يده غَلْوة» يُذَرّيه بعدها فى جهات الأرض الأربع، فإذا به يخرّ صريعا أمامه وهو يلعق التراب ويبحث عن مغيث فلا يجد.

ولقد أشار القرآن مبكرا إلى هذا العامل، عامل استطالة الوقت، إذ نزلت أولاً، بخصوص الصراع بين المسلمين والمشركين، الآية الخامسة والستون فى سورة «الأنفال» تحرّض المؤمنين على أن يتعاملوا مع المشركين على أن واحدهم يساوى فى القتال عشرة من خصومهم، ونصها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾. لكن سرعان ما نزلت الآية التى بعد آيتنا هذه مباشرة تقول: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ هابطة بالنسبة من واحدٍ مقابلَ عشرة إلى واحدٍ مقابلَ اثنين. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يفهم عاقل أن الله سبحانه لم يكن يعلم قدرة المسلمين وحدود طاقاتهم القتالية قبل هذا ثم علمها بعد أن رأى منهم شيئا لم يكن يتوقعه. بل كل ما هنالك أن هذه هى طريقة اللغة، وأن من طبيعة القرآن بالذات التعبير كثيرا عن صفات الله تعالى بصيغة الماضى مثل الفعل «عَلِمَ»

فى الآية الحالية، والفعل «كان»، الذى يدل على الأزلية فى قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾... وهلم جرا. والمعنى أنه كان كذلك منذ الأزل. أى أن هذه طبيعة الألوهية، فالألوهية فوق الزمان والمكان وسائر الحدود التى يعنو لها البشر وغيرهم من الكائنات.

وهو، جل فى علاه، يعرف أن للطاقة البشرية حدودا فى التفوق والاستمرار مهما كانت المغريات والدوافع. ببساطة لأنه هو الذى خلقهم على هذا المنوال لحكمة يعلمها. وهو سبحانه يعلم أن تلك الفورة الأولى لا يمكن أن تستمر دون أن يعتريها فتور ولا كلال، لكنه يعلم أيضا أن هذه هى الطريقة المثلى لاستفزاز طاقات المؤمنين فى فورتهم الأولى. وهذا يذكرنى بما نقوله بلغة الكرة من أنه لا بد للفريق أن يبكّر بإحراز هدف أو هدفين فى بداية المباراة حتى ترتفع روحه المعنوية ويتسيّد الملعب قبل أن يتنبه الفريق الآخر ويلم صفوفه ويبادله الهجمات، فـ«اليد السابقة سابقة» كما يقال فى الأمثال الشعبية. كذلك يشير القرآن المجيد إلى هذا التأثير السلبى لعامل الزمن فى قوله جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]. وبالمثل يقول الكتاب الكريم عن المشركين المتحجرين الذين لا يريدون أن يصيخوا إلى صوت العقل والهدى ويعودوا إلى الصواب فيؤمنوا بالدين الجديد: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: 44].

فمن الواضح أن طول العمر والتمتع بطيبات الحياة قد أنسى المشركين ما ينبغى عمله وما لا ينبغى وجعلهم يخلدون إلى الانحراف لا يشعرون بأى قلق أو اختلاجة ضمير، إلى أن تقع الكارثة فيتصوروا أنها قد وقعت بغتة، غير دارين أنه كان لها مقدماتها الطويلة، إلا أنهم لم يلتفتوا إليها فى غمرة بلادتهم ولامبالاتهم.

وفى آية أخرى نسمع موسى عليه الصلاة والسلام يخاطب قومه معنفا لهم على ارتكاسهم فى الوثنية وعبادتهم العجل أثناء غيابه عنهم فوق الجبل للقاء ربه رغم أن المسألة لم تتعدَّ أربعين ليلة: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ [طه: 86]. فإذا كانت هناك أمة ترتكس فى غضون هذه المدة الزمنية الضئيلة، فما أعظم أمة الإسلام، التى ظل رجالها، رغم عيوبهم التى لا يمكن نكرانها أو تخفيفها، قابضين فى أيديهم بكل جسارة وبراعة على مقاليد الحكم والسياسة والثقافة والدين والاقتصاد دهرا طويلا من الزمان، وبنجاح نادر، كانوا يحكمون خلالها أمما شتى وأَرَضِينَ بعَرْض الكرة الأرضية المعروفة أيامئذ، مما يضيف إلى عامل الزمن واستطالته عاملا آخر هو ترامى حدود الدولة على هذا النحو العجيب!

وهذا الضعف وما يؤدى إليه من تفكك وانهيار فى نهاية المطاف يرجع إلى عوامل شتى منها الذاتى، ومنها الخارجى. فالغرائز تنبع من داخل الإنسان، وليس بمكنته أن يتجاهلها أو ينتصر عليها تماما، بل هى كالوحش الكاسر تحتاج إلى براعة ومرونة وإشباع وتدليل، وإلا افترست صاحبها افتراسا لا يعرف الرحمة. ومهما اجتهد البشر فى السموّ بغرائزهم والتقليل من الخضوع لها والاشتغال بمعالى الأمور، فإن تلك الغرائز سوف تنهض من مرقدها هناك فى أعماق النفس والجسد وتطل برأسها وتطالب بالإشباع. وليس فى مستطاع البشر على الدوام أن يلجموها ويحصروها فى الحدود المعقولة. أترى الذين يصيبون ترفًا ومالاً ينصبّ فى حجورهم انصبابا يستطيعون دائما مقاومة إغراءات هذا المال وما يمكن أن يحققه لهم من سلطان وقوة وإشباع لشهوات النفس فلا يضعفوا ولا تفتر عزيمتهم أبدا؟ ولو افترضنا أن الجيل الأول الذى حقق هذا الرخاء قد نجح فى أن يحافظ على تماسكه أمام هذا السيل العرم، بل لنفترض أن الجيل التالى والذى يليه استطاعا أيضا ذلك، فهل يظن ظانٌّ أن هذا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية؟ هذا ما لا يمكن أن يكون لأن هذا هو ما علّمَناه التاريخ والتجارب التى تقع لنا وتقع لمن حولنا ممن نعرف ومن لا نعرف. ولقد تجاهر مثلا كثير من الشعراء المسلمين بالنظم فى الخمر والجوارى والغلمان وأكثروا منه دون حرج، وتقبلت الجماهير منهم هذا دون حرج أيضا، وأغدق الخلفاء الأموال على مداحيهم من الشعراء إغداقا، وملأ بعضهم قصوره من الرقيق حتى غصت بهم،

وهذا كله مظهر من مظاهر الفساد والتحلل الذى ازداد انتشارا مع الزمن يعطيك فكرة عما وقع من انحراف عن الإسلام وإهمال لأوامره ونواهيه فى المجالات الأخرى. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحكام فى ذلك الوقت كانوا يتصرفون فى أموال الدولة كأنها أموالهم هم لا أحد يراجعهم فى شىء، بل لا يخطر لأحد أن يراجعهم فى شىء، تبين لنا إلى أى مدى كان الانحراف شديدا.

ثم لا ننس الخلافات التى لا بد أن تنشأ بين القبائل والقوميات والأجناس والأديان والمذاهب المختلفة التى تعيش داخل الدولة، أىّ دولة. وكان فى دولة الإسلام العدنانى والقحطانى، وكان فى دولة الإسلام العلوى والأموى والعباسى، وكان فى دولة الإسلام العربى والفارسى والهندى والسندى والشامى والعراقى والمصرى والبربرى والأندلسى والتركى والألبانى والبوشناقى والزنجى، وكان فى دولة الإسلام السنى والشيعى والخارجى والصوفى والمعتزلى والظاهرى، وكان فى دولة الإسلام المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والزرادشتى والصابئى. ولا بد أن يكون لكل ذلك أثره فى الخلافات والصراعات السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التى قد تقف عند حدود الأفكار والكتابة، وقد تشتد فيكون التمرد والحرب. ثم لا ننس كيف تداول على كرسى الحكم العرب والفرس والترك والمماليك الأوربيون والبربر، وبعض هؤلاء تَسَمَّوْا باسم الخلفاء، وبعضهم اكتفَوْا بتبعيتهم الحقيقية أو الاسمية للخليفة فى بغداد أو فى القاهرة أو فى إسطنبول رغم أن سلطة الولاية أو الدولة الفرعية من الناحية السياسية والعسكرية والثقافية كانت تفوق فى بعض الأحيان سلطة الدولة الرئيسية التى تتبعها.

وعلى كل حال لم يشـهد التاريخ أمة سـادت وظلت سـيدة طول الدهر. هذا لم يحدث، ولا أظنه سـيحدث، وإن ظهر بين الغربيين فى عصرنا هذا من المدَّعِين الناعقين من يروّج لخرافة «نهاية التاريخ» زاعما أن التاريخ قد انتهى إلى الوضع الذى يتحكم الغرب فى مجرى أحداثه الآن، وأنه لن تقوم إلى جانبه أية قوة أخرى تنافسه، وأن الدنيا سوف تتخذ هذا الوضع إلى أبد الآباد. وهم يقولون هذا فى الوقت الذى تعانى فيه أمريكا زعيمة الغرب المتاعب العسكرية والاقتصادية، وفى الوقت الذى تنغمس فيه أقدامها فى وحل أفغانستان والعراق وغيرهما من الجبهات الحربية التى ظنت أنها سوف تكتسحها فى غمضة عين لتنطلق منها إلى بقية أرجاء المنطقة محتلة للبلاد مستنزفة لثروات الشعوب ومذلة للجميع. ولو أن المسلمين الآن انتهزوا هذه الفرصة التاريخية ولملموا صفوفهم وأعادوا تقدير قوتهم وعزموا على أن يعيشوا أعزة كراما أمجادا مستعينين بعزيمتهم وإيمانهم وما حباهم الله به من ثروات وإمكانات تدير الدماغ ما صَعُبَ عليهم ذلك. إلا أن المشكلة هى نقصان ثقتهم بأنفسهم: نقصان ثقة الشعوب بأنفسها تجاه الحكام، ونقصان ثقة الحكام بأنفسهم تجاه الدول الكبرى، وعلى رأسها أمريكا. والحياة لا تلقى بالا للمتهافتين الخانعين الخائرين المرتعبين من الخيالات والأشباح الذين لا يثقون فى قدراتهم ولا يفكرون فى بذل التضحيات المطلوبة أو فى القيام بالإصلاحات المحتومة، وليس عندهم يقين ولا أمل فى الفوز، بل تتركهم لمصيرهم دون أن تذرف عليهم دمعة.

وهناك مقال قرأته مؤخرا للأستاذ عامر عبد المنعم فى موقع «العرب نيوز» بعنوان «أمريكا ماتت، فلا تكونوا كجِنّ سليمان» يصور هذا الوضع الشاذ. والمقصود أن المسلمين يتصورون أن أمريكا لا تزال قوية باطشة رغم ما هى مرتكسة فيه من أزمات اقتصادية وسياسية وعسكرية، ولهذا لا يفكرون أبدا فى الثورة عليها، فهم فى هذا الخوف مثل جن سليمان، الذين كانوا خاضعين لسليمان مرتعبين منه، وظلوا يخدمونه بكل طاقتهم حتى بعد موته ظنا منهم أنه لا يزال حيا، إذ كانوا كلما نظروا إليه وجدوه مستندا على صولجان الملك، فيحسبونه فى غفوة عارضة، إلى أن أكلت الأَرَضَةُ عصاه من أسفلها فانهارت وخرّ هو بدوره إلى الأرض. وحينئذ فقط تبين لهم أنه قد مات! يريد الكاتب أن يقول لأمته إن أمريكا قد انهارت، وإن كان انهيارها غير ظاهر للعين العَجْلَى، فاهْتَبِلوا هذه الفرصة السانحة وثوروا على عبوديتكم لها، واستردوا كرامتكم وعزتكم.

ومما ينبغى أن يُذْكَر فى هذا المجال كثرة الصراعات الداخلية والخارجية التى كان على الدولة الإسلامية أن تخوض غمارها. وقد نشبت هذه الصراعات منذ اليوم الأول لظهور الإسلام، إذ انقلب على الرسول عليه الصلاة والسلام أهل مكة بعدما كانوا يلقبونه بـ«الأمين»، فكذبوه وآذَوْه وحاولوا قتله لولا لطف الله به. ولما هاجر إلى المدينة اصطدم باليهود والمنافقين، كما اصطدم بالمشركين فى غزواتٍ ذات عدد، وبالروم على الحدود الشمالية مرتين.

وعقب وفاته ﷺ ثارت حروب الردة بين جيوش الإسلام والقبائل التى ظهر فيها بعض المتنبئين الكَذَبَة وانتهت بالقضاء على ذلك التمرد اللعين وعادت الأمور إلى نصابها الصحيح، لتبدأ صراعات أكبر وأخطر وأوسع مدى بين المسلمين وبين الروم والفرس انتهت كلها بانتصار مؤزر للإسلام حتى بات المسلمون يؤمنون إيمانا جازما أن نصر الله فى ركابهم دائما، فكانوا لا يفشلون أبدا فى معركة أو حرب إلا على سبيل الندرة الشاذة، ثم سرعان ما يعودون مرة أخرى أكثر ثقة وأقدر على الاقتحام. ومع هذا فما أسرع ما رأينا الفتنة تطل برأسها فى عهد ذى النورين رضى الله عنه وتنتهى بمقتله الفاجع رغم أنه لم يشأ قط أن يؤذى مهاجميه ومثيرى الفتنة ضده. ثم يأتى بعد ذلك الخلاف بين على ومعاوية، وهو الخلاف الذى لم يحسمه لمصلحة معاوية إلا أن الأقدار قد كتبت على ختن الرسول أن يُغْتَال على يد خارجى مندفع لا يعرف التبصر. وتستقر الأمور لمعاوية، الذى يؤسس الأسرة الأموية محولا الحكومة الإسلامية إلى حكومة كسروية وراثية، وهو ما تابعه عليه العباسيون فالفاطميون ثم الأيوبيون. وكانت الأمور فى الأندلس لا تختلف عنها فى الشرق، إلى أن ترك الإسلام تلك البلاد بعدما بقيت رايته مرفوعة هناك ثمانية قرون. ثم جاء المماليك ليصير السلطان عسكريا، وأخذ المماليك يتناوبون الحكم بقوة الذراع، وإن كنا لا نغمطهم فضلهم فى حفاظهم رغم كل شىء على قوة الإسلام فى وجه المغول والصليبيين.

ثم ظهر العثمانيون وأخذوا الحكم منهم وجعلوا بعضهم ولاة ينوبون عنهم فى إدارة الشؤون الداخلية للبلاد التى كانوا يحكمونها قبلا. وعلى يد العثمانيين دخل الإسلام شرق أوربا، فكان فى هذا بعض تعويض عما وقع له من استئصال فى غرب القارة العجوز على يد الأسبان. وخاضت الدولة العثمانية حروبا مع القوى الغربية وتعرضت للمؤمرات التى لم يكن يهدأ لها أُوَار من جانب تلك القوى حتى خرت الخلافة الإسلامية صريعة فى أواخر الربع الأول من القرن العشرين، واختفت من الوجود، وتجزأت الأقطار الإسلامية وأصبحت كالعِقْد قد تمزق سِلْكه فصارت كل حبة من حباته فى ناحية لا يمسكها بأخواتها شىء، فلم تعد لها قيمة.

وعلى مدار التايخ الإسلامى أيضا كانت هناك انقسامات وتمردات داخل الدولة كتمرد الخوارج وبابك الخُرَّمىّ والمقنَّع الخراسانى والبشموريين والزَّنْج والقَرَامِطَة والحشّاشين، فضلا عن الصراع بين حكام الطوائف فى الأندلس، الذين كانوا بوجه عام يفضلون التعاون مع ملوك النصارى على التضافر مع أبناء دينهم من الحكام أمثالهم، بله الاتحاد فى دولة واحدة تستطيع الوقوف ضد نصارى الأسبان، وهو ما كان كفيلا، لو تم، أن يُبْقِيَ الأندلسَ إسلامية، مَثَلُها مَثَلُ بقية البلاد التى اعتنقت الإسلام ثم لم تخرج منه قط. وقد سهّل صراعُ أمراء الطوائف إلى حد كبير حركةَ الاسترداد النصرانى فى الأندلس.

وهناك فى العصر الحديث الصراع بين محمد على والمماليك الذى انتهى بمذبحتهم فى القلعة وتخلُّصه منهم تماما، وكذلك الحروب بينه وبين الوهابيين لحساب السلطان العثمانى، ثم بينه وبين الدولة العثمانية. وكل هذا من شـأنه أن يفتّ فى عضـد الدول مهما تكن قوتها وقدرتها على الاحتمال.

ولا شـك أن الغزو الصـليبى والمغولى لبعض ديار المسـلمين قد زعزع ثقتهم فى أنفسـهم، فقد كانت هاتان الهجمتان أول غزو لبلاد الإسـلام، ففوجئ المسـلمون بـانقلاب الأوضـاع. وبعـد أن كـانوا يفتحون البلاد ويقبـل النـاس على دينهم ويتعلمون لغتهم ويقلدونهم فى الكثير من عاداتهم وتقاليدهم إذا بهم يصبحون هدفا للغزو، وتهاجَم بلادهم، وينتصر عليهم أعداؤهم بعدما كانوا رمزا للنصر الذى لا يتخلف، والنجاح الذى لا يسـتأخر. فقد رأى المسـلمون نصـارى أوربا يتركون ديارهم وينقضـون على شـواطئ الشـام بغية أخذ بيت المقدس منهم وإعادتها كرة أخرى إلى حضـن الصـليب. ومعروف أنهم قد مكثوا على سـواحل الشـام لمدة قرنين من الزمان واسْـتَوْلَوْا على عدد من مدنه، وهو ما كلف المسـلمين الغالى والنفيس والزمن الطويل قبل أن يسـتطيعوا دحرهم وإرجاعهم على أعقابهم خائبين. وقل مثل ذلك عن التتار وتوحشهم وعُرْيهم من الحضارة مظهرا وروحا وما سفكوه من دماء إسلامية غزيرة دون أدنى اعتبار أو مبالاة،

مما كان له آثاره المزعزعة على النفس المسلمة، إذ كانت صدمة لم يفيقوا منها بسهولة حتى بعدما أحرزوا النصر النهائى عليهم وكسروا شوكتهم فى عين جالوت على يد المماليك. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت هناك أيضا الحملات الاستعمارية التى لم تكد تترك بلدا مسلما دون غزو واحتلال وتكبيل بالمعاهدات واستنزاف للثروات وإهانة للكرامة الدينية والوطنية. وما كان لهذا أيضا أن يُنْسَى بسهولة أبدا، وبخاصة أن العدو واجههم فى هذه الحملات وهو متفوق عليهم فى كل أسبابها من سلاح وعلوم وتنظيم وتخطيط ونفس طويل وطموح وتوثب إلى المعالى وقدرة على الصبر وعشق للمغامرة وتحديد للهدف. وما زلنا نعانى من هذه الصدمة إلى الآن حتى لأصبح يخيّل لكثير منا ألاّ قِبَل لنا بمواجهة الغربيين. بل لقد ظهر من بيننا من ينادى بأن نكون أتباعا لهم إذا أردنا أن نتحضر مثلهم، غافلين عن أن أوروبا حين جاءت بجيوشها إلى بلادنا إنما قد أتت لسرقتنا والاستبداد بنا والقضاء على هويتنا، ومن ثم لن يتركونا نتقدم ونساويهم أبدا. أى أنهم لن يجنحوا إلى السلم حتى لو جنحنا نحن إليه، بل سيظلون كاتمين على أنفاسنا رازحين فوق صدورنا. ذلك أنهم قد أَتَوْا للسرقة والقتل والتدمير والاستعباد لا لمساندتنا فى الخروج من تخلفنا وضعفنا كما يزعمون هم وأولئك المرجفون خداعا لنا وتحطيما لروحنا المعنوية، التى نستلهمها فى الصمود أمامهم ومقاومة مخططاتهم.

وإذا كان الاستعمار قد اختفى ظاهريا من كثير من بلاد المسلمين فهو فى الحقيقة لم يزل رابضـا فيها، وإن لم تدركه العيون العَشّـاء. نعم لا يزال رابضـا فى كثير من الديار الإسلامية فى صورة معاهدات سياسية مجحفة تخرب الديار، واتفاقات سياسية وثقافية تدمر النفوس والضمائر، وقواعد عسكرية مجرمة تقوم بدور الجاسوس على كل ما نأتى وما ندع ولا تترك لأى حر فرصـة ليعمل ما من شـأنه مصـلحة الوطن والمواطنين، مع بعض ما يسـمى بـــ«المسـاعدات الاقتصـادية» مما لا ينتفع بها الوطن فى قليل أو كثير لأسـباب ليس هذا موضـع شرحها، علاوة على أن البلاد التى تتلقى ما يطلق عليه: «المساعدات الاقتصادية» تقدم للدولة المانحة من المساندات ما لا تساوى تلك المنحة قبالتها شيئا ذا بال.

على أن للاستعمار الغربى ناحية إيجابية، إذ أيقظ النوام وقضى على السكون القاتل الذى كان سـائدا، وحرك العقول والضـمائر، وحث النفوس الزكية على الاجتهاد والجهاد من أجل استعادة الكرامة واسترجاع السيادة الضائعة. وعن دور الاستعمار فى تاريخ المسـلمين المعاصر يكتب مالك بن نبى متسـائلا: «ما الذى بعث العالم الإسلامى من نومه قرنا؟ من الذى أيقظه من خمسين سنة تقريبا؟ إنه الاستعمار. نعم إنه قد خلع بابنا، وزعزع دارنا، وسلب منا أشياء ثمينة. لقد أخذ منا حريتنا وسيادتنا وكرامتنا وكتبنا المنسـية وجواهر عروشـنا وأرائكها الناعمة التى كنا نود أنْ لو بقِينا عليها نائمين!

ولكن إذا كان هذا هو الواقع الاستعماري فيجب أن نعترف بأنه أيقظ الشعب الذى استسلم لنوم عميق بعد الغَدَاء الدسم الذى أكله عندما كان يرفل فى نِعَم حضارته. والتاريخ قد عوّدنا أن كل شعب يستسلم للنوم فإن الله يبعث عليه سوطا يوقظه» (مالك بن نبى/ شروط النهضة/ 149- 150).

إلا أنه سرعان ما ينتبه إلى فخ خطير يقع فيه كثير من الشعوب التى ابتليت بالاستعمار. ذلك أن هذا المعامل الاستعمارى (كما يسميه) «يخدع الضعفاء فى الواقع، ويخلق فى قلوبهم رهبة وخوفا ووهما، ويُشِلّهم عن مواجهته بكل قوة، وإن هذا الوهم ليتعدى أثره إلى المستعمرين أنفسهم فيغريهم بالشعوب الضعيفة، ويزين لهم احتلالهم إذ يحاولون إطفاء نور النهار على الشعوب المتيقظة، ويدقون ساعات الليل عند غرة الفجر وفى منتصف النهار لترجع تلك الشعوب إلى العبودية والنوم» (المرجع السابق/ 151).

وهذا ما يسميه ذلك الفيلسوف الكبير: «القابلية للاستعمار»، أى شعور الأمم الضعيفة بأنها ينبغى أن تخضع للأمة القوية التى تريد استعمارها فلا تقاومها، بل تتركها تفعل بها ماتشاء مهما كانت وحشيته وشناعته دون أن تحس بأى سخط أو ضيق،

بل دون أن تحس بأى أمل فى النجاح إذا ما خطر لأحد منها أن يدعوها للمقاومة والتخلص من نير العبودية. وهو يدعو أولا إلى التخلص من تلك القابلية للاستعمار (المرجع السابق/ 154). وأنا معه فى أن للاستعمار ذيوله وخصيانه فى كل بلد إسلامى، وهم كثر للأسف، ولا بد من العمل على أن يتخلص المسلمون من تلك القابلية للاستعمار التى أشار إليها وأبرزها وبين خطورتها. لكن لا بد أن نتنبه إلى أن القابلية للاستعمار ليست هى جوهر المشكلة، بل مجرد عرض لها، أما المشكلة فهى فقدان الكرامة. وهذه الكرامة المفقودة هى السبب فى نشوء تلك القابلية للاستعمار لدينا، ولو كانت أمتنا عفية قوية واثقة بنفسها شاعرة بكرامتها وعزتها لما كان للاستعمار ذلك الأثر الشيطانى، بل لما وصلت أصلا إلى هذا الدَّرْك الأسفل من الضعف الذى يغرى الاستعمار باقتحام عقر دارها ليستذلها ويمتطيها.

لقد كان العرب فى الجاهلية يعانون من التخلف والفقر والجهل والتمزق والصراع القبلى الذى يكاد يفنيهم، لكنهم لم يفقدوا قط شعورهم بالكرامة، بل كانوا يَسِمُون الأمم من حولهم بـ«الأعاجم»، فكأنها حيوانات عجماء بالنسبة لهم. ترى هل كان العرب يقدرون على حمل مشعل الإسلام والانطلاق به فى الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا لو كانوا، كما هم الآن، فاقدين الشعور بالعزة والكرامة؟

ذلك أن منبع التقدم الحضـارى فى رأيى هو رفض الأمة أن تعيش عيشـة لا تليق بها، فتراها لا يهنأ لها عيش ولا يرتاح لها بال إلا إذا نالت من الحياة ما ينبغى أن يناله الإنسان العزيز الكريم مالا وجاها وعلما واحتراما وسيادة وجمالا ونظافة ونظاما... أما الذليل فإن فقدانه لهذه الأشـياء لا يشـكل أى إزعاج له، إذ إن انحطاطه النفسـى والخلقى يمنعه من الشعور بشناعة الأمر على الإطلاق، فتراه يتصرف وسط القذارة والقبح معايشا الجهل والخرافة، متنفسا الخنوع والمذلة، مقاسيا العوز والفقر، معانيا الضـيق والحاجة، ومع ذلك يتصرـف كأنه يعيش فى بحبوحة الفردوس الأعلى ويتقلب فى نعيمه الرغد المقيم. الحق أنه ما لم ينبت الوازع من أعماق النفس فمن الصـعب نجاح أى أمر. دعك من أن يكون هـذا الأمر فى خطورة الانبعاث الحضارى، وهو الموضوع الذى يشغلنا الآن.

ومما عاناه المسـلمون أيضـا، وكان من أسـباب انهيارهم أمام الهجوم الاسـتعمارى الأوربى، انتشـار الخرافات والإيمان بالسـحر بدلا من العلم، وانعزالهم عن مجرى الحياة إلى الأركان المظلمة التى يخيم عليها عنكبوت الجهل والأسـاطير التى لا تليق بالمتحضرـين، وبخاصـة إذا كانوا ينتسبون إلى الإسـلام دين العلم والفكر المسـتقيم. لقد كان لدى المسـلمين فى عصـور تخلفهم إيمان عنيف بالعفاريت، واعتقاد فى المتصوفة وكراماتهم وقدرتهم على الإتيان بالمستحيل،

وانتظار للمفاجآت والعجائب التى لا تقع أبدا، من كنز يأمل الناس أن يجدوه فى خَرِبَةٍ أو بيت مهجور مثلا، دون أن يغيروا أسلوبهم فى الحياة ودون أن يتعلموا العبرة من تجاربها أبدا. وانتشر الاعتقاد فيمن يطلَق عليهم: «الأولياء» و«الصالحون» ظنا من الجماهير المغيَّبة أن لهم كرامات يقضون بها حوائج العباد، وشفاعات يستطيعون التوسط بها عند الله سبحانه فتجاب وساطاتهم، مما ترتب عليه تفشى العجز بين المسلمين وترك العمل والإخلاد إلى الإهمال والكسل وسقوط الهمم رغم أن من يسمونهم بالأولياء والصالحين لم يكونوا يملكون لأنفسهم أى نفع، وهم أحياءٌ، فما بالك وقد صاروا الآن أمواتا وتحللوا ترابا؟ أتراهم أفضل من النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وهو الذى أمره ربه أن يعلن للناس دون أدنى مواربة أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله؟ ولا تنس كذلك انتشار القذارة وسيادة التبلد تجاه الأوبئة الجائحة والرضا بالفقر والهوان والتعاسة كأنها ضربة لازب لا فكاك منها.

وفى مثل هذا الجو لا ينبغى أن يتوقع الإنسان إبداعا علميا أو كشفا بحثيا أو رغبة فى تقدم أو تحضر. لقد كان الجو خاملا بليدا متخثرا لا ينبئ بحياة كريمة أبدا، فى الوقت الذى كانت أوربا فيه تتوثب وتتقافز فى كل ميدان: فى الكشوف الجغرافية التى انطلقت من خلالها تجوب أرجاء العالم، وانتزعت بها السيادة على البحار،

وامتلكت بها الثروات، وامتلخت بها قارتين كاملتين هما أمريكا الشمالية وأستراليا بعدما قضت على سكانهما الأصليين، وهو ما لا نعرف أنه قد وقع من قبل فى التاريخ. وهذا التوثب قد حدث نظيره فى ميدان العلوم الطبيعية، التى كانت قد نامت عندنا نومة أهل الكهف وحلت محلها الخرافات والضلالات، وكذلك فى ميدان الحكم الشُّورِىّ، إذ قامت الثورات الشعبية فى أوربا ضد الاستبداد الذى كانت شعوبها تعانى منه على مدى قرون وقرون، فتخلصت إلى حد كبير منه، فى الوقت الذى ما زالت معظم بلاد المسلمين ترزح تحته راضية به، وكأنه غاية المنى! وقل هذا أيضا فى ميدان التخطيط العمرانى، إذ بدلا من القذارة والفوضى والفقر والبؤس الذى كان يطبع مدن أوربا وقراها شرع الأوربيون يعيدون تخطيط مدنهم وقراهم مراعين أصول النظافة والسعة والجمال والخضرة وتمهيد الشوارع على نحو سلس جميل، مع التخلص من المخلفات بطريقة متحضرة فلا تقع عليها العين ولا يشمها الأنف ولا تتأذى بها الملابس والجلود، فضلا عن إنارة الطرق. وهو ما كان مصلحوهم قد دَعَوْا إليه وحثوا شعوبهم على تنفيذه واضعين فى ذلك كتبا تصور للناس «المدينة الفاضلة»، أى المجتمع المثالى الذى يتطلعون إلى تحقيقه لأنه هو المجتمع الذى يليق بالإنسان، كلٌّ يتخيله حسب فهمه وعقيدته السياسية والاجتماعية

والغايات التى ينشدها للناس من حوله، ناهيك بالثورة الصناعية التى نقلت أحوال الأوربيين من حال إلى حال، وما تبعها من تطوير وسـائل المواصـلات والأسـلحة والخطط الحربية، مما لم يكن فى أيدينا منه شىء ذو بال، اللهم إلا إذا استوردناه منهم واستعنّا بهم فى تعلمه واستيعابه. ومعروف أنهم لا يعطوننا شيئا من ذلك لأجل مصلحتنا أبدا، بل يعطوننا ليحارب به بعضنا بعضا، ثم إذا ما أدينا المهمة التى خططوها لنا ودفعونا إلى التورط فى إثمها انقلبوا علينا وتخلصوا منا بأيسر سبيل بعد أن تكون قوانا قد خارت، وتوقف تدفق السلاح والمدربين. هكذا فعلوا مثلا مع محمد على، الذى أنفق ما أنفق فى بناء جيش مصرى قوى لم يستعمله إلا فى ضرب الوهابيين وفى محاربة الدولة العثمانية، ثم عقب فراغه من أداء الدور المطلوب انقلبت أوربا كلها عليه وحطمته تحطيما، وانتهى الأمر بعد عدة عقود باحتلال إنجلترا لمصر، واحتلال فرنسا كذلك للشام بعد أن كانت احتلت الجزائرَ فى عهده دون أن يفكر أبدا فى مد يد المساعدة لإخوانه الجزائريين... وهذا مجرد مثال، ومازال يتكرر حتى هذه اللحظة، ونحن لا نتعلم أبدا ولا نستوعب الدرس. والتاريخ لا يرحم، وربك لا يظلم أحدا.

ولكى تعرف طرفا من الخرافات والضلالات التى كانت تعشش فى عقول الناس وقلوبهم أيام تخلف المسلمين وأفول شمس حضارتهم أورد بعض ما كتبه أحد المتصوفة المشاهير بمصر فى القرن العاشر الهجرى،

وهو الشعرانى، الذى حكى فى «منن اللطائف» مثلا ما يلى طبقا لما نقله عنه د. زكى مبارك فى كتابه عن «التصوف فى الأدب والأخلاق»: «كان فى بيتى امرأة من الجن، فكانت إذا قَرُبَتْ منى قامت كل شعرة فى جسدى، فكنت أذكر الله فتبعد من وقتها. ثم كانت تقف فى طريقى إلى المسجد فى الظلام، فما فزعت منها قَطّ، بل كنت أمر عليها فى المجاز المظلم فأقول لها: السلام عليكم. وما نفر خاطرى منها قَطُّ مع أن طباع الإنس تنفر من الجن! وسكن عندى مرة أخرى جماعة من الجن أيام الغلاء، فكنت أقول لهم: «كلوا من الخبز والطعام بالمعروف، ولا تضروا بإخوانكم المسلمين»، فأسمعهم يقولون: سمعا وطاعة! وسكن جنى فى بيتى مرة أخرى، فكان يأتى كل ليلة فى صورة جَدْيٍ كبيرٍ فيطفئ السِّرَاج أوّلاً ثم يصير يجرى فى البيت، فكان العيال يحصل لهم فزع. فكمنت له تحت رف وقبضت على رجله، فزلق وصار يستغيث، فقلت له: تتوب؟ فقال: نعم! فلا يزال يَدِقّ فى يدى حتى صارت رجله كالشعرة الواحدة، وخرج. فمن ذلك اليوم ما جاءنا. ونمت ليلة على الخليج الحاكمى ضيفا عند إنسان فى قاعةٍ وحدى، فغلق علىّ، فدخل جماعة من الجن فأطفأوا السراج وداروا حولى يَجْرُون كالخيل، فقلت لهم: وعِزَّة الله كُلُّ من دارت يدى عليه ما أطلقتُه إلا ميتا. ونمت بينهم، فما زالوا يجرون حولى إلى الصباح. ودخلتُ مَرّةً الميضأة بجامع الغمرى بالقاهرة أتوضأ،

وكانت ليلة شـتاء مظلمة، فدخل عليّ عفريت كالفحل الجاموس فهبط فى المغطس وصـعد الماءُ فوق الإفريز نحو نصـف ذراع، فقلت له: ابعد عنى حتى أتوضـأ. فلم يرض، فجعلت فى وسـطى مئزرا وهبطت عليه فزهق تحتى وفر هاربا. ووقع لى مع الجن وقـائع كثيرة، وإنما ذكرت لـك ذلـك لتعلم أن من قرأ الأوردة الواردة فى عمل اليوم والليلة فليس للجن ولا للإنس عليه سـبيل». ويعلق د. زكى مبارك على هذا الكلام وشِبْهه بأن الشعرانى يكذب (انظر د. زكى مبارك/ التصوف فى الدين والأخلاق/ 1/ 349- 350).

وسـواء كان حكم الدكاترة زكى مبارك عليه صـحيحا أو كان الشـعرانى يتوهم وقوع ما لا يصح، فالمصيبة أن ذلك كان منتشرا فى تلك الأيام. فحتى لو كان يكذب لم يكن يكذب إلا وهو يعلم أن الآخرين سوف يصدقون ما يقول لأنهم يؤمنون به. ويزداد الأمر شنعا وبشاعة حين يصدر من الشعرانى أكبر شيخ صوفى فى عصره. وشـىء آخر يورده زكى مبارك مما سـجله الشـعرانى فى كتابه المذكور، وهو عن «الـمَطْلَب»، أى الكنز من الكنوز التى كان الناس فى ذلك الزمن يتصـورون أنها مدفونة فى الأرض. يقول الشعرانى: «قلت لشخص من أبناء الدنيا: تعال اسهر معنا هذه الليلة. وكانت ليلة العيد الأصغر، فتعلل بأن السـهر يضره، فقلت: بالله عليك اصْـدُقْنِى: إذا أردت أن تفتح مَطْلَبًا وأبطأ عليك البَخُور الذى تطلقه من العشـاء إلى الفجر، هل كنت تسهر إلى الصباح تترقب مجيئه؟

فقال: نعم! فقلت له: فإذا أبطأ من بعد الفجر إلى المغرب، هل كنت تترقبه ولا تنام؟ قال: نعم! فدرّجته إلى تسعة أيام، وهو يجد أنه يقدر على السهر من غير وضع جنبه إلى الأرض. فقلت له: فى اليوم العاشر؟ قال: لا أقدر. فقلت له: يا أخى، فإذن أنت تُؤْثِر الدنيا على الآخرة؟ قال: نعم» (المرجع السابق/ 1/ 351).

لقد كان للعلم مكانته العظيمة الكريمة أيام عز المسلمين، لكن الحال قد تدهور مع مرور القرون، فصار كثير منهم يعتقدون فى الخرافات الضالة المضلة. كما صاروا لا يهتمون بالجِدّ والعمل من أجل القوة والغلبة والسيادة والغنى فى الدنيا، واستسلمت الجماهير لما تظنه قضاء وقدرا كُتِب عليها منذ الأزل فليس لها منه أى نجاء، غافلة عن أن القضاء والقدر ليسا أكثر من السنن التى أقام الله عليها كونه وسيَّره عليها بحيث يستطيع البشر من خلال فهمها والعمل بمقتضاها أن يسيطروا على الدنيا من حولهم وأن يدبروا من ثَمَّ أمورهم أفضل تدبير ممكن: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7-9]

أى أن كل شىء فى الكون مخلوق بقَدَرٍ منضبط لا زيادة فيه ولا نقص بل على أساس من الميزان الدقيق، فهو يجرى على سنة لا تتخلف، اللهم إلا فى معجزات الأنبياء، وهى أمور عارضة لا تَطَّرِد ولا تستمر بل تنتهى فى وقتها، كما أنه قد انتهى إرسال الأنبياء، فليس أمام الناس إذن إلا الالتزام بتلك السنن واكتشاف أسرارها والجرى على ما تستلزمه من تدابير، وإلا فشلت الأمور فشلا ذريعا مهما أكثر الناس من الدعاء والابتهال، إذ الدعاء والابتهال إنما يأتيان بالثمرة المرجوّة منهما بعد استكمال العمل وإتقانه على خير وجه. ثم إن الاستجابة لهما قد تتأخر أحيانا لتقع على نحو آخر أفضل مما يريده الداعى طبقا لما وضحه الرسول الكريم فى أحد أحاديثه.

وفى هذا الصدد يكتب د. أحمد أمين فى كتابه: «يوم الإسلام» (مكتبة النهضة المصرية/ 23- 24): «كانت عقيدة القضاء والقدر والتوكل سليمة فى عهد الرسول وكبار الصحابة، فكانت لا تمنعهم من غزو وحرب وفتوح بلدان وتغلُّبٍ على أمم. وقد فهموها فهما لا يمنع من الأخذ بالأسباب كما جاء فى الحديث الشريف: «اعقلها وتوكَّلْ». فكانوا يؤمنون بارتباط الأسباب بمسبِّباتها: فالماء يُرْوِى، والنار تُحْرِق. وفى القرآن: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾،

وفيه مئات من الآيات تدل على ارتباط الأسباب بالمسببات، حتى جاء الأشاعرة فلم يربطوا بين الأسباب ومسبباتها، فلا تأثير عندهم للماء فى الرِّىّ ولا للنار فى الإحراق. قالوا: وإنما المؤثر هو الله تعالى عند حدوث الأسباب لا بها. وقالوا بتكفير من اعتقد أن الله تعالى أودع قوة الرِّىّ فى الماء، وقوة الإحراق فى النار. وإنما الإيمان والاعتقاد بأن الرِّىّ جاء من جانب المبدإ الفياض بلا واسطة، وصادف مجيئه شرب الماء من غير أن يكون للماء دخل فى ذلك. وبذلك فَكُّوا الأسباب عن مسبِّباتها، فكان لهذا من الأثر البالغ ما جعل المسلمين فيما بعد يبالغون فى عقيدة القضاء والقدر، ويربطون الحوادث بالخرافات والأوهام لا بالأسباب والمسبِّبات، فالزرع إنما ينجح بالقَدَر، ويَفْسُد بالقَدَر لا بما أثبته العلم وما يجره الإهمال... وهكذا أصبحت عقيدة القضاء والقدر صادّةً عن العمل. وفرق كبير بين العقيدة فى القضاء والقدر وبين الجبر، فالقضاء والقدَر الصحيحان يؤمنان بربط الأسباب بمسبّباتها ويحملان صاحبهما على العمل، ثم فلتكن النتيجة ما تكون. وعلى هذه العقيدة كان أكابر الشجعان الفاتحين من أمثال خالد بن الوليد وتيمورلنك والإسكندر ونحوهم لا يهابون الموت اعتمادا على أن ما قُدِّر يكون. أما الجبر فيرى الإنسان كالريشة فى مهب الريح، وما قُدِّر لا بد أن يكون، عَمِل الإنسان أو لم يعمل، تشجّع أو لم يتشجّع. و هذه العقيدة على هذا النحو دخيلة على الإسلام، مما جعل كثيرا من الأوربيين يجعلون من عيوب الإسلام العقيدة فى القضاء والقدر والتوكل على الله. ولو أنصفوا لعدوها بحالتها الحاضرة من عيوب المسلمين لا من عيوب الإسلام».

وما قاله د. أحمد أمين صـــحيح فى جملته إلى حد كبير. ذلك أن الناس كانت تخلط الأمور خلطا، فيبذلون فى عملهم بعض جهدهم لا كله، كما أنهم لم يكونوا يتقنون ما يعملون ولا يتابعونه بالصيانة والحياطة، وإذا هاجمته الآفات لم يأخذوا بالاحتياطات الواجبة لا قبلها ولا أثناءها، بل فوضوا الأمر إلى الأقدار فى الغالب، وتركوا الأمور تأخذ مجراها الذى تريده هى لا الذى يســتطيعونه هم. لكن عقيدة الأشــاعرة التى يشير إليها أحمد أمين لا تدعو فى الأصل إلى هذا الذى فهمه الناس فيما بعد، بل تريد أن تقول، كما قصد الإمام الغزالى فى بداية الأمر، إن الله هو الخالق المريد الفعال، وما الكون كله من بشر وغير بشر إلا صنع يديه، ولا يجرى شىء فى ذلك الكون إلا بناء على ما شــاء ســبحانه وتعالى تنظيمه على أســاس منه. وإذا كانت النار تحرق من يلامســها أو يَدْخُلها فإن النار فى ذاتها لا مدخل لها فى هذا، إذ هى مخلوقة أوّلاً، كما أنها لا إرادة لها ولا عقل ثانيا حتى تحرق أو لا تحرق، بل الله هو الذى جعلها كذلك. وليس فى هذا ما يناقض الإسلام ولا العقل. لكن هذا شىء، والزعم بأن الغزالى قد أراد أنه لو مست النار إنسانا أو أحاطت به لا تحرقه هو شىء آخر تماما. فهذا الإمام الجليل رضى الله عنه لم يقل هذا، بل قال إن الإحراق ســيتم مثلما يزول العطش عند شرب الماء، لكن بأمر الله وليس بأمر النار ولا الماء

لأنه سبحانه هو الذى وضع فى كل من الماء والنار خاصيته التى يعمل على أساسها. وهل هناك من المسلمين من ينكر هذا؟ فليس هناك أى إنكار للأخذ بالأسباب كما نرى، إلا أن الأمر اتخذ مجرى آخر عند جماهير المسلمين كما قلنا، فتركوا العمل وركنوا إلى الكسل وظنوا أن القدر سيكون رحيما بهم، وهو ما لم يحدث ولن يحدث ما ظلوا فى نومتهم مهما دَعَوْا وابتهلوا وصَلَّوْا وصاموا.

وبالمناسبة فهذا الذى قاله الإمام الغزالى قد قاله بعد ذلك بعض فلاسفة الغرب المشاهير كديفيد هيوم وغيره، ولم يكن لذلك أدنى أثر سيئ على مجرى التقدم العلمى فى الغرب. ذلك أن هيوم وأمثاله قد قالوا ذلك فى أوربا فى وقت قوة وتوفز لا فى وقت تراجع وانهيار وتفتت.

ويوم تتخلف أوربا من بعد تقدم وتحضر قد يتحول رأى هيوم هذا إلى عائق مثبط كما حدث عندنا حسب تقدير د. أحمد أمين. ثم إن الأشاعرة ليسوا هم أصحاب هذا الرأى فى الأساس، بل بعض علماء الطبيعة من المسلمين القدماء كجابر بن حيان مثلا، ثم أخذه بعض فلاسفة أوربا كما قلنا مع شىء من التحوير. بل إن العلماء الأوربيين الآن يقولون بأن ما نسميه بـ«القوانين الطبيعية»

هى أمور احتمالية، ولو على المستوى النظرى، إذ من الممكن جدا أن نقوم من النوم مثلا ذات يوم فنجد الشمس تشرق من الغرب لا من الشرق حسبما اعتادت البشرية لملايين السنين (انظر د. زكى نجيب محمود/ جابر بن حيان/ مكتبة مصر/ سلسلة «أعلام العرب»/ العدد 3/ 66 وما بعدها. وقد تناول د. زكى هذه الفكرة مرة أخرى بشىء من التفصيل فى كتابه عن ديفيد هيوم فى سلسلة «أعلام الغرب»).

وليس بعيدا عما نحن فيه ما يشير إليه القرآن حين يتحدث عما سيحدث يوم القيامة، إذ سوف تتغير القوانين التى نعرفها الآن ويتم استبدال قوانين أخرى بها يجرى العمل بمقتضاها فى الدار الآخرة. وفوق هذا فإن تلك العقيدة لازمةٌ لتفسير وقوع المعجزات التى ذكر الله سبحانه تحققها بفضله ومشيئته على يد هذا النبى أو ذاك كما هو مذكور فى القرآن المجيد. ولقد كان المسلمون منذ البداية يؤمنون بعقيدة القضاء والقدر، فكانت تلك العقيدة خير معين لهم فيما أنجزوه من جلائل الأعمال فى فتوحهم وانتصاراتهم السياسية والثقافية والحضارية العجيبة. لكنها، وهذا هو مناط العبرة والموعظة، تحولت إلى معوِّق للمسلمين عندما تخلفوا. ذلك أن العقلية المتخلفة تفسد كل شىء جميل وتصيّره عقبةً كَأْدَاءَ بعدما كان دافعًا مُلِحًّا يستفز العقول والإرادات إلى العمل وصنع العجائب المدهشات.

إن الذى خلق هذه النواميس هو الله سبحانه، وليس فيها ولا فى غيرها من أشياء الكون ما يجبره سبحانه على أن يبقيها كما هى فلا يغيرها إذا شاء. ذلك أن الله مطلق القدرة والإرادة، والكون كله خاضع لإرادته المطلقة الشاملة. صحيح أنه أجرى الكون على نظام معين، لكن من قال إن ذلك النظام غير قابل للتعديل؟

إن الإمام الغزالى مثلا وبعض الفلاسفة الأوربيين المحدثين مثل ديكارت وهيوم ورَسِل يؤكدون أن ما نسميه بـ«قانون السببية» هو أمر لا وجود له، إذ المسألة عندهم لا تخرج عن مجرد تتابع حادثتين، فنظن نحن، لكثرة ما نشاهد هذا التتابع، أن الحادثة الأولى هى السبب فى وقوع الحادثة الثانية كالنار والإحراق، والأكل والشبع...إلخ. يريدون أن يقولوا إنه ليس فى النار حتمية الإحراق، ولا فى الطعام حتمية الإشباع (انظر مثلا «تهافت الفلاسفة» للإمام الغزالى/ تحقيق د. سليمان دنيا/ ط6/ دار المعارف/ 239-140، وكذلك ص 44-45 من مقدمة المحقق، و«قصة الفلسفة الحديثة» لزكى نجيب محمود وأحمد أمين/ ط6/ مكتبة النهضة المصرية/ 1403هـ-1983م/ 156-158، و«أثر العرب فى الحضارة الأوربية» للعقاد / ط8/ دار المعارف/ 100-101، و«موسوعة الفلسفة» للدكتور عبد الرحمن بدوى/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ 1984م/ 2/ 615-616).

وتفسير الإمام الغزالى للأمر أن الله تعالى هو الفعال الحقيقى للإحراق والإشباع وغيرهما، أما النار والطعام فلا يزيدان عن أن يكونا شيئين يقع معهما ذلك دون أن يكونا هما السبب فيه. وهو ما يعنى أن الله لو أراد أن تكون نار ولا إحراق، أو إحراق ولا نار، لكان ما أراد. وهذا، فى الواقع، هو الرأى الذى ينسجم مع الإيمان بالله وقدرته ومشيئته، اللتين لا يعجزهما شىء فى الأرض ولا فى السماء. ولا يقولن أحد إن هذا معناه أن الكون، بهذه الطريقة، ستسوده الفوضى بحيث لا تستطيع البشرية أن تتعامل معه. ذلك أن هذا الخرق للنواميس لا يقع إلا بين الحين والحين البعيد وفى أضيق نطاق، وعلى نحو عارض تعود الأمور بعدها إلى ما كانت عليه. على ألا يغيب عن بالنا فى ذات الوقت أن إرادة الله هى صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة فى ذلك. حتى إذا رأت تلك الإرادة فى نهاية المطاف أن هذا النظام الذى يجرى عليه الكون الآن لا بد من هدمه واستبدال نظام آخر به عند مجىء يوم القيامة كان لها ما رأت، ووَقَفَ العمل بهذا النظام، وبدأ نظام آخر يقوم على قوانين أخرى غير التى نعرف فى دنيانا هذه، قوانين ليس فيها مثلا، بالنسبة لأهل الجنة، مكان للموت ولا للمرض أو الملل أو الخوف أو العفن أو النتن أو الحاجة إلى الإخراج... إلخ، وهو ما أشارت إليه الآيات القرآنية وفصّلته أحايث النبى عليه الصلاة والسلام.

وهذا شيء يختلف تمام الاختلاف عن الخرافات التى كان المسلمون يؤمنون بها إيمانا وثيقا فى عصور تخلفهم والتى بسببها جاء اتهام الأوربيين ظلما لديننا بالجمود، إذ رَمَوُا الإسلام بما وجدوه فى المسلمين فى عصور ضعفهم وجهلهم وركونهم إلى الأوهام وتنكبهم لسبيل العلم رغم امتلاء القرآن المجيد والحديث الكريم بالحض على العلم والاستزادة منه وتفضيل العلماء حتى على العُبَّاد تفضيلا كبيرا، بالإضافة إلى إلحاحهما على وجوب استعمال العقل فى كل شىء بما فيه التحقق من صحة نبوة النبى عليه السلام. ولهذا تكثر فى القرآن عبارات مثل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. كما نجد القرآن يحمل حملة شعواء على المشركين لأنهم يوقفون عقولهم عن العمل كأنهم حيوانات عجماء لا عقل لديها ولا بصر ولا سمع. وعندما أراد النبى أن يعلن دعوته بعد استتارٍ جَمَع قومه وسألهم، وقد وقف فوق مرتفع فى مواجهتهم، قائلا لهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسَفْح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟». يقصد أن يلزمهم الحجة فى إيمانهم بصدقه واطمئنانهم إلى أنه لا يعرف التدليس ولا الالتواء فى القول. فلما لزمتهم الحجة بردهم عليه بأنهم لا يكذّبونه فى شىء، أعلن لهم أنه نبى من الله، فإذا بهم ينقلبون على أعقابهم فى التو واللحظة وينالون منه نيلا سخيفا.

والآن، وقد ألممنا ببعض الأسباب المسؤولة عن انهيار الحضارة الإسلامية نتساءل: كيف السبيل إلى الخروج من هذا التخلف؟ لقد حاول بعض الفلاسفة أن يتوصلوا إلى السر الذى على أساسه تنهض الأمم من سباتها الحضارى وتستعيد عافيتها ونشاطها. فإلى أى مدى تصدق تحليلاتهم؟ وهل نستطيع بدورنا أن نصل إلى شىء ناجع يمكننا الاستعانة به فى الحالة الراهنة لأمة الإسلام؟ ثَمَّ سؤال شديد الأهمية وقوى الصلة بموضوعنا هنا طرحه محرر مادة «الحضارة» بـ«الموسوعة العربية العالمية»، وهو: «لماذا تقوم الحضارات وتنهار؟»، محاولا أن يجيب عليه فقال: «أبدى الفلاسفة والمؤرخون وعلماء الآثار القديمة أسبابًا كثيرة لقيام الحضارات وانهيارها. وقد شبَّه جورج و. ف. هيجل الفيلسوف الألماني في أوائل القرن التاسع عشر المجتمعات بالأفراد الذين ينقلون شعلة الحضارة من واحد إلى الآخر. وفي رأي هيجل أنه خلال هذه العملية تنمو الحضارات في ثلاث مراحل:

1 - حُكْم الفرد.

2 - حُكْم طبقة من المجتمع.

3 - حُكْم كل الناس.

وكان هيجل يعتقد أن هذا النسق تُسْفِر عنه الحرية فى آخر الأمر لجميع الناس. وكان الفيلسوف الألماني أوزوالد سبنجلر يعتقد أن الحضارات، مَثَلُها مَثَلُ الكائنات الحية، تُولَد وتنضج وتزدهر ثم تموت. وفي كتابه: «انحدار الغرب» (1918- 1922م) ذكر أن الحضارة الغربية تموت، و سوف تحل محلها حضارة آسيوية جديدة. وعرض المؤرخ البريطاني آرنولد تُوينْبِي نظريته عن «التحدي والاستجابة» في كتابه: «دراسة التاريخ» (1934- 1961م). وكان توينبي يعتقد أن الحضارات تقوم فقط حيث تتحدى البيئة الناس، وحينما يكون الناس على استعداد للاستجابة للتحدي. وعلى سبيل المثال فإن الجو الحار الجاف يجعل الأرض غير مناسبة للزراعة، ويمثل تحديًا للناس الذين يعيشون هناك. ويمكن أن يستجيب الناس لهذا التحدي ببناء أنظمة ري لتحسين الأرض. ورأى توينبي أن الحضارات تنهار حينما يفقد الناس قدرتهم على الابتكار. ويذهب معظم علماء الآثار القديمة إلى أن بزوغ الحضارات يرجع إلى مجموعة من الأسباب تشمل البناء السياسي والاجتماعي للحياة والطريقة التي يكيف بها الناس البيئة المحيطة بهم والتغيرات التي تطرأ على السكان. وفي كثير من الحالات يمكن أن تظهر الحضارات لأن رؤساء القبائل المحليين اتخذوا خطوات متعمَّدة لتقوية نفوذهم السياسي. ويعتقد كثير من العلماء أن سوء استخدام الأرض والمصادر الطبيعية الأخرى أسفرت عن الانهيار الاقتصادي والسياسي للحضارات الأولى».

ومعظم ما قيل هنا هو كلام مقبول، إلا أنه يقتصر على الوصف والرصد، ولا يلقى بالا إلى تقديم خريطة للعلاج. فنحن نعرف مثلا أنه ما من حضارة إلا وشاخت وسقطت وانهارت وانسحب أصحابها إلى الظل إلى أن تواتيهم فرصة أخرى يعودون بعدها إلى الساحة لاعبين ناشطين مؤثرين، وربما لم يقدَّر لهم أن يعودوا مرة ثانية لقرون طوال، بل ربما استؤصلوا فلم يبق منهم أحد، وإن تركوا خلفهم للتاريخ آثارا تقول إنه كانت هاهنا يوما حضارة أقامها الشعب الفلانى البائد. لكن المشكلة هى أنه ما من فيلسوف أو مفكر أو مصلح استطاع أن يضع خطة يقينية لترميم حضارة قومه المنهارة وبَعْثها وبَعْثهم إلى الحياة الفاعلة المؤثرة على أساس منها. نعم قد ينجح بعض المصلحين فى ترميم هذا الجانب أو تقوية ذاك الجانب حين تكون حضارة قومه لا تزال حية، فيؤخر سقوطها أو يطيل قوتها بعض الشىء. لكن متى انتهى الأمر وسقطت الحضارة فهنا يتغير الموقف. وها نحن فى بلاد الإسلام نحاول أن ننهض من رقدة الشلل التى نرقدها منذ قرون، وتقوم انقلابات وثورات هنا وهناك، ونجرب أنظمة نقتبسها من هنا وهاهنا، وتتوالى الوجوه فى دست الحكم، ونخوض حروبا بعضنا ضد بعض أو تُشَنّ علينا حروب لم نختر توقيتها ولا أحسنّا الاستعداد لها، وننفق الثروات الهائلة على السلاح ونتوسع فى التعليم ونبنى المدن الجديدة ونأخذ بيد المرأة ونُدْخِل شكل النظام الديمقراطى إلى حياتنا السياسية وننقل عن الغرب أحدث ما عنده فى عالم الاتصالات والمواصلات،

لكن الثمرة شحيحة ومرة وقليلة الجدوى، وتبدو الأمور وكأننا نمشى بخطا السلاحف فى الوقت الذى يطير العالم من حولنا طيرانا فى أجواء السماء. ويتساءل العقل: لماذا لا نستطيع أن نحرز شيئا مما نتطلع إليه؟ سيقال إننا غير جادين، وعزائمنا خائرة فاترة، وإن معظم نشاطنا كلام، وأفعالنا قليلة وينقصها الحرارة والجِدّ والإخلاص. ونقول: نعم هذا صحيح، لكن السؤال يبقى كما هو: لماذا؟ من الممكن أن يقال إن هذا ميراث لزمن طويل من التخلف والضعف ورثناه عن آبائنا وأجدادنا. ومرة أخرى نقول: هذا صحيح، ولكن لماذا لا نستطيع أن نتغلب على هذه العيوب ونعتق من إسار هذا التخلف الذى وَرَّثونا إياه، ونرجع إلى القيم العظيمة التى خلقت منهم سادة للعالم بعد أن لم يكونوا شيئا ذا قيمة، قيم الإسلام العقيدية والعلمية والخلقية والاجتماعية والإنسانية، بدلا من قيم التخلف من تواكل وبلادة ونفور من السعى الجاد وراء العلم ورضا بالدَّنِيّة فى كل مجال تقريبا ونكوص عن المعالى وضعف فى الثقة بالنفس واستسلام للاستبداد: الاستبداد الداخلى والاستبداد الخارجى على السواء، واكتفاء بالشقشقة اللفظية دون أن يصاحبها عمل جاد من شأنه أن يغير ويصلح ويبلغ بنا ما نتطلع إليه من آمال؟

سيقول هِيجِلْ إن الحضارة تشبه مشعلا يتناوله كل شعب من الشعب الذى سبقه فيحمله زمنا ليسلمه بدوره إلى من يليه. وليس لنا على هذا الكلام أى اعتراض، وبخاصة أننا تسلمنا يوما تلك الشعلة وحملناها زمنا طويلا، ثم فقدناها، وليس فى الأفق ما يبشر أننا مستعيدوها قريبا، اللهم إلا إذا فاجأتنا الأقدار بشىء ليس فى الحسبان. لكن هذا لا يحل المشكلة كما قلنا، ولا يعيد لنا الشعلة ثانية لنَشْرُف بحملها ونتقدم الصفوف ونسترد كرامتنا التى ضيعناها بأيدينا ونعيش كما يعيش عباد الله الكرام فى عزة وطمأنينة وقوة وجاه. وسيقول لنا شبِنْجِلَرْ إن الحضارات تولد وتنضج ولكنها لا تبقى إلى الأبد، بل تشيخ وتموت لتحل محلها حضارة أخرى لشعب طافر متوثب. وليس لنا أدنى اعتراض على هذا، فهذا هو ما يقوله لنا التاريخ بلسانه الطلق الفصيح وقانونه الذى لم نره يوما يتخلف حتى الآن. ولكن لماذا لا تهبّ أمتنا تطفر وتتوثب وتتخلص من تخثُّر قواها وبلادة مشاعرها وعجز همتها وفتور إرادتها وكسل عقلها كما فعلت أمم من حولنا كاليابان مثلا، التى بدأت نهضتها الحديثة معنا هنا فى مصر فتقدمت إلى الصف الأول فى مجالات كثيرة، وبقينا نحن فى تخلفنا وضعفنا، أو كالصين، التى لا تعود نهضتها السياسية والاقتصادية إلا إلى بضعة عقود لا تُعَدّ فى حساب التاريخ شيئا، وها هى ذى تفرض نفسها على المحافل الدولية بعدما كانت عليلة الجسد يُظَنّ أنها تلفظ أنفاسهاالأخيرة،

إذ كانت ترقد صريعة الأفيون القاتل الذى أغراها به البريطانيون حتى أدمنته إدمانا، فلم يعد يجرؤ متجرئ أن يلمس لها طَرَفا أو يستطيل عليها أو يهددها مجرد تهديد، فى الوقت الذى لا نبرح نحن مكاننا فنظل نراوح خطواتنا، بل نتراجع للأسف إلى الوراء فى كثير من الأحيان؟ بل إننا حتى فى ميدان الرياضة لا نستطيع أن نحرز كأس العالم فى أية لعبة ولو مرة واحدة برغم ما ينفق فى هذا المجال من أموال طائلة وما يَلْقَاه اللاعبون من تشجيع وتدليل لم يكن أحد منهم يحلم به ولا فى المنام.

وسيقول تُويِنْبِى إن الحضارة تقوم حين يكون ثَمَّ تحدٍّ تتصدى له الأمة وتفلح فى اجتيازه وهَزْمه. وللمرة الثالثة نقول إننا لانستطيع أن نمارى أو نشارى فى هذا، ولكن السؤال دائما هو: لماذا، ونحن نواجه، منذ زمن طويل، تحديات هائلة من التخلف والفقر والجهل والمرض والاستعمار والاستبداد والهوان الحضارى لا نستطيع التصدى الحقيقى لهذه التحديات؟ اللهم إلا إذا كان التصدى خطبا حماسية وشعارات صاخبة وأناشيد دِعائية تُصِمّ الآذان وتطمس العقول بضجيجها وكلامها المفرط فى المغالاة ورقصا وطبلا وزمرا، فقل عندئذ إننا صمدنا فأحسنّا التصدى، ولم تقف فى طريقنا عقبة من العِقَاب، أو تَقُمْ لنا صعوبة من الصعوبات دون أن نسقحها سحقا.

ومن هنا أرانى أميل إلى الدكتور حسين مؤنس فى تأكيده أنه «لا يوجد علم يسمى: «فلسفة التاريخ»، وإنما هناك محاولات من جانب نفر من الفلاسفة والمؤرخين وعلماء البشر- والاجتماعيين لفهم القوى المسيِّرة للتاريخ أو للعثور على قواعد تحكم مسير الحوادث أو لمعرفة أسباب قيام الحضارات وتدهورها وما إلى ذلك. وكلها محاولات لم تصل إحداها إلى وضع قواعد أو قوانين أو حتى خطوط عريضة تعين على إدراك ما وراء الحوادث أو تساعد على تعريفنا بالطريق الصحيح الذى ينبغى على البشر- أن يسيروا فيه ليصلوا إلى بناء مجتمع إنسانى أكثر أمنا واستقرارا، وأقدر على توفير أسباب الرخاء وما يسمى بـ«السعادة» للبشر. حتى كلام هيجل فى فلسفة التاريخ ما هو إلا تأملات عاشت حية فى أذهان الناس أيامه وشغلت الأذهان بعدها، حتى جاء كارل ماركس فزعم أنه حطمها، وسخر من قول هيجل: «عندى ينتهى التاريخ»، وقال إن التاريخ الحقيقى للبشر لم يبدأ بعد لكى يقال إنه انتهى. وبدايته عنده هى انتقال القوة الموجِّهة للتاريخ من أيدى مغتصبيها من السياسيين والرأسماليين، بحسب رأيه، إلى أيدى العمال، الذين يصنعون التاريخ بأيديهم وثمرة أعمالهم. وهذه أيضا قضية فيها من المغالطة شىء كثير. وإذن فليس هناك على الحقيقة علم يسمى: «فلسفة التاريخ»،

ولا أعرف مؤرخا، مهما عظم، يســتطيع أن يقول إنه يدرس مادة بهذا المعنى. وكل ما يزعمه بعض الناس فى هذا المجال إنما هى تصــوراتٌ وأمانىّ. ومن هنا فلا نعجب من أن تُويِنْبِى، وهو أكبر من حاول فلســفة التاريخ فى عصرـنا، لم يقل قَطُّ إنه فيلســوف تاريخ. وأحسن ما قيل فيه إنه شاعر» (د. حسين مؤنس/ الحضارة- دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها/ 8).

لقد بدأ ما يسمى لدينا بـــ«النهضة الحديثة» منذ أكثر من قرنين، لكننا لم نبلغ شيئا ذا قيمة مما نتطلع إليه، إذ كنا وما زلنا نتطلع، أو نقول إننا نتطلع، إلى الاســتقلال وإحراز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والأخلاقية والنفسية، فماذا حققنا من هذا؟ لا شــىء تقريبا. صــحيح أن لدينا مثلا مؤســســات تعليمية، ولكن التعليم فيها ضــعيف، وعندنا الجيوش، ولكنها لا تحرز انتصــارا عادةً، وفى أيدينا البترول فى دول الخليج وغير دول الخليج، وعندنا قناة الســويس فى مصرــ، وعندنا الأرض الزراعية الشاسعة فى السودان، وبإمكانها توفير الغذاء للعالم العربى طبقا لما يقول الاقتصاديون، ولكننا نفتقد العزة، و ما زال الفقر يُنِيخ بكلكله على بلاد المســلمين بو جه عام. كما ا ستوردنا أ شكال المؤ سسات الديمقراطية، لكن الا ستبداد يجثم على أنفاس الشعوب دون أى فرق بين جمهورية وملكية حتى صارت الشعوب فى الأنظمة الجمهورية أيضا تُورَث جهارا نهارا، فى حين لا تبالى الشعوب

ولا تحاول أن تتخلص من هذه الأوضاع المزرية بالكرامة الإنسانية، بل تبدو وكأنها تباركها وتستزيدها بما يوهم أن حياتها قد بلغت أعلى مستويات الرفاهية والكرامة والمجد. وقل فى باقى المؤسسات والأوضاع ما قلناه هنا، فلن تخطئ فى قولك.

لقد تتالت الحركات والانقلابات والثورات العسكرية، وظهر المصلحون أو مُدَّعُو الإصلاح من كل لون وشكل: فمن حكام إلى صحافيين إلى مفكرين إلى أدباء إلى علماء إلى ضباط، ومن محمد على إلى رفاعة الطهطاوى إلى جمال الدين الأفغانى إلى محمد عبده إلى عرابى إلى عبد الله النديم إلى مصطفى كامل إلى محمد فريد إلى سعد زغلول إلى حسن البنا إلى محمد نجيب إلى جمال عبد الناصر... إلخ، وهذا فى مصر فقط، إلا أن شيئا حاسما ينقل الأمة من حال إلى حال لم يقع ولا حتى فى الدين، فالأغلبية تفهمه على أنه لحية ونقاب، ثم الصلاة والصيام لا غير، ثم تبقى الأمور بعد ذلك على حالها، فلا الطالب تدين تدينا حقيقيا واجتهد فى أن يتفوق ويتقرب إلى الله سبحانه من خلال السعى الجاد لتثقيف عقله وذوقه بحضور الدروس وارتياد المكتبات واستذكار المقرر أولا بأول وإتقان ما يُطْلَب منه تحضيره وعدم الاكتفاء بالكتاب المدرسى، ولا الحِرْفِىّ تدين تدينا حقيقيا فاحترم مواعيده واعتدل فى تقدير أتعابه وأتقن إصلاح ما يصلحه لصاحب البيت ولم يخدعه بقطعة غيار قديمة يخرجها من حقيبته قد أخذها بسيف الحياء من عميل سابق وقدمها إلى عميله اللاحق على أنها قطعة جديدة معطيا إياها له بثمن أكبر من ثمن الجديدة،

ثم هى لا تعمل فى الغالب إلا لوقت محدود مقدار ما ينصرف الحرفى، وإذا بالمشكلة تعود من جديد، وكأنك يا أبا زيد ما غزوت... وهكذا دواليك. وقس باقى البلاد العربية والإسلامية على مصر، فلسوف تجد الأوضاع متشابهة، وكأننا ثمرة خط إنتاج واحد لا يتغير، اللهم فى التفاصيل التافهة، أما الخطوط العامة والأمور الهامة فلا اختلاف فيها.

والعجيب أن الرسول ﷺ، وكان الإسلام لا يزال فى غضارته ونضارته ويتوثب حيوية وانطلاقا ونشاطا ويكسب النصر بعد النصر، والقرآن يبشر المسلمين بأن لهم الغلبة على أعدائهم، وهو ما وقع فعلا حسبما بشَّر ـ، العجيب أن يقول الرسول مع ذلك للمسلمين فى ذلك الوقت أيضا: «يوشك أن تَدَاعَى عليكم الأمم من كل أفق كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله، فمن قلة يومئذ؟ قال: لا، ولكنكم غُثَاءٌ كغثاء السيل: يُجْعَل الوهن في قلوبكم، ويُنْزَع الرعب من قلوب عدوكم لحبّكم الدنيا وكراهيتكم الموت»، أى لفقدانكم عوامل الحضارة وموات عزيمتكم وكراهيتكم للحياة الحرة الأبية الكريمة الراقية ورضاكم بالهوان على أيدى حكامكم وأعدائكم، فلا تنصركم السماء بعدما خذلتم أنتم أنفسكم بأنفسكم، وحقت عليكم كلمة الله وعقوبته فى الدنيا قبل الآخرة، ثم فى الآخرة بعد الدنيا. والحق أنه لو لم يكن للرسول إلا هذه النبوءة لكفته عندى دليلا على أنه رسول صادق أمين، إذ لماذا يزعج النبى الكاذب أتباعه، وهم فى غمرة النصر ونشوته، بالتنغيص عليهم بمثل تلك النبوءة،

إن كان يستطيع أى نبى كاذب التنبؤ بمثلها أصلا؟ إن هذا لكلامُ الأنبياء الصادقين. وها نحن المسلمين أولاء نراه بأم أعيننا منذ قرون، وبخاصة فى حرب الخليج الثانية حيث تداعت على العراق الأمم من كل جانب ومن كل شكل ولون بما فيها تلك الأمم التى لم يسمع الإنسان باسمها يوما، بل لا يستطيع أن يراها على الخريطة لهوان شأنها، فهى نكرة لا تلفت نظر أحد، وكلها اشتركت فى ضرب العراق. وما كان الله ليظلمنا، ولكن كنا لأنفسنا ظالمين!

ولعل القارئ قد لاحظ إنحائى باللائمة على الشعوب أوّلاً لا على الحكام، على عكس ما هو شائع بين المصلحين والدارسين والمفكرين. ذلك أن أصحاب المصلحة فى التقدم والتحضر إنما هم الرعية لا الراعى، الذى كلما كانت رعيته ترتع فى الجهل والخنوع والرضا بالهوان وتنحنى راكعة على قدميه تلثمهما كان ذلك أحرى بإسعاده، إذ يصير الحكم كله بهذه الطريقة مغانم ولذة وحبورا، فلا أحد يناوئه، ولا أحد يحاسبه، ولا أحد يعترض عليه، ولا أحد يطالبه بشىء مما يحتجنه فى يديه، ولا أحد يجرؤ على النظر إلى وجهه. ومَنْ مِنَ الناس يكره أن يكون هو ذلك الحاكم فيعمل على أن يخلق لنفسه أسبابا للإزعاج والتنكيد؟ كتب د. أحمد أمين فى كتابه الشائق المؤلم: «يوم الإسلام»، الذى يتحول فى نهايته إلى مرثية مرة للعالم الإسلامى وللمسلمين، ولم يكن ينقص المؤلف إلا أن ينشج من الهم والقهر لما وصلت إليه حال أمته، كتب الرجل أنه فى سنة 1910م

ألقى محاضرة وهو فى السنة الثالثة بمدرسة القضاء الشرعى بمناسبة رأس السنة الهجرية، فأكد أن أكبر سبب لانحطاط المسلمين، فى الماضى كما هو فى الحاضر، يعود إلى الحكام ورجال الدين، إذ الحكام بأيديهم زمام الشعوب، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ ، و قال: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾. و شخّص أحمد أمين الداء فى أمرين: تنازع الحكام على السلطة، وإمعانهم فى شهواتهم ولهوهم وجباية الأموال بالعسف والبطش والمصادرة والقتل. وأنا معه فى كلامه عن فساد الحكام ورجال الدين: معظمهم طبعا وليسوا كلهم، لكننى لست معه فى تحميل الحكام ورجال الدين القسط الأكبر من المسؤولية عن ذلك حسبما وضحتُ آنفا.

كما أن الحكام لم يَتَدَهْدَوْا إلى العسف والبطش واستباحة دماء المخالفين إلا حين وجدوا الشعوب تخنع لهم ولا تتمرد على جبروتهم فاسْتَحْلَوْا ذلك العسف وهذا الجبروت. والنفس البشرية كالإعصار تجتاح ما تجده أمامها ما دامت تستطيع اجتياحه. فإذا لم يجد الحاكم الباطش من الشعب الذى يحكمه قوة تحجزه عن الهبوب الجامح والتحطيم المبيد انطلق فى عنفوانه يقلع ويخلع ويحطم ويدمر ويستولى ويبطش، وما من محاسب أو مُسَائل. ولو كانت الشعوب متنبهة إلى حقوقها فى محاسبة حكامها وتقويمهم

إذا ما انحرفوا واجتهدتْ فى وضع نظام لتبادل السلطة يقيها شرور التنافس الشرير المبير بين الطامعين فيها وحَرَصَتْ على تطبيق ذلك مهما كانت التضحيات والمتاعب لَوَضَعها الحكام فى اعتبارهم ولم يهملوها ويستهينوا بها كما هو الحال فى بلاد المسلمين منذ قرون طوال. ثم إن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: 64- 68]، وهو ما اقتطع منه الأستاذ الدكتور الآية الأولى التى استشهد بها فى خطبته، يدل على أن العذاب فى النص الكريم قد وقع على هؤلاء الذين يشكون من كبرائهم وساداتهم. وإذا كان هؤلاء قد دَعَوْا على السادة والكبراء أن يعذبهم الله ضِعْفَيْن فقد وضح القرآن فى آية أخرى أن لكل من الفريقين: السادة الكبراء والرعية الحقراء ضِعْفَيْن متماثلين، وإن كانوا لا يعلمون هم ذلك لانطماس بصيرتهم وتصورهم أنهم مُعْفَوْن من العُهْدة غير دارين أن العهدة عليهم أعظم وأشدّ لأنهم فرّطوا فى حقوقهم وكرامتهم: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 38]. كذلك نسمع القرآن فى موضع ثالث يصور لنا حالة الفريقين فى النار يوم القيامة إذ يتجادلون فى نصيب كل منهما فى المسؤولية:

﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ [البقرة: 165- 167]، ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: 47- 48].

أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 16] فلا يمكن أن يُفْهَم حق الفهم إلا إذا قلنا إن التدمير ليس بسبب فسق الحكام وحدهم، وإلا فما ذنب الشعب؟ الواقع أن الشعوب هى المسؤولة أولا عن سكوتها على فسق حكامها وسَوْمهم إياها التنكيل والإفقار والتجويع والقتل والسجن والتشريد وتكبيلها بالمعاهدات المجنونة التى لا تراعى مصالحها ولا تضع مستقبلها فى الاعتبار. وعلى هذا فمعنى الآية أنه إذا ما أراد الله إهلاك مجتمع من المجتمعات، أى إذا ما قُدِّر لمجتمع من المجتمعات أن ينهار ويهلك، فإن أسباب الهلاك تظهر أول ما تظهر فى مترفيه. فإذا استيقظ الشعب ووقف ضد هذا الفساد وحاربه

وأثبت أنه شعب من الرجال الأعزة الكرام فأوقف المترفين الفاسقين عند حدهم ورَدَّهم عن بغيهم، فإن المجتمع يُكْتَب له فى هذه الحالة العافية والفلاح، أما إذا انقمع الشعب وارتعب وحنى ظهره لحكامه كى يركبوه ويمتطوه على هواهم فإن الله يدمره فى هذه الحالة تدميرا. فليس معنى ما يقوله القرآن عن أَمْر الله للمترفين بالانحراف أنه عز وجل يأمرهم بالفسق والفجور، بل معناه أن هذه سنته فى هلاك الأمم، إذ تنام الشعوب عن حقوقها ومصالحها فينشأ الطغيان، ثم يزيد الطين بِلَّةً بأن تخنع الشعوب لذلك الطغيان بدلا من أن توقفه عند حده. ولقد وجدت الأمير شكيب أرسلان أيضا يرجع السبب فى تقدم المسلمين قديما وتخلفهم إلى العزة، وتهاويهم فى عصرنا هذا إلى فقدانهم للعزة، تلك العزة التى هى من صفات المؤمنين حسبما تقول الآية الثامنة من سورة «المنافقون»: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. كما أشار، رحمه الله، إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ موضحًا أنه حين فقد المسلمون العزة تغيروا فغير الله أوضاعهم من الرقىّ إلى الانحطاط (انظر كتابه: «لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟»/ 43). وقد سبق، لدن حديثى عن مفهوم «القابلية للاستعمار» فى كتابات ملك بن نبى، أن قلت إن هذه القابلية للاستعمار ليست إلا عرضا لمرض دفين سابق هو الذلة وفقدان الشعور بالكرامة.

وقد أوجز د. أحمد أمين، فى مقدمة كتابه: «زعماء الإصلاح فى العصر ـ الحديث»، وصف أوضاع المسلمين فى قمة مجدهم وفى وهدة انحطاطهم فأحسن الإيجاز إذ كتب يقول: «بلغ العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأولى شأوا بعيدا في الخلق والعلم والحضارة حتى كاد يكون سيد العالم في هذا كله: فخُلُقه في حربه وسلمه قوي متين، وعِلْمُه استوعب ما عند الأمم الأخرى من هند وفرس ويونان وروم وهَضَمه كله ومزجه مزجا جميلا وبنى عليه وابتكر فيه، وحضارته كانت خير الحضارات. تزدهر مدنه كبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة بشتى ألوان الحضارة من علم وفن وعمارة وتجارة وصناعة حتى كان يُرْحَل إليها جميعا للأخذ عنها والاقتباس منها. هذا إلى حرية في العقيدة، وحرية في القول والعمل. وهي حرية قلما كان يتمتع بها غيرهم من الأمم. وكان ينعم بها كل من استظل بظلهم من نصارى ويهود ومجوس، على حين كان يشقى في الشعوب الأخرى كل من خالف دينها واعتقد غير عقيدتها. ثم بدأت فيه عوامل الضعف بعد ذلك، وتوالت عليه الكوارث، وتتابعت عليه الخطوب. وكلما مر عليه زمن زاد ضعفه وبدا هزاله. وكان أول ذلك ما دهمه من قبائل الترك الرحالة، وكانوا إذ ذاك معروفين بالغلظة والجفوة، لا يحسنون إلا القتال من غير رحمة، والفتك من غير روية.

لا علم ولا حضارة ولا معرفة بأساليب الحكم وقوانين السياسة. ومَكَّن لهم الخلفاء لحاجتهم إليهم حتى كانوا السيد المطاع والحاكم المستبد. وسرعان ما دخلوا في الإسلام ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، فلم يؤاخوا المسلمين بل استعبدوهم، ولم يرحموهم بل نكّلوا بهم، ولم يؤسسوا علما ولا حضارة، بل قضوا على العلم والحضارة.

وجاءت الحروب الصليبية فاكتسحت آسيا الصغرى، واستولى الصليبيون على بيت المقدس، وجندت أوربا الجيوش تلو الجيوش لهذا الغزو، وتتابعت البعوث قرونا، والعالم الإسلامي يبذل كل جهوده وقواه وموارده لدفع هذه النازلة، حتى استنفدت ذكاءه وماله ومهارته وكل مقدرة له. وفي القرن السابع الهجري اكتسح المغول جزءًا كبيرا من العالم الإسلامي، وعلى رأسهم جنكيزخان هذا الجبار المتمرد، ثم خلفاؤه من بعده مثل هولاكو. ولم تكن غايتهم الفتح والاستعمار ولا الغُنْم والاستلاب فحسب، بل كانت الفتك والتدمير أيضا، فحطموا بغداد وحضارتها وعلمها وفنها، وكانت زينة العالم وبهجة الدنيا، فذبحوا أهلها وخرّبوا عمرانها، وأتلفوا جسورها وكل ما بها. وكانت نكبة بغداد نكبة العالم الإسلامي. وفي أول القرن التاسع الهجري زحف تيمورلنك، فمثّل دور جنكيز خان وهولاكو، فذبح ودمّر وأتلف وخرّب، ورمى العالم الإسلامي بكارثة عظمى ولمّا يستفق مما غَشِيَه من النوازل قبلها.

ثم امتدت فتوح الأتراك العثمانيين فلم يكن حكم أكثرهم حكما صالحا، ولم يَسُوسُوا الأمم سياسة عادلة. كانوا شجعانا مقاتلين، ولم يكن أغلبهم ساسة عادلين. عُنُوا بالحرب أكثر مما عُنُوا بالإدارة ونظم الحكم، ومهروا في الفتح أكثر مما مهروا في إقامة صرح العلم ومتابعة السير بالحضارة، فزاد العالم الإسلامي تدهورا على توالي الأزمان: ظلمة حالكة، ومحنة شاملة، وجهل مطبق، وظلم فادح، وفقر مدقع.

هذا سائح فرنسي يزور مصر في آخر القرن الثامن عشر، وهو مسيو فولني، وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات، يقول: «إن الجهل في هذه البلاد عام شامل، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ سائر البلاد التركية. يشمل الجهل كل طبقاتها، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية من أدب وعلم وفن، والصناعات فيها في أبسط حالاتها، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبيا». وهذه الحكومة المصرية نراها إذ ذاك تخشى تعليم الرياضة والطبيعة، فتستفتي شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنبابي: «هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبَّر عنه بـ«الكيمياء» وغيرها من سائر المعارف؟»، فيجيب الشيخ في حذر: «إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها»!!، كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها، ولم يكونوا من مخترعيها وذوي التفوق فيها.

كان العالم الإسلامي منعزلا لا يتصل بأوربا إلا فيما تعانيه تركيا من مشاكلها السياسية، فليس هناك بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوربية اتصال في الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم يمهد لها الاستفادة منها والأخذ عنها. لقد أُغْلِقَتْ على العالم الإسلامي الأبواب منذ الحروب الصليبية، وأخذ يأكل بعضه بعضا. وقف المسلمون في علمهم فليس إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها، وفي صناعتهم فلا اختراع ولا إتقان للقديم، وفي آلاتهم وفنونهم العسكرية فهي على نمط الأقدمين. وسكان المدن والريف قد أُبْعِدوا عن الاشتراك في الشؤون السياسية والحربية فلا تراهم في جيش ولا في قيادة جيش، ولا رأي لهم في الحكم ولا في السياسة ولا في الإدارة. إنما هم مزرعة الحكام ومُسْتَغَلّ الولاة والأمراء. كلما تفتحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلا لملئها بالمال يجمعونه من كد يمينهم وعرق جبينهم. مركز الخلافة، وهو الآستانة، مفكك منحل، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة متضعضعة قد أمات نَفْسَها توالي الاستبداد عليها. العلم فيها كتابٌ دينيٌّ شكليٌّ يُقْرَأ، أو جملةٌ تُعْرَب، أو متنٌ يُحْفَظ، أو شرحٌ على متن، أو حاشيةٌ على شرح. أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلا حساب بسيط يستعان به على معرفة المواريث، أو قبس من فلك قديم يُسْتَدَلّ به على أوقات الصلاة. والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأمراء، وكل أمير له حزبه، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه، والبلاد ضائعة بينهم. الوالي لا يطيل المكث إلا ريثما يغتني حتى أصبح اسم الحكومة والوالي والجندي مرعبا مفزعا مقرونا في النفس بمعنى الظلم والعسف.

وأعجب من هذا كله إلف الشعوب الإسلامية هذه الحالة السيئة واستنامتها إليها وكراهيتها لكل إصلاح: فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الإنكشارية، وإذا أريد إصلاح القضاء غضب العلماء. وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامي إذ ذاك شيخا هرما حطمته الحوادث، ونَهِكَه ما أصابه من كوارث: فساد نظام، واستبداد حكام، وفوضى أحكام، وخمود عام، واستسلام للقضاء والقدر، وترديد لقول الشاعر:

دَعِ المقادير تجري في أَعِنّتها ولا تَبِيتَنَّ إلا خاليَ البالِ

فقد الدين روحه، وصار شعائر ظاهرية لا تمس القلب ولا تحيي الروح. سادت الخرافات، وانتشرت الأوهام، وأصبح التصوف ألعابا بهلوانية، والدين مظاهر شكلية، ووسيلة النجاح في الحياة ليست الجِدّ في العمل، ولكنِ التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء، فهم الذين يُنْجِحون في العمل، وهم الذين يَنْصُرون في الحروب. والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين. هذا هو الحال في الشرق، أما الغرب فلم يكن أصيب بكوارث الشرق. وقد بدأت أوربة تستيقظ منذ الحروب الصليبية، وتنشئ لها حضارة جديدة مؤسسة على العلم والحرية، وتتقدم في الصناعة، ويتدفق عليها المال من اكتشافها أمريكا وغيرها، وتخترع وترتقي في النظم الحربية على أساليب جديدة، وتنشيء الأساطيل الضخمة. حتى إذا شعرت بقوتها هجمت على الشرق بآلاتها وأسلحتها واختراعاتها فتساقطت أقطاره في يدها،

وكانت إذا دخلت قطرا ضغطت عليه بكل قوتها، واستغلته لمصلحتها، وأجرت فيه الأمور على هواها. فكان من جراء هذا الضغط أن أخذ وعي الشرق يستيقظ، وطموحه يتوثب. وكان من طبيعة هذا أن يتقدم الصفوف زعماء للإصلاح يشعرون بآلام شعوبهم أكثر مما تشعر، ويدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما تدرك، ويفكرون التفكير العميق في أسباب الداء ووصف الدواء. وكل مصلح ينظر إلى المرض من زاويته ويدعو إلى مداواته حسب خطته، فكان من ذلك مصلحون مختلفون دَعَوْا إلى الإصلاح في أقطارهم على حسب بيئتهم وثقافتهم ومزاجهم. وكلٌّ قد أبلى بلاء حسنا، ولاقى من العناء ما لا يتحمله إلا أولو العزم: فمنهم من شُرِّد، ومنهم من قُتِل، ومنهم من رُمِيَ بالخيانة العظمى. فمن نادى بالمساواة بالعدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتُّهِم بمحاربة المسلمين، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفرنج والخروج على التقاليد، ومن نادى بتأسيس مجلسٍ شُورِيٍّ اتهم بمحاربة السلطان والحض على الثورة والعبث بالنظام، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع بها إلى أصل الدين اتهم بالإلحاد... وهكذا، وهم على هذا صابرون مجاهدون، أحبوا مبدأهم في الإصلاح اكثر مما أحبوا الحياة، ولم يعبأوا بالعذاب يحيق بهم في سبيل تحقق فكرتهم، وظلت آراؤهم تعمل عملها في حياتهم وبعد موتهم حتى تحقق إصلاحهم ونفذت أفكارهم، وتقدم الشرق على أيديهم خطوات تستحق الإعجاب».

هذا ما قاله المرحوم أحمد أمين، لكنى أنظر إلى ما هو أمامى فأجد الصـــورة قاتمة، ولا أظنه كان يبقى على نفس الرأى لو كان حيا بيننا الآن: فالاســتبداد فى العالم الإســلامى لا يزال فى أشــد عنفوانه حتى إن الجمهوريات قد شرعت تتحول إلى ملكيات، وأخذ الرؤســاء يورّثون الســلطان لأبنائهم جهارا نهارا دون مبالاة بالشعوب، والشعوب ساكتة ساكنة ميتة المشاعر والوعى كأن الأمر لا يمسها فى قليل ولا كثير، ولا يعنيها من بعيد ولا من قريب. هذا فى السياسة الداخلية، أما فى ميدانها الخارجى فقد اســتولى اليهود على فلســطين، وعقد عدد من الحكام العرب والمســلمين مع إسرائيل معاهدات واتفاقات وبادلوها التمثيل الدبلوماســى بعدما غبر عليهم زمن كانوا يضحكون فيه على الجماهير مغيبة العقل بأنهم سوف يلقون بها فى البحر. كما عاد الاستعمار الغربى إلى بعض البلاد العربية والإسلامية مسفرا عن وجهه بكل جرأة ووقاحة، وإن كنا جميعا نعرف أنه كان موجودا طول الوقت فى كل البلاد تقريبا، ولكن على نحو مستور. وفوق ذلك فالفساد المالى والإدارى والتعليمى كبير، والفوارق بين الأغنياء والفقراء تزداد حدة، ومعظم الحكام يتصرفون فى مالية الدولة كأنها ملك شخصى ورثوه وراثة.

من هنا نستطيع أن نفهم قول د. محمود حمدى زقزوق فى تشخيصه للأوضاع القائمة فى عالم الإســلام: «يعانى العالم الإســلامى فى العصر الحاضر من أزمة طاحنة متعددة الجوانب، ففى الوقت الذى تتلاحق فيه التطورات العلمية والفكرية والحضــارية فى مناطق العالم المتقدم إذا بنا نرى التخلف بكل أبعاده المادية والمعنوية والعلمية والدينية والفكرية والحضارية يخيم على العالم الإسلامى...

إننا، كمسلمين، لا نستطيع أن ننكر أن واقع الأمة الإسلامية واقع متخلف ومحزن ويدمى النفس الإنسانية، ولكن لا نستطيع أن ننكر فى الوقت نفسه أن هذا الواقع المحزن منفصل عن النموذج الإسلامى الحضارى بمائة وثمانين درجة. ولم تستطع الصحوة الإسلامية المعاصرة أن تقترب حتى اليوم بطريقة جِدِّيّة من هذه القضية المصيرية الأولى، بل ظلت حتى يومنا هذا مشغولة بمحيط الدائرة وبعض المظاهر الشكلية والأمور الهامشية، ومهتمة بالجزئيات دون الكليات، واختلط لديها سلم الأولويات، فانقلبت الضرورات هامشيات، والهامشيات ضروريات، وغابت معالم الرؤية الواضحة المتعقلة المستنيرة، وضاعت أصوات العقلاء من رواد هذه الأمة وسط ضجيج الانفعالات العاطفية التى تتصف فى بعض الأحيان بشدة حدتها وانفلات وعيها بما يدور حولها فى عالم اليوم» (د. محمود حمدى زقزوق/ الحضارة فريضة إسلامية/ مكتبة الشروق/ 2001م/ 33، 35).

والدكتور زقزوق محق تماما فى تأكيده أن «الحضارة فريضة إسلامية» كما جاء فى عنوان كتابه الذى نحن بصدده. ذلك أنه من غير الممكن أن يكون الإنسان مسلما صالحا إلا إذا كان متحضرا راقى الحضارة؛ لأن الحضارة الراقية، كما رأينا على مدى الفصول الماضية، هى الإسلام، والإسلام هو الحضارة الراقية. وعلى هذا فأى تقصير حضارى هو خصم من قيمة إسلام الشحص مهما زعم المزاعم وظن أنه يحسن صنعا، إذ ليس الإيمان بالتمنى،

ولكن ما وَقَر فى القلب وصدّقه العمل، أى ما تحول إلى أفكار وأقوال وتصرفات وأخلاق حضـــارية. لكننى لا أوافق د. زقزوق رغم هذا فى قوله إن «الحضـــارة، بوصفها فريضة، لا تقل فى أهميتها للمسلمين فى عالم اليوم عن أى فريضة أخرى من فرائض الإسـلام الأسـاسـية مثل الصـلاة والصـوم والزكاة والحج، وإن العمل من أجلها يعد عبادة لله سبحانه وتعالى» (المرجع السابق/ 5)، إذ ليست الحضارة فريضة عادية بل هى فريضة الفرائض، لأنها هى الإسلام ذاته. لقد رأينا أن الحضارة تشمل العقيدة والأخلاق والعلم والعمل والذوق الرفيع. ترى ما الذى يبقى لكى يقال إن الحضارة لا تطابق الإسلام؟ إن الصلاة والصيام والزكاة والحج تدخل فى العقيدة، لأن العقيدة هنا تشمل العبادات والشرائع أيضا. وعلى هذا فإن العبادات لا تمثل من الدين ولا من الحضارة الإسلامية إلا جزءا يسيرا فقط. ومن ثم فالإسلام أكبر من أن نحصره فى العبادات، إذ هو كُلٌّ، والعبادت ليست سوى جزء من هذا الكل.



الفهرس